صـــورة المرأة فـــي
فن الغزل في الشعر الجاهلي
وصـدر الإســـلام

دراســـة وصفيـــة

خديجة إبراهيم عرومو

مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية
Abdulaziz Saud Albabtain Cultural Foundation
Founded in 1989

هـذا الكتاب في أصله أطروحة نالت عنها الباحثة

خديجة إبراهيم عرومو

درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها (أدب ونقد)
من جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا
كلية الدراسات العليا

ردمك: 9 - 12 - 704 - 9921 - 978
رقم الإيداع: 2019 - 0289
حقوق الطبع محفوظة
مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية
هـاتـف: 22415172 965 +
فاكـس: 22455039 965 +
بريد إلكتروني: **info@albabtaincf. org**

تصميم الغلاف: محمد العلي

الطبعة الأولى
صدرت بمناسبة إقامة الموسم الثاني عشر
لمهرجان ربيع الشعر العربي - مارس 2019

الكويت

2019

التصدير

كانت المرأة موضوعًا شعريًّا مثيرًا تناوله شعراء ما قبل الإسلام، وحفل شعرهم بالتغزل بجمال المرأة وصفاتها، حتى إنهم جعلوها درّة وأسطورة أحيانًا رغم شيوع بعض العادات السلبية في هذا العصر، كعادة وأد البنات عند بعض القبائل العربية، إلا أنه في مقابل ذلك كانت للمرأة صورة أخرى تضعها في مقام كبير ومكانة عالية مقدّرة في قبيلتها وعند أبيها وزوجها، وكانت المرأة تشارك في الحروب محمسة المقاتلين مثيرة نخوتهم ومداوية جراحهم.

وهناك من النساء من تسنّمت العروش مثل بلقيس ملكة اليمن وزنوبيا ملكة تدمر، ومنهن كثير من الشواعر كالخنساء وليلى التغلبية والدة الشاعر عمرو بن كلثوم.

وكان الشعراء يعتدّون بمخاطبة المرأة في أشعارهم، ويستهلون قصائدهم بالتغزل بها في مطالع هذه القصائد، ومنهم فحول الشعراء من أصحاب المعلقات. وكانت المرأة في الجاهلية تُجير وتحمي من تُجير.

لقد تراوحت عناصر المشهد الغزلي الجمالي للمرأة لدى شعراء عصر ما قبل الإسلام بين وصف القدِّ والعيون والجيد والثغر والأسنان وغير ذلك، أي تناول كثير من الصفات الجسدية للمرأة، واستعار لها الشعراء أجمل صفات الظباء والمها والرياحين.. ورفعوا جمالها إلى أعلى المراتب حيث وصفها بعض الشعراء بأنها درة زهراء وأسنانها كاللؤلؤ وثغرها كأس مدامٍ حُفّ بالدُّرر، وتتزين بعقود اللؤلؤ والزبرجد والياقوت.

وكان الغزل المدخل الطبيعي إلى التغني والتشبيب بالأوصاف الجمالية، فالغزل لغة العاطفة، صوّروا فيه أشواقهم وإحساساتهم نحو المرأة وما يلقون منها من وصال أو هجر، من وعدٍ إخلافٍ ودلٍّ، صوّروا فيها سعادتهم وشقاءهم، آمالهم وآلامهم، واستطاع الشعراء أن يرضوا نزعاتهم الفنية، بتحبير القصائد الرائعة التي تصور حبهم وتسجل هواهم.

كما كان من شغفهم بالغزل أن جعلوه أول موضوع يبتدئون به القصائد الطوال، سواء أكانوا يذكرون الغزل مباشرة، أم يذكرون ديار الحبيبة لتنقلهم إلى ذكرها والتغزل بها، وسرد ذكرياتهم وإياها.. وكانت المرأة هي موضوع الغزل، وقد تناول الشاعر جمالها، وأول ما لفت نظره جمال وجهها، ووصف الجمال الجسدي هو الأمر العام الطاغي في الغزل، فالشاعر يقف عند الصورة الخارجية للمرأة، الصورة التي تحرك فيه عواطف الحب والجمال، انظر كيف جمع عنترة بن شداد في بيت واحد جملةً من المحاسن الجمالية في المرأة:

وردفٌ له ثِقلٌ وخصرٌ مُهفهفٌ وخــدٌّ بـه وردٌ وســاقٌ خَـدَلَّـجُ

أما بعد البعثة النبوية ومجيء الإسلام، فقد انصرف الشعراء عمّا كان سائدًا في عصر ما قبل الإسلام، وظهر بينهم الغزل العفيف بعيدًا عن ألوان اللهو والمجون وذكر الصفات الجسدية، وكان أن ظهر شعراء بعينهم تناولوا وصف المحاسن الخُلقية ووصف لوعة الاشتياق وتصوير آلام البُعد وعذاب الفراق ولوعة المكابدة وهو ما عُرف بالغزل العُذري والذي امتدّ وشاع في العصر الأموي مع أن جذوره كانت ممتدةً عند عدد من الشعراء في عصر ما قبل الإسلام واشتهروا به.

وختامًا، يسعدنا أن يكون كتاب «صورة المرأة في الغزل في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام» للأستاذة خديجة عرومو من دولة جيبوتي - الدولة التي تغلب على لسان أبنائها اللغة الفرنسية، وهو في أصله أطروحة نالت بها الباحثة درجة الماجستير في اللغة العربية - ضمن إصدارات مهرجان ربيع الشعر العربي الثاني عشر الذي تقيمه مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين الثقافية في مارس 2019، آملين أن يجد فيه القراء المتعة والفائدة.

والله ولي التوفيق،،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في 21 جمادى الآخرة 1440هـ

الموافق 27 فبراير 2019م

****

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان، ووهبه نعمة الجنان، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

إن المتصفح لديوان الشعر العربي منذ الجاهلية وحتى عصرنا الحالي، يلاحظ أن المرأة قد شغلت حيزًا مقدرًا من اهتمام الشعراء، تغزلاً وتشبيبًا، إلى درجة جعلت فن النسيب من أهم موضوعات المقدمة التقليدية للقصيدة العربية. ولعل المتأمل في ديوان الشعر العربي يرى اختلافًا نوعيًّا في نظرة المجتمع العربي للمرأة في العصرين الجاهلي والإسلامي، ويعود ذلك إلى نظرة الإسلام للمرأة وتكريمه إياها، واحترامه لحقوقها، وتحقيقه خصوصيتها، خلافًا لما ساد في الجاهلية من امتهان كرامتها، وهضم حقوقها وصل إلى درجة وأدها حيةً.

من هنا بدأت فكرة الدارسة بتأمل تطور تفاصيل صورة المرأة في القصيدة الجاهلية والإسلامية، إيمانًا بأن نظرة الشعراء للمرأة لاشك تتأثر بالعادات والتقاليد والقيم والمبادئ التي سادت في كلا العصرين الجاهلي والإسلامي على التوالي.

لذا وجدت أنني ملزمة بذكر بعض الأشعار التي فحش الشعراء فيها بوصف محاسن الحبيب لتأمل تفاصيل هذه الصورة في كل عصر ورصد ملامح توافقها ومدى اختلاف جزئياتها. كما أنني عرَّفت بالشعراء الذين لهم علاقة بالبحث داخل فصول البحث.

وكان من أهم أسباب اختيار هذا الموضوع الشعور بأن المجتمع الجاهلي قد ظلم المرأة ظلمًا كبيرًا، وسلبها كل حقوقها، واهتمام الشعر الجاهلي بتفاصيل المرأة التشريحية، وإهماله لجوانبها الروحية، وتوضيح تأثير الإسلام على الشاعر العربي وأثر ذلك على تغيير نظرة الشاعر المسلم للمرأة، ومعالجة الإسلام للنظرة الجاهلية للمرأة.

ترمي هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، مثل: رصد أسباب ظاهرة اهتمام الشاعر العربي بالمرأة، ومعرفة دوافع هذا الاهتمام، والتحقق من مدى تأثير تقاليد المجتمع العربي وعاداته وقيمه على موضوعات الشعر التي تصف المرأة، ومعرفة أوجه الاختلاف بين صورة المرأة في الشعر الإسلامي عن سابقه الجاهلي، وتتبع موضوع المرأة في الشعر العربي الجاهلي والإسلامي وملامح تطوره.

كما تحاول هذه الدراسة الإجابة عن مجموعة من الأسئلة، منها: كيف كانت نظرة الشاعر الجاهلي للمرأة؟، وكيف تم تصوير المرأة في الشعر الجاهلي؟، وإلى أي مدى اختلفت النظرة إلى المرأة في الشعر الإسلامي؟، وكيف كرّم الإسلام المرأة؟ وكيف ظهر ذلك في الشعر الإسلامي؟.

وقد اطلعت على عدد من الدراسات التي تتحدث عن موضوع المرأة في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ولكن لم أجد من المراجع ولا من المصادر ما يتناول موضوع المرأة والشعر في الفترة المقترحة للبحث بمنهجية المقارنة التحليلية. ما عدا كتاب (صورة المرأة في الشعر الجاهلي) للكاتب محمد أحمد الحوفي، وكتاب (المرأة عند شعراء صدر الإسلام) للكاتب حسني عبدالجليل يوسف.

وسيستفيد البحث من المصادر القديمة بلاشك في الفصل الأول من خلال ما حوته تلك المصادر من أخبار المجتمع الجاهلي، سواءً كانت من الناحية الاجتماعية أو الدينية أو الاقتصادية، وبما تناولوه من مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي ونظرة الشاعر الجاهلي للمرأة.

أما في الفصل الثاني؛ فستكون الاستفادة من هذه المصادر في استخراج مادة الشعر وتحليله لمعرفة نوعية هذه الأشعار، ومعرفة أشهر من تغزل بالمرأة، ونظرة المجتمع الجاهلي لهذه الصورة، وهل قبل بها أم لا؟ وهل قبلت المرأة بتلك الصورة التي رسمها لها الرجل الشاعر؟.

أما الاستفادة في الفصل الثالث فستكون في إبراز مكانة المرأة في صدر الإسلام ونظرة الإسلام للشعر نفسه. وهل استمرت تلك الصورة؟.

واتبعت في هذه الدراسة المنهج التحليلي المقارن للمقارنة بين صورة المرأة في الشعر (في الجاهلية وعصر صدر الإسلام) ومعرفة أوجه التشابه والاختلاف بينهما معتمدة على النماذج والتحليل لمعرفة أسباب الاختلاف.

وتتألف هذه الدراسة من تمهيد وثلاثة فصول، يتكون كل فصل منها من عدة مباحث كما يأتي:

الفصل الأول: مكانة المرأة عند العرب في الجاهلية

- المبحث الأول: وضع المجتمع الجاهلي، الوضع الاجتماعي، الوضع الديني، الوضع الاقتصادي.
- المبحث الثاني: نظرة المجتمع الجاهلي للمرأة.
- المبحث الثالث: الشعر في الجاهلية ونظرة الشاعر الجاهلي للمرأة.

الفصل الثاني: نماذج من شعراء الجاهلية الذين تناولوا المرأة في أشعارهم.

- المبحث الأول: نوعية الأشعار التي قيلت في المرأة وأشهر من قالها.
- المبحث الثاني: الصورة السائدة للمرأة في الشعر الجاهلي، وموقف المجتمع من الشعر الجاهلي الخاص بالمرأة.
- المبحث الثالث: نظرة المرأة الجاهلية لمجتمعها ونفسها من خلال أشعار بعض الرائدات في الشعر في العصر الجاهلي.

الفصل الثالث: مكانة المرأة في صدر الإسلام

- المبحث الأول: سمو مكانة المرأة وإعطاؤها حقوقها.
- المبحث الثاني: نظرة الإسلام للشعر والشعراء وأثر ذلك على أدائهم.
- المبحث الثالث: المقارنة.

وقد ختمت هذه الدراسة بالخاتمة والنتائج والتوصيات التي توصلت إليها، ثم ذيلتها بقائمة المراجع والمصادر، وأرجو من الله أن أكون قد وفقت في دراستي هذه.

خديجة إبراهيم عرومو

****

تمهيد

الشعر هو ديوان العرب وسجل أيامهم ومحافلهم، وقد قال رسول الله ﷺ: (إن من الشعر لحكمة) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم، مع ما للشعر من عظم المزية وشرف الأبية وعز الأنفة وسلطان القدرة)[1]

ويقول ابن خلدون: «الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به»[2].

وكان الشاعر لدى العرب لسان حال القبيلة، يذود عن أعراضها، ويفاخر بأمجادها أو يباهي بكرمها ويدفع عنها شر ألسن الشعراء من القبائل الأخرى، فيهجو من ينال منها ويسجل انتصاراتها ويخلد فرسانها. وكان سوق عكاظ بمثابة منتدى أدبي يجتمع فيه الشعراء يتناشدون مفاخر قبائلهم وتثير المفاخر الشعرية نشاطًا نقديًّا يتولاه الجمهور الأدبي أو بعض الشخصيات البارزة مثل ما يروى من أن النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، فأتاه الأعشى ذات مرة فكان أول من أنشده، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصاري، فقال:

---

(1) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب/ أبوالفضل السيد محمود شكري الألوسي صفحة 82 تصحيح محمد بهجة الأثري الطبعة الثانية.

(2) مقدمة ابن خلدون – عبدالرحمن بن خلدون – تحقيق حامد أحمد طاهر الطبعة الأولى – 2004 – دار الفجر للتراث القاهرة (صفحة 731).

لنا الجفنات الغرُّ يلمعنَ في الضحى

وأسيافنا يقطرنَ من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرّقٍ

فأكرم بنا خالًا وأكرم بنا ابنما

فقال النابغة: «أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك»[1].

وأيضًا كان الشاعر يهجو من ينال من قبيلته، ومن أمثلة ذلك ما هجا به الشاعر (الحبطات) وهي بطن من (تميم) فقال فيهم ما حط من أقدارهم:

رأيتُ الحمرَ من شرِّ المطايا

كما (الحبطات) شرُّ بني تميمِ

وبعكس ذلك ما حدث لبني (أنف الناقة)، فكان إذا سئل الرجل منهم عن قبيلته قال: (من بني قريع) وهو نسب آخر لهم، مستعرين من نسبهم الحقيقي لقبح الاسم. فقال الحطيئة[2]:

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ

ومن يسوّي بأنفِ الناقةِ الذنبا

فأصبحوا يفاخرون به.

وكقول حسان بن ثابت في بني عبدالمدان وكانوا قومًا عظام الأبدان، وكانوا يفاخرون بطول قامتهم وعظم أبدانهم، فهجاهم حسان بن ثابت بقوله:

لا بأسَ بالقوم من طولٍ ومن قصرٍ

جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ

(1) تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري – د. مصطفى الصاوي الجويني، الطبعة الأولى، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية، 2003 / ص 12-13.

(2) الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، د. علي أحمد الخطيب، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، صفحة 69.

وربما فضلوا بنبوغ شاعر فيهم عن وجود فارس؛ ولذا كانت العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها به، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزامير كما يصنعن في الأعراس، وتباشر الرجال والولدان لاعتقادهم أنه حماية لأعراضهم، ودفاع عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم.

وكان العرب لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو فرس تنتج، أو شاعر ينبغ فيهم[1] والشعر دائمًا ينبئ بكل ما هو صحي وسليم في الحياة بجميع جوانبها.

إذًا؛ فالشعر يعتبر مرآة لحياة الشعوب وعليها ينعكس ما يختلج في نفوسها وما يعترك في محيطها من مختلف الجوانب التي تتعلق بحياة الناس من سياسة واقتصاد واجتماع وعقيدة؛ ولذا نجد أن كثيرًا من العادات والتقاليد الفضيلة والرذيلة، والترف والشقاء، والغنى والفقر، والثورة والاستسلام[2] إلى غير ذلك من أمور الجاهلية قد أخذت من الشعر. ومن هنا فإن الشعر الجاهلي مصدر رئيس، يصور واقعًا معيشيًّا للمجتمع الجاهلي، ولا يعتقد أن الشعر الجاهلي تعبير فردي بل كان الشاعر لسان قومه، ومرآتهم التي تعكس حياتهم ورغباتهم وآلامهم وآمالهم، ومعاناة الشاعر نابعة من معاناة المجتمع.

فالشعر الجاهلي وثيقة المجتمع الجاهلي قبل الإسلام. وكل من زهير وامرئ القيس والنابغة وغيرهم من شعراء الجاهليين حاولوا أن يجسدوا الواقع برموز فنية تعكس وجه الحياة وذواتهم من المشاعر والأحاسيس النفسية والموضوعية في تجسيد الواقع.

إذًا، فالشعر يعدُّ هو المستند الأصدق في وصف الحياة بجميع جوانبها. ومن خلال ما وصلنا من أخبار الجاهلية نحاول أن نتلمس في غياهبه وما يعنينا

(1) الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين – ص 78.

(2) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – تأليف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق د. صلاح الدين الهواري – أ. هدى عودة.

في المقام الأول هو إبراز مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي. وكان الشعر الجاهلي هو الهدف الذي حددناه لرؤية صورة المرأة عند الجاهليين من خلاله وما مكانة موقعها؟، وهل كانت مهمشة ليس لها دور يذكر في حياة الجاهلية أم أسرتها في تلك الفترة؟.

لذا، كان الشعر الجاهلي هو الوسيلة التي حددناها لتوضيح تلك المكانة التي احتلتها المرأة. وتبين القراءة الأولية للشعر الجاهلي أن المرأة احتلت مكانة لا بأس بها في شعر الرجل الجاهلي؛ إذ نرى محورية صورة المرأة في نسيب الشعراء في مقدمات القصيدة التقليدية.

وهذا البحث محاولة لاستخلاص ملامح المرأة عند شعراء الجاهلية وشعراء عصر صدر الإسلام؛ لذا كان من المهم عرض تلك الصور التي رسمها الشعراء في حالاتهم النفسية المختلفة، وإلى أي مدى تغيرت تلك الصورة بعد مجيء الإسلام؟.

والبحث في المنابع التي استقى منها الشعراء تلك الصور للمرأة، وهل فرض المجتمع رؤيته أم أن الشاعر رسم الصورة التي رغبها؟ وإلقاء الضوء على مكانة المرأة وعلاقتها الاجتماعية في الحقبة المحددة ومكانتها في مجتمعها، وهل نالت من الاحتفاء الاجتماعي ما ناله الرجل؟ أم أنها كانت تقف خلفه؟.

****

الفصل الأول
مكانة المرأة عند العرب
في الجاهلية

المبحث الأول: وضع المجتمع الجاهلي من الناحية الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية

أول ما تطرق كلمة الجاهلية الأذن، يعتقد البعض أن العصر الجاهلي يشمل كل ما كان قبل الإسلام من حقب وأزمنة، ولكن الذين يبحثون في الأدب الجاهلي لا يتوسعون هذا الاتساع، بل يقفون بالعصر الجاهلي عند مائة وخمسين عامًا قبل الإسلام، وما قبل ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى.

وهذا يخرج عن الذي ورثنا عنه الشعر الجاهلي. وقد لاحظ الجاحظ ذلك بوضوح إذ قال: «أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة.. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي»[1].

كان المجتمع الجاهلي رعويًّا ديدنه التنقل من مكان إلى آخر بحثًا عن الماء والكلأ، لكن مما لاشك فيه أنه قد تأثر بتلك الحضارات المجاورة؛ لهذا لم يكن العرب في العصر الجاهلي في عزلة عن العالم، بعيدين عن الشعوب وصراعاتهم وإنما اتصلوا بالأمم المجاورة، وعرفوا العالم القديم وعرفهم، بل إن بلاد العرب – على جدبها، ووعورة المسالك إليها – كانت مهجرًا لكثير من الشعوب، فقد نزح إليها الكثير من أهل الشام، ومصر والعراق فراراً من الظلم أو الاضطهاد فكان مع

(1) الحيوان، الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب – تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثانية – بيروت، دار الجيل، 1412، صفحة 74.

العرب خليط من هؤلاء النازحين، وغيرهم من الأرقاء والموالي أو الحلفاء الذين نزحوا بعاداتهم وأديانهم فأثروا فيهم كما تأثروا بهم.

إن الصحراء القاحلة التي فرضت على العرب الترحل، فرضت عليهم أيضًا العيش في مجتمع قبلي بوجهيه الاجتماعي والسياسي، وطبعت أدبهم بسمات هذا المجتمع. وكان هذا النظام القبلي هو الإطار الاجتماعي الذي يوجه حياة الأفراد والجماعات في العصر الجاهلي، يستوي في ذلك من يعيشون في المدن والقرى ممن تعدهم حضرًا، أو من أولئك الذين ينطلقون في الصحراء من أهل البادية، وكان الولاء داخل هذا النظام للقبيلة؛ إذ تنتفي الرؤية الذاتية والنزعات الفردية أمام رؤية القبيلة وتوجهها، وما يشكل مصلحة جماعية لها. ونستحضر هنا صورة رسمها دريد بن الصمة فأحسن في تصويرها حيث قال:

وهـل أنـا إلا مـن (غـزيـةٍ) إنْ غـوتْ
غـويـتُ وإن تـرشـد (غـزيـةُ) أرشـدُ

«والمجتمع القبلي يتشكل في الأعم الأغلب من طبقات ثلاث: طبقة الأحرار التي تتكون من السادة الأشراف، وعملهم القتال لحماية الحمى. وطبقة العبيد الذين جمعهم الأسر والاسترقاق إما بالشراء أو الخطف، وأغلب هؤلاء العبيد كانوا مجلوبين من البلاد المجاورة وخاصة الحبشة، وكان عملهم الرعي والسقي والاحتلاب والاحتطاب، وخدمة الأحرار.

وأخيرًا طبقة الموالي التي كانت تلوذ بالقبيلة القوية مستجيرة بها، ويدخل فيهم الموالي الذين خُلعوا من قبائلهم بسبب جرائرهم وجناياتهم، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد في أسواقهم ومجامعهم، ويستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره، ويكون بذلك له حق التوطن في القبيلة الجديدة، ومنزلته بين بين، فهو دون الأحرار وفوق العبيد، شرفًا وعملًا.

ويجب عليه الوفاء بجميع حقوقها مثله في ذلك مثل أبنائها»[1]. على رأس هذه الطبقات الثلاث رئيس القبيلة القائم بأمورها المتولي سياستها، ولابد أن تتوفر فيه الشجاعة والكرم والحصافة والفصاحة، فإذا اجتمعت له هذه الخصال دانت له القبيلة بالطاعة في السلم والحرب.

وهكذا كان أفراد القبيلة متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه. «كان العرب مشهورين بالخلال الكريمة، ولعل خير كلمة تجمعها هي المروءة، مثل الحلم، والكرم، والوفاء، وحماية الجار، وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغض عن المساوئ، ولم تكن عندهم خصلة تفوق خصلة الكرم. ولعل حياة الصحراء القاحلة وما فيها من جدب بعثت فيهم هذه الخصلة الحميدة ألا وهي الكرم، وكان الغني يفضل الفقير، وكثيرًا ما كان يذبح إبله في سنين من القحط، ويطعمها عشيرته كما يذبحها قرير العين لضيوفه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه، ومن سنن العرب أنهم كانوا يوقدون النار ليلًا على الكثبان والجبال»[2].

وذلك نظرًا لأن معظم حياة العربي كانت تقوم على الحل والارتحال، وطول السفر ومشقته فقد كان معرضًا دومًا إلى التيه في الصحراء ونفاد الزاد فيعدُّ استقباله للتائه نوعًا من إنقاذ حياته فجميعهم معرضون إلى ذلك، لذا يشعل العربي النار على القمم العالية إشارة منه لدعوة دائمة لأبناء السبيل.

وهكذا كان العربي يفرح بقدوم الضيف ويبالغ في حسن إكرامه والقيام بأمره حتى أن الحرَّ يلذُّ له أن يكون عبدًا في خدمة ضيفه، على نحو ما ذهب إليه المقنع الكندي إذ يقول[3]:

---

(1)تاريخ الأدب العربي – العصر الجاهلي – د. شوقي ضيف، الطبعة السابعة والعشرون 2007، دار المعارف، القاهرة، ص 67.

(2)الشعر الجاهلي السياق والملامح ، د. صلاح رزق- دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص 36.

(3)مظاهر القوة في الشعر الجاهلي – دكتور حنا نصر الحتي-دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 2007، ص 180.

وإنـــي لـعـبـد الـضـيـف مـا دام ثـاويًـا

ومـا فـيَّ، إلا تـلـكَ، مـن شـيـمـةِ الـعـبـدِ

وكقول قيس بن عاصم:

وإنـــي لـعـبـد الـضـيـف مـن غـيـرِ ذِلَّـــةٍ

ومـا بـــيَ إلا تـلـكَ مـن شـيـمِ الـعـبـدِ

ويقول عروة بن الورد:

فـراشـي فـراشُ الـضـيـفِ والـبـيـتُ بـيـتـهُ

ولـــم يُـلـهـنـي عـنـــهُ غـــزالٌ مـقـنَّـعُ

أحـــدثـــه إنَّ الحـــديـــثَ مِـــنَ الـقِـرى

وتـعـلـمُ نـفـسـي أنـــهُ ســوف يـهـجـعُ

ومن الخلال الجميلة كذلك أن العرب كانوا يقدرون صفة الوفاء، فإذا وعد أحدهم وعدًا أوفى به، وأوفت معه قبيلته، كما أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهدًا أن ينصروه. كما كانوا لا ينكرون شيئًا مثل إنكارهم للهوان والضيم، وهما السوءة الكبرى؛ إذ يعنيان الذل، وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها، وكان أقل شعور بهما يثيرهم، كما حدث مع عمرو بن كلثوم حينما ثار على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه في بلاطه فاستل سيفه وقتله. وكيف يقبلون بالضيم وهم أهل حرب وجلاد، ويقول المتلمس في ذلك[1]:

إنَّ الـــهـــوان حـــمـــارُ الأهـــل يـعـرفـهُ

والحـــرُّ يـنـكـره والـرسـلـةُ الأُجُـــدُ[2]

ولا يـقـيـم عـلـى خـسـفٍ يـــرادُ بـهِ

إلا الأذلان: عـيْـرُ الأهـــل والْـوَتـدُ

(1) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، صفحة 69.
(2) الرسلة: الناقة الذلول. الأُجُدُ: الموثقة الخلق.

هــذا عــلــى الخَــســفِ مــعــقــول بـرمـتـه

وذا يُــشــجُّ فــلا يــبــكــي لــــهُ أَحَـــدُ

«كما كانت للعرب خلال جميلة، كانت هناك آفات تشيع في هذا المجتمع الجاهلي ولعل أهمها: الخمر، واستباحة النساء والقمار أو الميسر، ووأد البنات. وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن وما وضعه لها الإسلام من عقاب صارم حتى يكف العرب عنها. كما نجد أن العصبية هي النظام السائد في هذا المجتمع ذلك لما للقبيلة من أهمية، فهي عماد الحياة في البادية، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله، حيث لا شرطة في البوادي تُعاقب المعتدين، ولا سجون يسجن فيها الخارجون عن نظام المجتمع، كل ما هنالك عصبية تأخذ الحق، وأعراف يجب أن تطاع»[1]. وقد كانت العصبية القبلية هي الرابطة الأولى في المجتمع الجاهلي فالتماسك والتآلف من أهم ما يسعى إليه الفرد والجماعة لدفع الأذى عن النفس أو رد العدوان.

كما تباهى العربي بأنه يعف عن المحارم والأعراض ولا ينال جيرانه منه سوء وامتدح هذا الخلق في سواه، يقول برذع بن عدي الأوسي[2]:

لــعــمــر أبــيــهــا لا تــقــول حــلــيــلــتــي

ألا إنـــه قــد خــانــنــي الــيــوم بـــرذعُ

وأحــفــظُ جـــاري أن أخــاتــلَ عـرسـهُ

ومـــــولايَ بـــالـــنـــكـــراءِ لا أتـطـلَّـعُ

وإذا كان هذا شأن عفة الرجال، فإن عفة النساء أعلى وأصون «وكان ما يميز حياة العرب في الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء حتى كأنه

(1) تاريخ العرب قبل الإسلام –جواد علي، الطبعة الثانية، بغداد، 2004 – دار الشؤون الثقافية العامة، صفحة 313.

(2) علاقة الأدب بالدين علاقة متينة – مقالة بقلم محمد عبدالشافي – القاهرة – موقع على النت – (موقع الأديبة خولة القزويني).

أصبح سنَّة من سننهم فكانوا دائمي القتال لا ينتهون من قتال إلا إلى قتال آخر، وكان القانون الوحيد الذي يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر، فهو شريعتهم المقدسة، وهي شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية، فكانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم، ولم يكن لأي فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه في نقض هذه الشريعة، ولا في الوقوف ضدها أو الخروج عليها، وهكذا يتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة المعادية، وتتوارثان الثارات حتى يتدخل من يُصلح بينهما ويتحمل الديات والمغارم، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر حيث تكون الحرب قد أتت على الحرث والنسل، أما قبل ذلك فكانوا يعدونها سُبة وعارًا»[1].

أما الوضع الديني فقد ذكرنا في السابق أن الجاليات الكبيرة كانت تفد إلى الجزيرة العربية تقيم فيها وتطيل المقام، وتتخذ منها موطنًا، وكانت هذه الجاليات مختلفة الأديان والأجناس والأهداف. فمنهم النيراني؛ الذين كانوا يعبدون النار ويقدسونها، واليهودي، والمجوسي والوثني، ومنهم الفارسي والرومي والمصري والهندي والحبشي، وانطلاقًا من هذا التنوع لم يكن للعرب معتقد ديني واحد، بل دانوا بعقائد مختلفة وكانت الوثنية أوسع أديانهم انتشارًا.

وأصبحت مكة مستقرها ومجمع الأصنام والأوثان التي كانوا يعبدونها ويقربون لها القرابين، وكانت هذه الأصنام لها مسمى يعرف بها كل صنم على حدة، فمنها يغوث، والعزى، ومناة، وكان المكيون أشد احتفاء بها من سواهم؛ إذ اتخذوا لأنفسهم وثنيتين، وثنية رسمية وهذه مقرها الكعبة؛ إذ ملؤوها من الداخل والخارج بأشهر آلهتهم وقربوا القرابين لها وكان لها كاهن يقوم بتقبل القرابين من الأهالي العرب الذين كانوا يفدون إلى الكعبة بغرض الطواف بها.

(1) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، ص 62.

ووثنية خاصة وهذه عبارة عن أصنام يضعونها في الدور يحوطونها بالإكبار «على أنّ الجاهليين لم يكونوا متعصبين للأوثان ولم يعتقدوا أنها الخالقة المدبرة للكون ولأمور الناس، وإنماهي طبقة من الوسطاء تقرب إلى الله، وربما كانت هذه الوثنية بقية دين قديم يدعو إلى التوحيد ثم آل التوحيد إلى شرك لافتراق القبائل واستقلال كل قبيلة بوثن أو صنم[1]».

«إن المعتقدات الدينية الموحي بها وغير الموحي كان لها وجود على نحو ما في شبه الجزيرة العربية قبيل الإسـلام. كل ما في الأمـر أن معتنقي هذه الملة يزيدون أو ينقصون عن معتنقي سواها، وللوثنية الغلبة في كل الأحوال[2] وإلى جانب الوثنية والوثنيين ظهرت جماعة قليلة عاقلة حكيمة كرهت الأصنام وآمنت بإله واحد قادر إيمانًا قلبيًّا، وأطلق على هذه الجماعة الحنفاء، والأرجح أنها البقية الباقية ممن كانوا على دين إبراهيم. أما من الناحية الاقتصادية فالمجتمع الجاهلي تفاوت تفاوتًا واضحًا على مستوى الفرد والجماعة في مستوى المعيشة، فهناك الأغنياء المرفهون الذين يتمتعون بكماليات الحياة، والفقراء الذين لا يجدون ضرورات الحياة. فأهل المدن كانوا يعملون بالتجارة وزراعة الأراضي الخصبة، مثل أهل اليمن الذين ابتنوا القصور والبيوت الفاخرة واجتلبوا صنوف الأكل والملابس من بلدان مختلفة، وهناك الفقراء الذين يحمدون الله إذا وجدوا ما يسد جوعهم. وكذلك شأن أهل البادية فكان منهم الغني الذي يمتلك كل أنواع القطيع ويمد سلطته على كثير من المراعي الخصبة، ومنهم الفقراء الذين يعانون الأمرّين من أجل الكفاف[3].

---

(1) تاريخ الأدب العربي: الأدب الجاهلي، د.غازي طليمات وأ. عرفان الأشقر، الطبعة الثانية، 2007، دمشق دار الفكر، ص 44.

(2) المرجع السابق، ص 44.

(3) الشعر الجاهلي السياق والملامح ، د. صلاح رزق، ص 43.

ولم يعرف العربي الزراعة المنظمة إلا في مناطق محددة، لأن الزراعة تعني الارتباط بالأرض وهذا ما لا يحبذه العربي. وقد عرف الزراعة من العرب أهل الجنوب والشرق والواحات مثل يثرب وخيبر والطائف ووادي القرى. كان أهالي مكة يعيشون من التجارة وكان بها أكبر معابد العرب حينئذ، فكانوا يحجون إلى أصنامهم وتقيم لهم قريش الأعياد، وكثرت فيها الأسواق وعكاظ كان أكبرها ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أيضًا مجالس للأدب يتبارى فيها الشعراء فيلقي كل واحد منهم ما تجود به قريحته. وكان التجار يحملون العروض والسلع بين حوض المحيط الهندي والبحر المتوسط.

والقوافل تجوب الصحراء شمالًا وجنوبًا في طرق معلومة وكان يصحبهم في هذه القوافل أدلاء يحمونهم من مجاهل الصحراء.

****

المبحث الثاني
نظرة المجتمع الجاهلي للمرأة

قبل أن نتحدث عن المرأة لدى المجتمع الجاهلي سنلقي الضوء على وضع المرأة في المجتمعات الأخرى التي خالطت العرب من اليهود، والمسيحيين، والفرس والرومان.

كانت المرأة عند اليهود تسبى وتباع وتورث، وللآباء الحق في أن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق، وأن يقتلوهن، والتوراة[1] لم ترفع من مكانة المرأة ففي سفر الجامعة أن المرأة أمرُّ من الموت؛ وأن الصالح التقي هو الذي ينجو منها.

وكانت المرأة عند اليهود مملوكة لأبيها قبل زواجها، تُشترى منه عند نكاحها وتنتقل الملكية إلى الزوج، والمهر كان يدفع لأبيها أو لأخيها على أنه ثمن شراء، وإذا مات الزوج ورثها وارثه؛ لأنها جزء من التركة، وله أن يبيعها.

ومن البدهي أن المرأة التي تورث كالمتاع لا حق لها في الميراث، وقد خَوَّلت القوانين اليهودية القديمة الرجل أن يطلق زوجته إذا فعلت ما لا يَرْضَى. أما عند المسيحيين فقد أعزَّت المسيحية المرأة بعض الإعزاز كما حمتها بعض الحماية فلا غرو أن تهرع النساء إلى المسيحية أفواجًا؛ لأنهن أحببن من تعاليمها «لا يهودي ولا إغريقي، لا عبد ولا حر، لا ذكر ولا أنثى، كلكم واحد في يسوع المسيح». وأعظم

(1) يظهر من ذلك أن التوراة هنا هي التوراة المحرفة.

ما أنعمت به المسيحية على المرأة أن حرَّمت تعدد الزوجات، وحدّت من الطلاق – وسئل المسيح عليه السلام عن الطلاق فقال لهم «من طلق امرأته وتزوج أخرى يزني، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت آخر تزني»[1] وقد قامت المسيحية في أول عهدها على جهد النساء إلى حد كبير فكن مبشرات، وكن يهبن لها المال كقسِّيسَات.

ولكن هذا الإعزاز كان بمقدار ضئيل لم يرفع من شأنها ولم يطلقها من سطوة سلطان الرجل ولم يحمها من عسفه وازدرائه، ولم يضف إليها حقًّا من حقوقها الكثيرة المسلوبة.

كذلك المرأة الفارسية لم يكن حظها بأحسن من المرأة المسيحية بل كانت أقل حظًّا، فلم تسم المرأة الفارسية إلى مكانة عالية، بل كانت في نظر الرجل مستمتعًا لا غير، وكانوا يبيحون للرجل أن يتزوج ابنته، وأخته الشقيقة، أو غير الشقيقة ويبيحون الأمهات، والجمع بين الأختين، ويتزوج الأب ابنته، والابن أمه، والأخ أخته، وكانت النساء الراقيات يحرم عليهن الاختلاط بالرجال وكان الحجاب مقسورًا عليهن فقط دون النساء الأخريات الأقل منهن رتبة. وكان الرجل الفارسي يتشوق إلى ولادة الذكور، ويغالون في تقديرهم، ويعدونهم ثروة اقتصادية لآبائهم، وعدّة حربية لملوكهم، أما ولادة البنات فكانت تجلب اللوعة والحسرة[2].

أما المرأة عند الرومان فكانت شرًّا يجتنب وإن كانت مخلوقة للمتعة، ودائمًا خاضعة للرجل أبًا أو زوجًا. أما المرأة الإغريقية فلم تكن أسعد حالًا ولا أرفع مكانة، لأن الإغريق عامة أعداء النساء، وليست المرأة عندهم سوى بطن يدفع النسل.

أما عن وضع المرأة عند العرب في العصر الجاهلي فالمرأة لم تكن عنصرًا مهملًا ولا منبوذة كما يصورها البعض، بل كانت تتمتع بقدر من الأهمية، متقدمة

(1) المرأة في العصر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، الطبعة الثالثة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ص 259.
(2) المرجع السابق، ص 57.

بذلك على بنات جنسها من القوميات الأخرى. أما عن وأد البنات الذي عمم البعض القول بأن رمز إلى تدني مكانة المرأة عند الجاهليين، فإن هذه العادة لم تكن عادة جميع القبائل، وإنما كانت في بعض القبائل، أسد، وبكر، وعند بعض التميميين والقرشيين، فكانت المرأة ضحية تقاليدهم الظالمة والمهينة، فقد كانت عرضة للسبي في الغزوات وعرضة للوأد في السلم، فإذا وُلِد للرجل بنت خشي على نفسه العار أو الفقر، فإما أن يبقيها لرعي إبله وغنمه، وإما أن يئدها حية في حفرة، ثم يهيل عليها التراب[1].

«والوأد كما ذكرنا لم يكن عادة جميع قبائل العرب، ولهم في منشأ الوأد رواية ملخصها أن المشمرج اليشكري سبى من نساء بني سعد وفيهن بنت أخت قيس ابن عاصم، فرحل قيس وسأل القوم إياها فخيروها، فاختارت عمرو بن المشمرج اليشكري، فانصرف قيس فوأد كل بنت تولد، وجعل ذلك سنة كل بنت تولد له، واقتدى به العرب»[2] ومنهم من كان يئد البنت خوفًا من الفقر، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ولا تَقْتُلوا أولادَكُمْ خِشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرزقُهُمْ وإيَّاكُمْ إِنَّ قتلَهُمْ كَانَ خَطَأً كَبَيْرًا﴾[3] كما أن الوأد عند هذه القبائل كان بسبب المجاعات الكثيرة التي كانت كثيرة الحدوث في بلاد العرب القليلة الأمطار، والتغالي الشاذ في المحافظة على الشرف فقد كان الآباء يخشون أن يضطروا لإطعام أفواه لا ترتجى من أصحابها فائدة، أو أن يصيبهم العار إذا وقعت بناتهم أسيرات، وقد أبطل الإسلام هذه العادة، وسفه الذين يحزنون إذا رزقوا بنتًا، كما بين للوائدين مخشاة الفقر أنه

(1) حضارة العرب في صدر الإسلام – د. حسيني الحاج حسن، الطبعة الثانية، الناشر مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2006م، ص 290.

(2) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد محمد حوفي، دار نهضة مصر – القاهرة، الطبعة الخامسة، ص 225.

(3) سورة الإسراء، الآية 31.

هو الرزاق قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله البَنَاتَ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيْمٌ، يَتَوَارى مِنَ القَومِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هوْنٍ أَمْ يَدُسُّهُ في التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] وكان الوأد الناشئ عن الخوف من الفقر لم يكن فيه تمييز بين ذكور وإناث، ولذلك عبر القرآن بكلمة (أولاد). ووأد البنات كان أمرًا دينيًّا؛ لأنهم اعتقدوا أن البنت رجس من خلق الشيطان أو من خلق إله غير آلهتهم فيجب التخلص منها.

ومنهم من كان ينذر أن يذبح واحدًا من بنيه إذا بلغوا عشرة كما فعل عبدالمطلب في قصته المشهورة مع ابنه عبدالله والد الرسول ﷺ. ومما لاشك فيه أن القبائل التي وأدت البنات على وجه الخصوص، كانت تكره البنات، سواء أكان ذلك لأنهن لا يساهمن في الرزق ولا في الدفاع، أم لعقيدة دينية.

وقد هجر أبوحمزة الضبي امرأته لأنها ولدت بنتًا فمرَّ بخبائها يومًا وإذا هي ترقصها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظلُّ في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلدَ البنينا
تاللهِ ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذُ ما أُعطينا
ونحنُ كالأرض لزارعينا
ننبتُ ما قد زرعوه فينا

فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبَّل رأس امرأته وبنتها[2]. ومهما يكن من أمر فبعض الرجال في الجاهلية كانوا يهتمون بالمرأة ويعتنون بتنشئة بناتهم كمعن بن

(1) سورة النحل، الآية: 57 – 59.
(2) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص 227.

أوس مثلًا وقد ملكت بعض النساء أموالًا طائلة مثل أم حاتم الطائي وإحدى أخوات زيد الخيل. والوأد لم يكن عامًّا، ولم يستمر زمنًا طويلًا، بل إنه ابتدأ قبيل الإسلام وانتهى ببزوغه. ونستند في ذلك على ما صح من الشعر الجاهلي الذي خلا من كلمة وأد، ثم إن القرآن الكريم استعمل كلمة وأد مرة واحدة في سورة التكوير[1] لكن الكثرة الكثيرة لم تئد بدليل بقاء النساء يلدن وبدليل حب الشعراء والرجال للمرأة وفخارهم بها، وإن كانت مهانة في الكثير من الأحيان فهي لا ترث بل تورث عند معظم القبائل، وللرجل الحق في الزواج بمن شاء منهن، وإن كان في بعض القبائل للمرأة الحق في تغيير الزوج، حيث كان يحق للمرأة أن تجمع بين عدد من الأزواج في وقت واحد، وكانت إذا أرادت تطليق زوجها تحول فناء خبائها من جهة إلى جهة أخرى وهكذا يعلم الرجل أن امرأته طلقته فيتركها.

وكان الوضع الاجتماعي للمرأة متفاوتًا، فكان هناك نوعان من النساء: (الإماء والحرائر)، كما كان هناك: (الجواري والقيان)، أما بنات الأشراف فكانت لهن مكانة خاصة، فكن يخترن أزواجهن ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن، وللرجل في عصر الجاهلية حرية واسعة في علاقته بالمرأة، فكان امتلاك المرأة أمرًا يسيرًا، ومن عادات العرب تحريم المرأة على نفسه حتى يأخذ بالثأر فيحرم على نفسه أحب شيء إلى نفسه ألا وهي المرأة، وبطولة العربي في ساحات المعارك، تكملها بطولته في أعين النساء وربما قاتل لأجل الدفاع عن حبيبته أو حمايتها والذود عنها. كما كانت هناك أنواع مختلفة من العلاقات والزيجات التي حرمها الإسلام[2] مثل أن تعضل المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها كما حرم زواج المقت، وحرم

(1) حضارة العرب في عصر الجاهلية، د. حسين الحاج حسن، الطبعة الرابعة، 2006، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص 127.

(2) الحب عند العرب – دكتور عادل كامل الألوسي – الدار العربية للموسوعات الطبعة الأولى 1999 صفحة 48.

أيضًا الشغار[1]، كما أنكر الإسلام الجمع بين الأختين، وغيرها من العادات التي لازمت طبيعة الحياة في المجتمع البدوي.

ومن كل هذا يلوح لنا أن المرأة لم تكن عنصرًا مهملًا؛ بدليل وجود كاهنات لسن قليلات، كما أن المرأة شاركت في صناعة الأحداث المهمة مثل الحروب التي قامت بسببها كما أن الكثير من الملوك والأشراف انتسبوا إلى أمهاتهم مثل عمرو بن هند، والمنذر بن ماء السماء، وعمرو بن أمامة وغيرهم، بل إن قبائل كثيرة انتسبت إلى أسماء نساء مثل مزينة – وجديلة وبجيلة. كما برز من النساء ملكات عربيات وشخصيات نسائية لا يستهان بهن، من أمثال بلقيس والزباء وغيرهما، إضافة إلى ذلك؛ تمتعت المرأة العربية عند معظم القبائل بالأهلية[2].

وكان غاية الشرف عند المجتمع الجاهلي ممثلة في رجالها، قادرة على حماية نسائها وعلى إذلال نساء الأعداء، ولا يكون الإذلال قاهرًا إلا بالسبي، ويفخر أحد الجاهليين بذلك وهو قيس بن الخطيم يفخر بأنهم في يوم بُغاثَ حققوا غاية النصر (حماية نسائهم وسبي نساء أعدائهم) حينما سبوا نساء الخزرج؛ يقول[3]:

وإنَّـــا مَـنَـعْـنَـا مـن بـغـاث نـسـاءنـا

ومـا مـنـعـت مِ المُـخْـزِيَـاتِ نِـسَـاءَهَـا

وبالأمر ذاته يفخر الأفوه الأودي:

نـقـاتـلُ أقـوامًـا فَـنَـسْـبـي نِـسـاءَهُـمْ

ولـمْ يَـرَ ذو عـزٍّ لِـنِـسـوَتِـنَـا حِـجْـلا

(1) زواج المقت: زواج الابن امرأة أبيه بعد وفاة أبيه إن لم تكن أمه. الشغار: أن يزوج الرجل ابنته أو من تحت ولايته لآخر على ومن تحت ولايته وليس بينهما صداق.

(2) الرجل في شعر المرأة، د. عمر بن عبدالعزيز السيف، دار الانتشار العربي، بيروت – الطبعة الأولى، 2008، ص 22.

(3) كتاب الأغاني، أبوالفرج الأصفهاني علي بن الحسين، الجزء الثاني عشر، بيروت، دار إحياء التراث العربي، صفحة 169.

فالشاعر الأوسي قيس بن الخطيم يؤكد تفوق الأوس عندما استطاعوا منع نسائهم، وفي الوقت نفسه وصلوا لنساء أعدائهم. أما الأفوه الأودي؛ فلم يحصر هذا التفوق في معركة، بل جعله سمة لقبيلته في كل معاركها ليصل من خلال هذه الجزئية (حماية نسائهم وسبي نساء أعدائهم) إلى تقرير حقيقة تفوقهم وشرفهم وقوتهم.

لقد رسخ المجتمع في أذهان أبنائه أن المرأة هي محور الشرف، وأن النيل منها هو غاية النصر، فالعربي يعز نساءه بحمايتهن، فهن شرفه، وعرضه وإذا ما لوث أحد شرفه فإنه سيكون في مرتبة دنيا أمام نفسه، وسيكون في المرتبة الأقل في قبيلته، وكذلك القبيلة التي ينتهك عرضها[1].

فغاية ما كان يطمع أن يفعله العربي بعدوه أن يهينه، ويذله، ولا تكون الإهانة قاسية وشديدة إلا بالسبي؛ لأن السبي بمثابة الاستعباد، وقول عروة بن الورد في ذلك[2]:

كَمَأْخَذِنَا حسناء كُرْهًا، وَدَمْعُهَا

غَدَاةَ اللَّوَى، مغصوبةً يتصبَّبُ[3]

لذلك كان العرب عند النصر في المعركة لا يبحثون عن المرأة الجميلة ليسبوها بل يبحثون عن الحرة، مما جعل الحرائر يلجأن إلى السفور كي يعتقد الغزاة بأنهن إماء، وربما لجأ العربي إلى الوأد ليقطع الطريق على أعدائه الذين يحاولون إذلاله بسبي نسائه.

هذه الحياة القاسية التي كان يعيشها العربي جعلت المرأة عنصر فخر للفرد والقبيلة عندما تحمى، وعنصر ذم وعار عندما تسبى، فنشأت علاقة خاصة بين المرأة والعربي، وهي علاقة قهر وخوف من القهر. فللمجتمع الجاهلي منظومة قيم

(1) الرجل في شعر المرأة، ص 48.
(2) الديوان، عروة بن الورد، تحقيق أسماء أبوبكر محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، 1412 هـ، ص 47.
(3) اللوى: مكان التواء الرمل واستدارته.

تسقط كلها عندما يُلوَّث العرض؛ حيث كانت المرأة مركز شرف عندهم. والاغتصاب في السبي إذلال تكون المرأة وأهلها ضحيته، مما جعلهم ينظرون إليها على أنها مقتل يمكن أن يطعنوا منه في أي وقت. لهذا كان الرجال يستبسلون في القتال ويناضلون حتى الرمق الأخير حتى لا ينكسروا فتسبى نساؤهم.

فهل كانت المرأة على ضوء كل هذا عبئًا على الرجل؟ نعم، كانت المرأة عبئًا يفخر بتحمله من كان يستطيع حمايتها، مع ذلك لم تكن عبئًا اجتماعيًّا يجعل أباها وأخاها أو زوجها يخاف أن تنتهك فحسب؛ بل كانت أيضًا عبئًا عسكريًّا في الحرب عندما لا تستطيع القبيلة الكرّ والفر بسهولة بسبب وجودها معهم، وإن تركوها وراءهم فهي عرضة للغزو من الخلف، ومن ثم السبي. كما أنها عبء اقتصادي؛ فهي لا تستطيع اجتلاب الرزق، بل تظل مرتبطة بأحد محارمها، ولا يجلب الرزق منهن إلا قلّة.

كما كان هناك نساء ضعاف أيضًا كانت هناك نساء شديدات ذوات خطر في الجاهلية. يحدثنا التاريخ عن نساء اشتهرن بالشجاعة وكن يقمن بحماية مضاربهن عند انشغال الرجال في ساحة المعركة، حتى أن منهن من كن يشاركن في الحرب مشاركة فعلية فرقاش قادت قبيلة طيء في غزواتها.

والحق أن المرأة كانت تشكل حافزًا قويًّا من حوافز الإبداع عند العرب، يذكرونها في الحروب ويستشهد بها الفرسان، وتفتتح بها القصائد وترتسم صورتها في أحاديثهم.

علاقة المرأة الجاهلية بالرجل

المرأة تقوم مقام الأم والبنت والأخت والزوجة والحبيبة والشاعرة والمحاربة والمغنية والأمة والسبية، وقد جمع لنا شعر الرجل نماذج وصورًا كثيرة لهذه الألوان، وكانت المرأة في الميادين باعثًا قويًّا لإلهاب مشاعر الفرسان وإثارة عواطفهم.

وصورة المرأة في الشعر الجاهلي سامية في غالب الأحيان، فالشاعر يناجيها في السر والعلانية، ويستشيرها في كثير من أموره، ويحتكم إليها، ويكرّس قدرًا كبيرًا من أشعاره لها، ويتعرّض لوصفها والحديث عن مختلف الأدوار التي تؤديها المرأة وإن تفاوت الشعراء في قدر العناية بها، لهذا احتلّت المرأة في الأدب العربي صفحات كثيرة، لأنّها كانت مدار حياة الرجل ومكان شرفه، وحمى وطنه.

ويختلف الرجال بنظرتهم للمرأة في شكل عام كما يختلفون في قربهم وبعدهم عن المرأة، ويمكن حصر علاقة المرأة بالرجل بأربعة أنواع من الرجال هم محارمها الأدنون، وأبناء قبيلتها، والرجال الأباعد، والأعداء.

1 - محارمها الأدنون

أي الأب والأخ والزوج والابن، وهؤلاء كانوا فخرًا للمرأة وعزًّا لها لاسيما في البيوتات الشريفة، حيث كانت تحظى باحترام وتقدير، ولا تزوج غالبًا، إلا بعد أن تستشار، مثل ما حدث مع هند بنت عتبة حيث طلبت من أبيها ألا يزوجها إلا بعد مشورتها بعد أن طلقت من الفاكه المخزومي[1] كما كانت تجير من تريد، كما حدث مع فكيهة – وهي من بني عوار– حيث أجارت السليك بن السلكة حينما دخل خباءها، فمنعته، وجعلته تحت درعها، وقامت دونه، واخترطت السيف، فكاثروها، فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بإخوتها فجاؤوا ودافعوا عنه حتى نجا من القتل[2] «وتستمد المرأة غالبًا مكانتها من مكانة محارمها واحترامهم لها. وحماية ذوي المرأة لها أمر حتمي، فهي حماية للذات؛ لأن المرأة جزء من الرجل، وأي مساس بها تجرُّؤ عليه واستهانة به. ومع ذلك، كانت عرضة لغضب أبيها أو شدة غيرته، فربما وئدت خوفًا عليها من الفقر أو السبي أو طمع غير الأكفاء بها. كما أن بعض العرب كان يرى وجود المرأة وما تمثله من خطر قد يهدد الرجل والقبيلة اجتماعيًّا

(1) الرجل في شعر المرأة، ص 25.
(2) المصدر السابق، ص 27.

أو اقتصاديًّا أو عسكريًّا، بل واعتبروها من معوقات السيادة»[1] فقالوا: «من كن له أحد الحوبات[2] الثلاث لم يشرف عشيرته، ولم يسد قومه»[3].

فكثرة المحارم من النساء سيكون عائقًا دون السؤدد. وهذا يبين أنها كانت عبئًا ثقيلًا. ومما لاشك فيه بأن القبائل تفاوتت في النظرة للمرأة واحترامها؛ بل واختلفت نظرة الأشخاص في ذلك، ويرجع هذا لعدم وجود قانون يمتثل له الجميع؛ فلا يحكمهم سوى الأعراف والتقاليد التي تختلف بدورها من قبيلة إلى أخرى، كما كانت المرأة راضية ومستسلمة للتقسيم الاجتماعي الذي جعل أخاها في مرتبة أعلى فاقتنعت بهذا التقسيم ولم تعتبره إنقاصًا من حقها.

2 - أبناء عشيرتها

وهم أبناء عمومة المرأة، وتتسع دلالته لتتجاوز ما وضعت له أصلًا من أنه ابن أخ الأب لتشمل أي فرد من أفراد العشيرة، فأبناء العمومة يعزهم عزها وتذلهم إهانتها، وكانت المرأة العربية في الجاهلية تتفاخر بأبناء عمومتها، وتعتبرهم عزوتها، لأن هؤلاء حريصون على الدفاع عنها وحمايتها، فهذا واجب تحتمه القرابة التي بينهم، وكلما زادت القرابة كلما صارت الحماية ألزم، فربيعة بن مكدم نال مكانته العالية من استبساله في حماية نساء قومه حتى أصيب، فوقف دون حريمه وهو متوكئ على رمحه بعد أن طلب منهن أن يهربن، ومات وهو كذلك، والأعداء لا يقبلون على خيامهم خوفًا منه، فلما رمى أحدهم فرسه مال عنها ميتًا، فانصرفوا عنه وقد هربت النسوة وقيل إن أمه كانت تحثه على ذلك[4]

(1) الرجل في شعر المرأة، ص 26.
(2) الحوبة: هي الأم أو الأخت أو البنت.
(3) قوت القلوب، أبوطالب محمد بن علي الحارث المكي، الجزء الثالث، المطبعة المصرية، 1351هـ ص 336.
(4) جمهرة الأمثال، أبوهلال العسكري، الجزء الأول، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، 1384هـ، ص 409.

3 - الرجال الأباعد (غير الأعداء)

تحترم المرأة من يملك الشجاعة والمروءة والكرم حتى لو كان بعيدا وتكره الجبان والبخيل حتى لو كان أخاها؛ لأن هذه الصفات تمقتها المرأة ولاتعطي بالا لمن يتصف بها، والعربي كان يحمي المرأة ولو كانت بعيدة؛ لأنه يعتبرها مخلوقا ضعيفا، ومن مكملات المروءة عندهم حماية الضعيف، وهي من الخلق السامي الذي تفاخر به العرب، وعندما يكون هذا البعيد جارًا؛ فإن حمايته وستر محارمه، وعدم النظر إليهن بريبة يصبح واجبًا اجتماعيًّا.

يقول شبيب بن البرصاء مفتخرًا:

وجـاراتـنـا مـا دُمْـنَ فِـيـنـا بِـعِـزَّةٍ
كـأروى ثَـبـيْـرٍ لا يُـحِـلُّ اصْطِيَادُهَا[1]

- الأعداء

تشارك المرأة أبناء عشيرتها في معادات أعدائهم تحريضًا وربما هجاءً، أما هم فهمُّهُم سبي المرأة والتمتع بها، وهي بالنسبة لهم كسب عسكري واقتصادي، واجتماعي. فمن الناحية العسكرية يعد الوصول إلى المرأة دليلًا مؤكدًا على كسب المعركة، أما من الناحية الاقتصادية فتشكل المرأة غنمًا ليس سهلًا، فقد أصبحت أمة يمكن أن تباع، ويمكن أن تستعمل ويمكن أن تفتدى.

ويعد السبي كسبًا اجتماعيًّا عندما يذلون أعداءهم بهذا السبي لنسائهم. وينبغي التنبه إلى أنهم لا يقصدون ذل النساء المسبيات فكانوا في الغالب يحسنون التعامل معهن.

---

(1) الجارة في الشعر العربي القديم، مرزوق بن صنيتان بن تنباك، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود - 1411هـ، ص 383.

يقول حاتم الطائي:

وما أنكحونا طائِعين بناتِهم

ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا

فما زادهم فينا السباء مذلةً

ولا كلفت خبزًا ولا طبخت قدرا

ولكن خلطناها بخير نسائنا

فجاءت بهم بيضًا وجوههم زهرا[1]

بل إن إيذاء المرأة بالضرب أو غيره عار على الرجل؛ لهذا كانوا يحسنون معاملة نساء العدو ويضعونهنَّ بين نسائهم الأحرار وينجبون منهن الأولاد الذين يصيرون فخرًا لآبائهم.

****

(1)المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، شرحه صلاح الدين الهواري، الجزء الثاني، بيروت: دار مكتبة الهلال، 2000، ص 168.

المبحث الثالث
منزلة الشاعر في الجاهلية ونظرته للمرأة

منزلة الشاعر في الجاهلية

اهتم العرب في الجاهلية اهتمامًا بالغًا بالشعر والشعراء، لأنهم كانوا يقدرون الشعر ويعتبرونه أجلّ الفنون كلها، فيه اجتمعت ثقافتهم، وإليه تناهت عبقريتهم، وبه وحده كانوا يصورون نزوعهم إلى الإبداع، وحب الجمال. والشعر إلى جانب وجهه الفني، كان يمثل في الجاهلية وجه الحياة الفكرية: فيه الحكمة والمثل، وصاحبه سيد من أشراف القبيلة، إن احتكم الناس إلى رئيس القبيلة في أمور السياسة والحياة احتكموا إلى الشاعر في أمور العقل واستفتوه في المشكلات، بل اعتقدوا أن فيه قوة سحرية خارقة تحرك لسانه بما لا يحسنونه[1].

كما اهتموا بإعداد الشاعر كاهتمامهم بإعداد الفارس، وذلك انطلاقًا من أن طبيعة العرب طبيعة شعرية، ولغتهم لغة شاعرة وأنهم ذوو نفوس حساسة، ومشاعر مرهفة، وللكلمة وزن لديهم فهي ترضيهم وتغضبهم، وتقيمهم وتقعدهم، وهم أصحاب ذاكرة حافظة، لذلك كان اعتمادهم في رواية الشعر على المشافهة، فإذا أعجبوا ببيت من الشعر حفظوه ورووه وتناقلوه، وكان البيت من الشعر يعلي شأن الفرد والقبيلة، كما كان البيت أيضًا ينزلها إلى الحضيض. والعلاقة بين الشاعر والمجتمع علاقة وثيقة توضحها علاقة الفرد بجماعته التي ينتمي إليها،

(1) الأدب الجاهلي، د. غازي طليمات وأ. عرفان الأشقر دار الفكر، بدمشق، سوريا الطبعة الثانية، 2007، ص 66.

كما أن العلاقة بين الشعر والمجتمع علاقة وثيقة حيث يُصف الشعر مظهرًا من مظاهر ثقافة المجتمع.

وإذا كان الشاعر مرتبطًا بالقبيلة بوصفه واحدًا من أبنائها، فإن القبيلة قد أعطت الشاعر مكانة خاصة «فكانت وظيفته في القبيلة أخطر من الزعامة والقيادة وهو وضع قد قضت به ظروف البيئة، ودفعت إليه حاجة القبيلة إلى قيادة معنوية، تبث في أبنائها روح البسالة والحمية، وإباء الضيم»[1] والشعراء من جهة أخرى كانوا على وعي بمنزلتهم الفريدة من قومهم بوصفهم شعراء وبوصفهم فرسان القلم، وقد عبر الشعراء عن مكانتهم من قبيلتهم في صور مختلفة حيث يقول عامر بن الطفيل:

لقد علمتْ عُلْيَا هوازن أنَّني
أنا الفارس الحامي حقيقة جعفر
وقد عَلِمَ المزنوقُ أني أَكُرُّهُ
على جمعهم كرّ المنيح المشَهَّر[2]
إذا ازورَّ من وقعِ الرماحِ زجرتُهُ
وقُلتُ له ارجعْ مقبلًا غير مدبرِ

ويشعر الشاعر أن تميزه لا يعود إلى نسب وإنما لخصائص فردية، مع هذا فإنه يقرر التزامه بقبيلته، لأنه فرد في جماعة تؤهله موهبته لأن يشغل فيها وظيفة ذات خطر، وهي وظيفة الشاعر العام، مثله في ذلك مثل الفارس يشغل وظيفة الذود عن الحمى، ومثل شيخ القبيلة الذي يشغل فيها وظيفة الأبوة بحكم ما له من مؤهلات ذاتية. والشاعر يحس بالذاتية الجماعية أصدق إحساس ويعيها أتم الوعي يقول حريث بن مخفض المازني:

---

(1) قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، د. عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، يناير 1967 – 1970، ص 33.

(2) المنيح: الذي لا نصيب له من الطعن، لأنه هو الذي يكر على عدوه. وهو قدح من أقداح الميسر يؤثر بفوزه.

ألـم تـر قـومـي إن دعـاهـم أخـوهـمُ
أجابوا، وإن يغضب على القوم يغضبوا
هـم حـفـظـوا غـيـبـي كـمـا كـنـت حـافـظًـا
لـقـومـي أخـرى مـثـلـهـا إن تـغـيـبـوا
بـنـو المـجـد لـم تـقـعـد بـهـم أمـهـاتـهـم
وآبـاؤهـم آبـاء صـدقٍ فأنجبوا[1]

ويقول عامر بن الطفيل[2]:

فـمـا سـوَّدتـنـي عـامـر عـن وراثـةٍ
أبـى اللـهُ أن أسـمـو بـأمٍّ ولا أبِ
ولـكـنـنـي أحـمـي حِـمـاهـا وأتَّـقـي
أذاهـا وأرمـي مَـنْ رمـاهـا بمقنبِ[3]

وقد كان الشاعر إذا أخطأ لم يعتذر؛ لأن الاعتذار غير شائع عند شعراء القبائل، فإن الشاعر إذا أخطأ التزمت القبيلة كلها بخطئه فلم تلجئه إلى أن يقف موقف المعتذر الذليل، وقلما يبالي شاعر القبيلة وشاية يسعى بها واش لدى ذي جاه أو سلطان، أو يروعه غضب غاضب؛ لأنه يعلم أن القبيلة كلها من ورائه تحميه وتنصره وتؤازره، ومن هنا لم يكن ثمّ مجال للاعتذار بل يقول ما قاله عمرو بن كلثوم:

بـأيِّ مـشـيـئـةٍ عـمـرو بـن هـنـدٍ
تـطـيـعُ بـنـا الـوشـاةَ وتـزدريـنـا
فـإنَّ قـنـاتـنـا يـا عـمـرو أعـيـتْ
عـلـى الأعـداء قـبـلـكَ أن تـلـيـنـا

(1) قيم جديدة للأدب العربي، ص 35.
(2) الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، حسني عبدالجليل، الطبعة الأولى، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، ص 27.
(3) المقنب: شيء يكون مع الصائد يجعل فيه ما يصيده. ويقال مخلب الأسد في مقنبه. وهو الغطاء الذي يستره.

إذا ما الملكُ سامَ الناسَ خسفًا
أبينا أن نقرَّ الذلَّ فينا
وأيامٍ لنا غُرٍّ طوالٍ
عَصَينا الملكَ فيها أنْ ندينا
ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا
فنجهلَ فوق جهلِ الجاهلينا

أو ما قال الحارث بن حلزة:

أيها الناطقُ المرقشُ عنَّا
عند عمروٍ، وهل لذاك بقاءُ
لا تخلنا على غراتكَ إنا
قبل ما قد وشى بنا الأعداء
فبقينا على الشناءة تنمْـ
ـمِينا جدودٌ وعزَّةٌ قَعْساء[1]

وقد تحول الشعراء يصبون أهاجيهم ولعناتهم على خصومهم وعشائرهم، يقول الجاحظ: «وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به وفخرت به عشيرته، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه، ومن طلب عيبًا وجده»[2] وكان لسان الشاعر يطعن بهجائه في الأعداء كطعن السيوف والرماح، ويخيل إلى الإنسان كأنما تراص شعراء القبائل بجانب فرسانها وشجعانها في صفوف، وقد أخذ كل منهم يريش سهام هجائه ويرمي بها أعداءه من أشراف القبائل، وكل يحاول أن يكون سهمه أنفذ السهام وأصماها، حتى لا يقوم للشريف وقبيلته قائمة. وكانوا

(1) قيم جديدة للأدب العربي، ص 37. عزة قعساء: للأعز – ورجل أقعس: ثابت عزيز منيع.
(2) الحيوان، الجاحظ، ص 142.

ينتهزون فرصة تلاقيهم في الأسواق وخاصة سوق عكاظ، فينشدون أهاجيهم، ليلحق بخصومهم كل ما يريدون من خزي وعار[1].

لذلك يقول راشد بن شهاب اليشكري – لقيس بن مسعود الشيباني[2]:

ولا تـوعـدَّنـي إنـنـي إن تـلاقـنـي
مـعـي مـشـرفـي فـي مـضـاربـه قَـضَـمْ
وذم يُـغـشِّـي المـرء خِـزْيًـا ورهـطـه
لـدى السَّـرْحَـة العـشّـاء فـي ظلها الأَدَمْ[3]

لهذا كان الشاعر أرفع قدرًا من الخطيب؛ لأنهم أحوج لرد مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم لذلك نلمس مدى حاجة ذلك العصر إلى الشاعر وفرح المجتمع الجاهلي به وتكريمه إيَّاه، لأنه يقيد مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ويهيب بفرسانهم ويخوف من كثرة عددهم بطريق الترهيب والتهديد فهو الناطق بلسانهم المعبر عن رأيهم المتفاخر بأمجادهم.

وكان دور الشعر خطيرًا وأثره عميقًا في نفوس الجاهليين، سواء أكان مدحًا أم ذمًّا، فقد كانت العرب تتأثر به لأنهم كما ذكرنا أصحاب عاطفة وحس وذوق مرهف، كما أن للشعر سحرًا في النفوس، حتى ذهب بعض الباحثين إلى أن الشعر فن من الفنون التي كان يمارسها السحرة للتأثير على مشاعر الناس إذ كانوا يتخذونه وسيلة من وسائل التأثير في النفوس كما يتعلمونه من كلام مؤثر ساحر يترك أثرًا خطيرًا في نفوس سامعيه، ولقد بقي أثر الشعر هذا في نفوس الناس حتى بعد زوال الجاهلية ودخول الناس في الإسلام، فكان مدح الشاعر لقوم من المآثر والمفاخر، وكان ذمه مما يشين ويسيءُ إلى المهجو فلما هجا (جرير) بني نمير:

---

(1) العصر الجاهلي، ص 200.
(2) المفضليات، المفضل محمد بن يعلى الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، ص 308.
(3) السرحة: شجرة عظيمة كانت بعكاظ. العشّاء: الخفيفة.

فـغـضَّ الـطـرفَ إنـكَ مـن نمـيـرٍ
فـلا كـعـبًـا بـلـغـتَ ولا كـلابـا

أخذ بنو نمير ينتسبون إلى عامر بن صعصعة ويتجاوزون أباهم نميرًا هربًا من ذكر نمير وفرارًا مما وسم به من الفضيحة والوصمة، حتى أنه صار الرجل منهم أي من (بني نمير) إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بني عامر[1].

إذًا، كان الشعر في الجاهلية ضروريًّا لتعرف كل قبيلة عن مآثرها، كما هي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة في وقتنا الحالي حيث صار العالم قرية واحدةً، نسمع بالخبر فور حدوثه ومن خلاله نعرف عادات وتقاليد وثقافات الأمم الأخرى.

وقد بلغ من شغف العرب بالشعر أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب وعلقتها، بأستار الكعبة. ورواية الشعر كانت الوسيلة الوحيدة لانتشار الشعر في االقبائل، فهي الوسيلة التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة حيث يقول المسيب بن علس[2]:

فـلأهـديـنَّ مـع الـريـاح قـصـيـدةً
مـنـي مُـغَـلْـغَـلَـةً إلـى الـقـعـقـاعِ
تَـرِدُ المـيـاه فـمـا تـزال غـريـبـةً
فـي الـقـوم بـين تمـثُّـلٍ وَسَـمَـاعِ

فقصيدته بمجرد التفوه بها تنتشر في القبائل، ويرددها الناس مستمعين إليها ومتمثلين بأبياتها. يقول عميرة بن جعل نادمًا على هجائه لقومه وشيوعه في العرب وأنه لم تعد له حيلة في رده:

نـدمـتُ عـلـى شـتـمِ الـعـشـيـرة بـعـدمـا
مـضـتْ واسـتـتـبـتْ لـلـرواة مـذاهـبـه

(1) شعر الغزل عند امرئ القيس دراسة في الأدب الجاهلي، د. عمران إسماعيل فيتور، دار المناهج للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2005، ص 19.
(2) المفضليات، ص 62.

فأصبحتُ لا أستطيعُ دفعًا لما مضى

كما لا يُردُّ الدرّ في الضرعِ حالبه[1]

فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت هي الأداة الطيعة لنشره وذيوعه، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافًا وهي طبقة الشعراء أنفسهم، فقد كان من يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعرًا آخر يروي عنه شعره، وما يزال يروي له ولغيره حتى ينفتق لسانه، ويسيل عليه ينبوع الشعر.

ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية الشعر، فقد كان يشركهم في ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم في حروبهم ومثالب أعدائهم، وإلى ذلك أشار بعض بني بكر معيرًا تغلب لكثرة ترددها لقصيدة واحدة هي معلقة عمرو بن كلثوم، وكأن ليس لها شعرٌ سواها[2]:

ألْهى بني تغلبٍ عن كُلِّ مكرمةٍ

قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ

يروونها أبدًا مُذْ كان أولهمْ

يا للرجالِ لشعرٍ غير مشؤومِ

ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم هم الذين يشيعون شعر شعرائها، فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخر يشتركون معهم في إشاعته، إذكان بينهم جمع غفير من الحفظة، كانوا يتناقلون الشعر وينشدونه في محافلهم ومجالسهم وأسواقهم؛ إذ لم يكن لهم شاغل سواه ومن ثم قال عمر بن الخطاب: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه» فهو كل علمهم وكل حياتهم. فجاء الإسلام فانكبوا على تلاوة القرآن الكريم، ولكن لم ينسوا شعرهم أبدًا، حتى عند بداية الدعوة الإسلامية، فقد كان الرسول ﷺ يستحث حسان بن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها»[3].

(1) المفضليات، ص 100.

(2) الشعر والشعراء، عبدالله بن مسلم بن قيبة، الطبعة الثانية، 1983، عالم الكتب، ص 37.

(3) العصر الجاهلي، ص 144.

نظرة الشاعر الجاهلي للمرأة

كانت نظرة الشاعر الجاهلي للمرأة مستمدة من نظرة المجتمع، فالشاعر الجاهلي جزء لا يتجزأ من قبيلته وللمرأة، في حياة الشاعر دور كبير لالتصاقها بحياة الرجل فالشاعر هو الابن، والزوج، والأخ والمرأة هي مبعث الحياة ومظهر الجمال الحي، منها يكون الإلهام، وفيها يكون الخيال وإليها يكون الملجأ للهدوء والسكينة والراحة. ومن أجل ذلك تغنوا بها، وخَصُّوها بقصائد وفيرة. وتفنن الشعراء في وصفها ببراعتهم وخيالهم وعبقريتهم، والرجل دائمًا في كل عصر يسعى إلى قلب المرأة لأنه يرى من خلالها الحياة التي يريدها لنفسه أن يحياها، وقد نقلت إلينا الحضارات ألوان الحب المختلفة بين الرجل والمرأة على مدى كبير[1]، فالحب هو الطريق للتعبير عن العاطفة الإنسانية المنطلقة من الذات والمتوجهة عادة نحو الآخر، وهي منطلق التفاعل الإيجابي بين الناس.

والحب أنواع؛ منه ما يكمن في الجسد، ومنه مايكمن في الروح «والحب نور يشرق النفوس فيحييها بأزهار خفية، تتفتح في الضمائر، أجمل وأبهج وأحب إلى الإنسان، من تلك الأزهار التي تتفتح في الرياض، ويمد القلوب بخصب أغنى وأوفر»[2]. والمرأة رافلة في أثوابها المتباينة فطورًا ملاك، وطورًا آلهة، وأحيانًا تشبه في ألوانها وأعضائها ما في الأرض والسماء والماء من حيوان وجماد، فأبدع الشاعر في تصويرها. فالمرأة بالنسبة للرجل مصدر كُلِّ متعة، ومصدر الحياة نفسها بوصفها أُمًّا، ولهذا أصبحت المرأة عند الشاعر الجاهلي رمزًا للحياة نفسها، وأصبح موقفه منها يرمز إلى موقفه من الحياة فهي عنده صنوف الطبيعة القاهرة[3].

---

(1) تطور الصورة في الشعر الجاهلي، د. خالد الزواوي، مؤسسة حورس الدولية مصر، الإسكندرية، ص 91.
(2) مراجعات في الأداب والفنون، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1966، ص 28.
(3) الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص 199.

والمرأة عاشت إلى جانب الشاعر وشاركته حياته وقاسمته سرّاءها وضراءها، فتحدث عنها ورسم فيها مشاعره وعواطفه وأهواءه ورغباته فهي الأم والأخت والابنة والحبيبة، أما بالنسبة للمرأة الأم فالعرب كانوا يعظمون المرأة الأم، لأنها أقرب النساء إلى الرجل وآثرهن عنده، وأحقهن بالاحترام والتقدير بحسب العرف الاجتماعي آنذاك، ونرى هذا واضحًا في تعاملهم مع أمهاتهم، يقول أفنون التغلبي مفتخرًا بما قام به عمرو بن كلثوم:

لعمرك ما عمرو بن هندٍ إذا دعا

لتخدم أمِّي أمَّهُ بموفقِ[1]

وفضَّل صخر بن عمرو الأم على الزوجة عندما ملت زوجته طول مرضه، فقال أبياتًا منها:

أرى أمّ صخرٍ ما تجفُّ دُموعُها

وملَّت سُليمى مضجعي ومكاني

فأيُّ امرئ ساوى بأمٍّ حليلةً

فلا عاشَ إلا في شقًى وهوانِ[2]

«ومكانة الأم في القبيلة تعلو حينما ترتفع مكانة أبنائها، كما تكون مكانة الأبناء أقل من غيرهم إذا كانت الأم من الإماء، وتطرق الشعراء إلى أبناء الإماء لضعة النسب بسبب الأم، فالمتلمس بن عبدالمسيح يقول[3]:

يعيّرني أمي رجال ولا أرى

أخا كرمٍ إلا بأنْ يتكرَّما

---

(1) الشعر والشعراء، ص 468.

(2) الكامل في اللغة والأدب، المبرد، الجزء الثاني، مؤسسة دار المعارف، بيروت، ص 419.

(3) ديوان المتلمس، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية، 1390هـ، ص 14.

فالشاعر يبدو مستجيبًا لهذه الظاهرة التي نال بسببها الانتقاص بسبب نسب أمه. وكون الأم أمة لا يعني أنها لن تنال برّ ابنها، فالمتلمس في بيت آخر يؤكد بنوَّته لأمه الأمة؛ إذ يقول[1]:

وهــل لــي أمٌّ غـيـرهـا إنْ تـركـتـهـا؟
أبــى الـلــه إلا أن أكــونَ لـهـا ابـنـا

رغم أنه مع بره بأمه فإنه يتضح تبرمه من هذه الأمومة، نرى هذا بوضوح من خلال سؤاله الإنكاري، وكأنه يقول ليس ثمة خيار آخر سوى الاعتراف بأن هذه أمي وليس لي غيرها»[2] وأيضًا نرى الفخر بالأم يقف جنبًا إلى جنب مع الفخر بالأب حيث يقول الشنفرى[3]:

ألـيـسَ أبـي خـيـرَ الأواسِ وغـيـرِهـا
وأمــي ابـنـةَ الخَـيْـرَيـنِ لـو تـعـلـمِـيـنَـهـا
إذا مـا أرومُ الــوُدّ بـيـنـي وبـيـنـهـا
يــؤُمُّ بـيـاضُ الـوجـه مـنِّـي يـمـيـنَـهَـا

وفي بعض الأحيان قد يسبق الفخر بالأم فخر الشاعر بالأب كما يقول السموأل:

صَـفَـونـا فـلـم نـكـدر وأخـلـصَ سـرّنـا
إنــاثٌ أطـابـتْ حَـمـلـنـا وفـحـولُ
عَـلَـونـا إلـى خـيـرِ الـظـهـور وحـطّـنـا
لـوقـتٍ إلـى خـيـرِ الـبـطـونِ نُــزولُ[4]

إن المرأة الأم تستمد جمالها من أمومتها وإشفاقها على وليدها وهي صور رمزية تعمق من وعي الجماعة لقيمة الأمومة، وتجعل المرأة تتميز بما تضفيه عليها الأمومة من جمال وفتنة.

---

(1) الرجل في شعر المرأة، عمر عبدالعزيز السيف، ص 50. ديوان المتلمس الضبعي، ص 30.
(2) الأدب الجاهلي قضايا وفنون، ونصوص، ص 188.
(3) المرجع نفسه.
(4) المرجع نفسه.

أما الأخت فقد حظيت بمكانة عالية فقد كان الرجل الجاهلي بارًّا بأخته في أحيان كثيرة، فصخر، كما تذكر الأخبار، كان بارًّا بالخنساء. وينقل الجاحظ أن الخنساء «دخلت على عائشة أم المؤمنين، عليها صدار من شعر، فقالت لها عائشة: أتتخذين الصدار، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ؟ فقالت: يا أم المؤمنين، زوجي كان متلافًا منفقًا، فقال لي: لو أتيت معاوية فاستعنته، فخرجت وقد لقيني صخر، فأخبرته فشاطرني ماله ثلاث مرات، فقالت له امرأته: لو أعطيتها من شرارها، فقال:

واللـــه لا أمـنـعـهـا خـيـارهـا
وهـــي حَـصَـان قـد كـفـتـنـي عـارهـا
وإن هـلـكـت قـــددت خـمـارهـا
واتَّـــخـــذت مـــن شـعـر صـدارهـا

فلما هلك صخر اتَّخذت هذا الصدار، ونذرت ألاّ أنزعه حتى أموت[1]. كما كان الرجل الجاهلي يحترم أخته ويجير من تجيره كما حدث لأخوة فكيهة التي أجارت السليك ابن السلكة فحموه فقال السليك:

لـعـمـر أبـيـك والأنـبـاء تَـنْـمـى
لـنـعـم الجـار أخـت بـنـي عُـوَار[2]
مـن الخـفـرات لـم تـفـضـح أبـاهـا
ولـم تـرفـع لإخـوتـهـا شـنـارا
ومـا عـجـزت فـكـيـهـة يـوم قـامـت
بـنـصـل الـسـيـف واسـتـلـبـوا الخـمـارا

أما المرأة الحبيبة فقد منحها الشاعر الجاهلي قوة خارقة تسلب الرجل العاقل عقله، وقد حاول كل شاعر أن يجعل من محبوبته أجمل النساء وأكثرهن سحرًا وتأثيرًا.

(1) الشعر والشعراء، ص 73.
(2) تهذيب كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني تهذيب وتحقيق عبدالعزيز جمال الدين، مكتبة الإيمان، المنصور 2009.

يقول امرؤ القيس[1]:

أفـاطـمُ مـهـلًا بـعـد هـذا الـتـدلـلِ

وإن كنت قد أزمعتِ صرمي فأجملي

أغـرَّكِ مـنِّـي أن حـبَّـكِ قـاتـلـي

وأنـكِ مـهـمـا تـأمـري الـقـلـبَ يـفـعـلِ؟

ويقول الأعشى في المرأة[2]:

تـهـالـكَ حـتـى تـبـطـر المـرْء عـقـلـه

وتـصـبـي الحـلـيـم ذا الحـجـى بـالـتـقـتـل

والمرأة عند حكيم الشعراء زهير تصبي الحليم بحديثها وأصوات حليها، يقول زهير[3]:

وتـصـبـي الحـلـيـم بـالحـديـث يـلـذُّه

وأصـوات حـلـي أو تحـرك دُمْـلـجِ

ووقف منها بعض الشعراء موقفًا فيه كثير من الريبة والعداء، حيث يقول الطفيل الغنوي:

إن الـنـسـاءَ كـأشـجـارٍ خـلـقـنَ لـنـا

مـنـهـا المـرارُ وبـعـضُ المـرِّ مـأكـولُ

إنَّ الـنـسـاء مـتـى يـنـهـيَن عـن خـلـقٍ

فـإنـه واجـبٌ لابـدَ مـفـعـولُ[4]

****

(1) الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص 200-202.
(2) المرجع نفسه.
(3) المرجع نفسه.
(4) المرجع نفسه.

الفصل الثاني
نماذج من شعراء الجاهلية الذين تناولوا المرأة في أشعارهم

المبحث الأول
نوعية الأشعار التي قيلت في المرأة وأشهر من قالها

لا يكاد يخلو شعر دون ذكر المرأة، فالحاجة إليها أساس الحياة، ومن هنا كانت نظرتهم إليها نظرة عميقة فجعلوا يصفونها، ويتبارون في وصفها « وقد حبب الله سبحانه وتعالى إلى رسله وأنبيائه نساءهم وسراريهم، فكان آدم أبوالبشر شديد المحبة لحواء وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه ليسكن إليها؛ إذ أول حب كان في هذا العالم حب آدم لحواء وصار ذلك سنة ولده في المحبة بين الزوجين»[1] وهذا يبين مدى أهمية المرأة للرجل؛ إذ تتعذر الحياة بدونها فهي نصفه الذي لا يستطيع أن يستغني عنه.

«لقد كان العربي في العصر الجاهلي تلقائيًّا في علاقته بالمرأة يحترم الأعراف القبلية، لكنه يستجيب للصبوة ما سنحت الفرصة، وأمن العار. وأرى أن هذا الأمر سببه أنه على غير هدى ودين؛ لأن الدين يحدد هذه العلاقة بشرعية الزواج. والعصر الجاهلي عرف الحب في مستوياته جميعًا، الحسية والعذرية، الطبيعية، والشاذة، بين الفتيان والفتيات، وبين العشاق من الأزواج والزوجات»[2].

لقد شغل شعر الغزل من الإرث الشعري الذي خلفه لنا العصر الجاهلي مكانًا واسعًا، وجمع نماذج وصورًا كثيرة للغزل وأنواعه، حيث كان للمرأة سحرها الروحي في نفوس الرجال، فكانت الحبيبة ملهمة الشعراء وباعثة قوية لإلهاب مشاعرهم

(1) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1977، ص 169.
(2) الحب في التراث العربي، محمد حسن، سلسلة عالم المعرفة (36) كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1990.

وإذكاء بطولاتهم، وإثارة أحاسيسهم التي خلّدوا فيها أدبًا يحمل كل معاني القوة والسمو والإباء[1].

وهذه العلاقة يمكن أن ينظر إليها من منطلقات ثلاثة: هي الحب، والغزل، والجمال، فالحب هو طريق أو تعبير عن العاطفة الإنسانية، المنطلقة من الذات والمتوجهة عادة، نحو الآخر، وهي منطلق التفاعل الإيجابي بين الناس. وحب الرجل المرأة، شعور غريزي، وإحساس روحي، لا يعدو عليه الزوال وإن أصابه بعض الفتور.

أما الجمال فهو نسبي، متوقف في وجوده على مفاهيم الأشخاص والبيئة، والجمال هو الحسن في الخُلُق والخَلْق، والاعتدال والتوازن والانسجام، مع التركيز والتناسب. والجمال يقع على الصور والمعاني، والإنسان مطبوع على الشعور بالجمال، وعشق الجمال، مذ أودع الله في صدره قلبًا. والحب هو سر الأسرار، وسلعة الحياة الخالصة، يهز النفوس فتفيض وتشتاق[2].

والعلاقة بين الشاعر والمرأة، ربما كانت علاقة فنية، وهي ثمرة إيحاء في التأمل والتفكير والتخيل والتعبير، وربما كانت غريزية بحتة، والعلاقة الغريزية هي الغالبة، باستثناء تلك العلاقة القائمة على أساس من حب طهور، يتسم بصفاء عميق، كما هو الحال عند العذريين.

الغزل والنسيب والتشبيب

في الجاهلية كان الغزل يأتي في مطالع قصائد الشعراء، بل عالة على القصيدة، يحشونه فيها حشوًا، ثم تحول إلى عادة فرضتها تقاليد البيئة، وكانت سائر الأغراض الشعرية في ثنايا القصيدة.

---

(1) مظاهر القوة في الشعر الجاهلي، حنا نصر الحتي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2007، ص 202.
(2) خواطر في الفن والقصة، عباس محمود العقاد، منشورات دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1973.

يطلق علماء الأدب على موضوع المرأة في الشعر العربي أسماء مختلفة، فهم يسمونه الغزل أو التغزل، ويسمونه النسيب، ويسمونه التشبيب أيضًا. وبرغم أن ثمة فروقًا بارزة بين هذه الكلمات، فإن كثيرًا من النقاد القدماء، ومن المؤلفين المتأخرين ومن المعاصرين، قد آثروا أن يتجنبوا عناء التمييز بينها فمن أكابر النقاد القدماء أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني الذي وضح هذا الموضوع في كتابه (العمدة في صناعة الشعر ونقده) بهذه الإشارة العارضة: «والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد. وأما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن. ومن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ»[1].

الغزل والتغزل

تطلق كلمة (غزل) اليوم على الشعر الذي يدور حول المرأة، تساهلًا وتجوّزًا، والغزل في حقيقته «مغازلة النساء ومحادثتهن» أما التغزل فهو «التظاهر بتلك الصفات». فالغَزِل (بفتح الغين وكسر الزاي) هو الرجل الذي وهبته الطبيعة صفات محببة إلى النساء. والمتغزل هو الذي يتكلف تلك الصفات وليست هي فيه.

والغزل كما ذكرنا من قبل هو: حديث الفتيان والفتيات، وقيل: هو اللهو مع النساء، وكذلك المتغزل، قال الشاعر:

تـقـول لـي الـعَـبْـرَى المـصـاب حـلـيـلـهـا

أيـا مـالـكًـا هـل فـي الـظّـعـائـن مـغْـزلُ؟

النسيب والتشبيب

وقع الاختلاف بين النقاد في تعريف النسيب والتشبيب. ولكنَّ نفرًا منهم فضلوا التفريق فقالوا: إن التشبيب هو ذكر صفات المرأة المحبوبة. وأما النسيب فهو ذكر عاطفة الشاعر المحب، إذن نحن هنا أمام صفتين متقابلتين: إذا عالج

(1) العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق، القاهرة، المكتبة التجارية، الطبعة الأولى، 1934، ص 121 - 122.

الشاعر شعوره هو نحو المرأة فإنما هو ينسب بها، وأما إذا وصف المرأة كما هي فإنما هو يشبب بها.

اعلم أن النسيب والتشبيب والغزل ثلاثتهما متقاربة، ولذلك يعسر الفرق بينها حتى يظن بها أنها واحد. والفرق بينهم: أن الغزل هو الأفعال والأحوال والأقوال الجارية بين المحب والمحبوبة نفسها. أما التشبيب فهو الإشادة بذكر المحبوب وصفاته وإشهار ذلك والتصريح به. وأما النسيب فهو ذكر الثلاثة، أعني حال الناسب (الشاعر المحب) وحال المنسوب به (المرأة المحبوبة) ثم الأحوال الجارية بينهما. فالتشبيب داخل في النسيب، والنسيب ذكر الغزل[1].

إذن؛ فقد بين أن النسيب والتشبيب بينهما عموم وخصوص فالنسيب أعم من لتشبيب.

تطور الغزل

إن الغزل شأنه شأن سائر أغراض الشعر العربي، أصابه ما أصابها من التطور والازدهار، ولكن بدرجات مختلفة، عمقًا وسطحية، قوة وضعفًا، تبعًا لاختلاف البيئة والعصر معًا منذ الجاهلية وحتى اليوم.

أقسام الشعر الغزلي

- هنالك تقسيم لشعراء الغزل تبعًا للنساء اللواتي تغزل بهن الشعراء.

- وهناك تقسيم لشعر الغزل تبعًا لنوعه، فقد نقل إلينا شعر عفّ هادئ كما نقل إلينا شعر ماجن جريء، وهناك تقسيم ثالث متأثر بالبيئة منطلق منها، وهو يهدف إلى توزيع هذا الغزل تبعًا للمواطن التي قيل فيها، أي مواطن بدوية أو حضرية[2].

(1) دراسات في الأدب والعلم والفلسفة، عمر بن أبي ربيعة، عمر فروخ، ص 18.
(2) المرأة في شعر عمر بن أبي ربيعة، د. رضا ديب عواضة، شركة رشاد برس، بيروت، 2006، ص 21.

أنماط الغزل في الشعر الجاهلي

أبرز أنماط الغزل أربعة: غزل المطالع المشوب بالوقوف على الأطلال، والغزل العفيف المعني بصور الجمال وسمو الغريزة، والغزل الصريح المغموس في الشهوة، وغزل الكهول.

1 - غزل المطالع

أدرك الشاعر في العصر الجاهلي بالحس والحدس الصادقين فضل الغزل على الأغراض الأخرى، فجعلوه على رأس كل قصيدة ليلفت الأسماع، ولينفذوا من الأسماع إلى القلوب بلاعناء، ولا استئذان. وليميل نحوه القلوب، وقد لاحظ القدامى هذه الظاهرة فقال ابن قتيبة: «وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها»[1].

ولأن التشبيب قريب من النفوس، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، وهذا من الأشياء التي ذكرها القرآن فيما بعد حيث قال تعالى: ﴿زيِّن للناس حُبُّ الشَّهَوَات من النِّساءِ والبنينِ والقناطِيرِ المُقَنْطَرَةِ من الذَّهبِ والفضَّة والخيلِ المسوَّمةِ والأنعام والحرث ذلك متاع الحياةِ الدنيا والله عنده حُسن المآب[2]﴾ فبدأ بذكر النساء قبل البنين والأموال، كل هذا يشهد بصدق ما ذكرنا. وليس هناك كلام أحب إلى العاشق المغترب من ذكر الأحبة والديار وكانت الأطلال- على ما فيها من وحشة وكآبة - المدخل الذي يفضي منه الشاعرالجاهلي إلى الغزل لارتباطها بأحبته. «والغزل يتسم بالقدرة على التعبير الصادق عن العاطفة، والبراعة في تصويرها، حتى لكأن الشاعر يجسمها لقرائه وسامعيه، فيشاركونه

(1) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص 6.
(2) آل عمران، آية 14.

مشاركة وجدانية في أفراحه وأتراحه، ويشعر كل منهم أن هذا ليس تعبيرًا عن عاطفة الشاعر وحده، وإنما هو تعبير عن العاطفة الإنسانية الخالدة»[1].

ولما كان الطلل بابًا للغزل فقد كان الشاعر يحييه، وهو في الحقيقة لا يحيي إلا حبيبته، ويدعو له بالسلامة من الآفات ولايريد السلامة إلا لمن كانت تعمره، وفي القصيدة التالية التي سنذكرها نرى امرأ القيس يحيي ديار سلمى التي محت رسومها الأمطار الغزيرة، ويسخر من تحيته قبل أن يسخر منها أحد؟ وكيف يعقل أن تسمع التحية أو تنعم بالسلامة أرض قفر، ارتحل عنها أهلها.

ويرى علماء البلاغة أن الشاعر يحيي الطلل ويريد ساكنه، ويرون أن هذا من المجاز المرسل وعلاقته المحلية، وهي ذكر المحلِّ وإرادة الحال:

ألا عم صباحًا أيها الطللُ البالي
وهل يعمن من كان في العصر الخالي؟
وهل يعمن من كان أحدث عهده
ثلاثين شهرًا في ثلاثة أحوال؟
ديار لسلمى عافيات بذي خال
ألحَّ عليها كل أسحمٍ هطّال

وفي هذه الوقفة يختلط الحاضر والماضي، ويمازج الفرح الحزن، ويساور القلق الاطمئنان، فلا يستطيع الشاعر أن يتبين في هذا الخليط المشاعر المتداخلة الحقيقة من الوهم، فيستحضر صورة المحبوبة ليجريها بين الظباء والآرام، أو ليذكر محبوبته ما كانت تصبو إليه.

كانت سلمى تظن أن حياتها السعيدة مع امرئ القيس لن تنتهي، وأن الحال لن يتحوّل، وهيهات هيهات!! فقد انطوت الأحلام وبقي الطلل[2]:

(1) الغزل في العصر الجاهلي، ص 16.
(2) الأدب الجاهلي قضاياه - أغراضه - أعلامه - فنونه، زكي طليمات، ص 144 - 145.

وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا
من الوحش أو بيضًا بميثاء محلال
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا
بوادي الخزامى أو على رسِّ أوعالِ[1]

2 - غزل المحاسن

ويعد هذا النمط من الغزل أجود الأنماط، وأقربها إلى الفن، وأقدرها على مزج الجمالين، جمال الطبيعة وجمال المرأة، ويختلف الشعراء في جوانب كثيرة من جزئيات التصور والتصوير اختلافًا تظهر فيه أذواقهم الخاصة. وقد تظهر هذه الأذواق في تناولهم المعنى الواحد، والتعبير عنه بأشكال مختلفة بسبب تعدد الأذواق، وتأثر بعضهم بالبداوة وبعضهم بالحضارة.

ولعل في توضيح بعض الشواهد دليلًا على هذا التعدد في الفروع والتوحد في الأصل. وصف المرقش الأصغر وجه صاحبته الأبيض وشعرها الأسود فاكتفى بتشبيه ضفائرها بالحبال، وهي صورة بدوية جافة لا جمال فيها[2]:

ألا حبذا وجهًا ترينا بياضهُ
ومنسدلات كالمثاني فواحما

تناول امرؤ القيس المعنى نفسه فجعل وجه صاحبته الغارق في شعرها الأسود مصباح راهب يضيء ظلام الليل فكان أقرب إلى الحضارة:

تضيءُ الظلام بالعشاء كأنها
منارةُ مُمسي راهب مُتبتِّل[3]

(1) طلا: ولد الظبية والبقرة. الميثاء: مسيل الوادي. محلال: الذي ينزل به كثيرًا. الرس: البئر. أوعال: هضبة يقال لها ذات أوعال.
(2) الأدب الجاهلي، زكي طليمات، ص 144 - 145.
(3) الأدب الجاهلي قضاياه - أغراضه - أعلامه - وفنونه، ص 144 - 145.

وفي موضع آخر مزج الحضارة بالبداوة حيث رسم شعرها بعضها منسدل على كتفيها والبعض الآخر معقص بالأمشاط[1]:

وفــــرعٍ يــزيــنُ المـــتَنَ أســـودَ فـاحـمٍ

أثـيـثٍ كـقِـنْـوِ الـنـخـلـةِ المتَعَثكل[2]

غَـدائـرهـا مُـسـتـشـزرات إلـــى الـعُـلا

تـضـلُّ الـعـقـاصُ فـي مُـثـنـى ومـرْسَـلِ

3 - الغزل الصريح الماجن

«لم تكن نفوس العرب على جاهليتها –تألف الغزل المكشوف بل كانت تؤثر التلميح على التصريح، والإشارة الموحية على العبارة الفاضحة، ولهذا قل في غزلهم وصف السوءات، والحديث عما يجري بين الرجل والمرأة من مراودة تفضي إلى الوصال. وفي هذا القليل لونان من الغزل: الوصف الفاضح، والقصص الماجن. أما الوصف الفاضح فأبيات متفرقات يصف فيها الشعراء ما استتر من جسم المرأة بألفاظ غير مكشوفة، تخفي المعنى الساقط بالعبارة المهذبة، ومن النماذج القليلة التي تمثل هذا النمط من الوصف خواتم القصيدة التي تصف المتجردة، للنابغة الذبياني، وهي أبيات مخالفة لما أُلف عن النابغة من تعفف وأنفة ووقار، فإما أن تكون نزوة من نزوات الشاعر، وإما أن تكون محمولةعليه لتنفير النعمان منه»:[3]

نـظـرتْ إلـيـكَ بـحـاجـةٍ لـم تـقـضـهـا

نـظـرَ الـسـقـيـمِ إلـى وجـــوهِ الـعُـوّدِ

سـقـطَ الـنـصـيـفُ، ولـم تُـــرِدْ إسـقـاطـهُ

فـتـنـاولـتـهُ واتّـقـتـنـا بـالـيـدِ

---

(1)الأدب الجاهلي قضاياه – أغراضه – أعلامه – وفنونه، ص 144 – 145.

(2)الفرع: الشعر. المتن: الظهر. أثيث: كثير. القنو: من النخلة كالعنقود من العنب. المتعثكل المتداخل.

(3)المرجع نفسه.

بمخضَّب رخْصٍ، كأنَّ بنانهُ
عنْمٌ على أغصانهِ لم يُعْقد[1]
تجلو بقادمتي حمامة أيكةٍ
بردًا أُسفَّ لثاثُه بالأثْمد[2]
كالأقحوان غداة غِبّ سمائه
جفَّتْ أعاليه وأسفله نَدِي[3]

أما القصص الماجن فينطوي على مجموعة من أخبار نقلتها كتب الأدب عن مغامرات الشعراء – وما رافق هذه المغامرات من قصائد ومقطوعات تروى جراءة الشعراء، واقتحامهم مخابئ النساء، ومحاولة الإيقاع بهن. وهذه الأخبار يختلط فيها الخيال بالواقع والوهم بالحقيقة.

«ووضع أهل الأخبار امرأ القيس في رأس زمرة عشاق العرب والزناة. وذكروا له عشقه لـ(فاطمة بنت العبيد بن ثعلبة) العذرية، وعشقه لـ(أم الحارث) الكلبية وعشقه لـ(عنيزة)[4].

وعنيزة هي ابنة عمه، مكر بها امرؤ القيس فأجبرها على أن تتجرد من لباسها لينظر إليها، وهي تخرج من الغدير مقبلة ومدبرة، حتى يمتّع نظره برؤية جسدها العاري، ثم نحر ناقته، وشوى لحمها وأخذ يطعم به الفتيات ليتوسل بعد ذلك لابنة عمه (عنيزة) لتحمله على غارب بعيرها بعد ذبح ناقته ليتخذ ذلك حجة له في مشاركة (عنيزة) بعيرها وهذه القصة بينه وبين الفتيات سنذكرها لاحقًا عند ذكر قصائده.

(1)ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. خضب: أي كف مخضوب – رخص: لين ناعم – البنان: الأصابع –عنم: نبت أحمر الثمر.
(2)تجلو بقادمتي: أي إذا ابتسمت كشفت عن أسنان كأنها برد لبياضها وصفائها – أسف لثاثه: أي ذر الأثمد على لثاتها.
(3)الأقحوان: نبت له زهر أبيض وسط أحمر.
(4)المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1980، ص 526.

غزل الكهول

في الشعر الجاهلي ضرب من الغزل لا يقل عن غزل الشباب ادعاءً وإدلالًا بالشباب، لكنه أصدق وأعمق منه في بعض الجوانب وهو غزل الكهول، وأقوى المعاني بروزًا في هذا الضرب من الغزل انكسار الشاعر بعد شموخ، وضجره بعد سرور، وشكواه من الشيب الذي يغزو شعره، يقول امرؤ القيس[1]:

أراهـــنَّ لا يُـحـبـبنَ مَـــنْ قــلَّ مَـالُـهُ

ولا مَــنْ رأيـــنَ الـشـيـبَ فـيـه وقـوّسـا

ويقول علقمة بن عبدة في نسوة أعرضن عنه بعض أن حنق منهن لأنه لا قدرة له على نزع البياض من رأسه أو كظم الغيظ في نفسه، وهو يعلم حق العلم أن أحب الأشياء إلى النساء اثنان: شباب متوقد ومال وفير[2]:

فـــإن تـسـألـونـي بـالـنـسـاء فـإنـنـي

بـصـيـرٌ بـــأدواء الـنـسـاء طـبـيـبُ

إذا شـــابَ رأسُ المـــرء أو قــلَّ مـالـهُ

فـلـيـسَ لـــه مـــن وُدِّهـــــنَ نـصـيـبُ

يُـــردنَ ثـــراءَ المـــال حـيـثُ عـلـمـنـهُ

وشـــرخ الـشـبـاب عـنـدهـنَّ عـجـيـبُ

من كل ما ذكر؛ لست أبعد حين أقول إن العرب في الجاهلية ونركز جيدًا على كلمة (الجاهلية) رغم ما تحمله هذه الكلمة من معاني التخلف والانحطاط الأخلاقي والديني، فأنهم لم يكونوا همجًا، ولم يتبع الرجلُ في طريقة تعامله مع المرأة الجميلة التي كانت تأسر قلبه ما يتبعه الرجل الهمجي بحكم الجاهلية التي تعم حياته، وذلك باختطافها ليتملكها غصبًا عنها، بل كان على النقيض، كان راقيًا

(1) الأدب الجاهلي، غازي طليمات، ص 156.
(2) المرجع نفسه.

في تعامله معها، حيث كان يعمد إلى استمالة قلبها لتقبل إليه برضاها بأقواله، أي بشعره الغزل، ومما يؤكد لنا أن هذه الطريقة قد أفلحت في الاستحواذ على المرأة لكثرة الغزل العربي في العصر الجاهلي، بعد ما وجدوا استحسانًا لدى المرأة لهذه الطريقة، فالحب عاطفة شائعة تعمر قلوب كثير من الناس، ولا تختلف حقيقتها كثيرًا باختلاف البيئات والأزمان.

أشهر من قال هذه الأشعار: نذكر هنا بعض الشعراء الذين كانوا يعدّون من فحول الشعراء الذين أبدعوا في مجال الغزل، الذي كان يعد فنًّا من فنون الشعر القديمة التي عرفها الشعراء في ذلك الوقت حيث جمعوا الفنون كلها في فن واحد وهو الشعر. وترد صورة المرأة كثيرًا في شعر الغزل حتى تعدّ دراسة صورة المرأة كأنها دراسة لفن الغزل.

وقد كان الباعث على قول الغزل عند الشعراء، هو الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان، وغريزة مغروزة في طبعه، ولهذا فاق الغزل الأغراض الأخرى قدرًا ومقدارًا وعمقًا وسعة لاتصاله بالعواطف الإنسانية ويكثر في الشعر الجاهلي الغزل؛ لأنه إحساس بجمال الحياة، وخاصة جمال المرأة، لهذا قلما يخلو أدب من الغزل.

والذين أبدعوا في هذا المجال في العصر الجاهلي كثيرون نكتفي منهم بالفحول الذين كانوا في قمة الإبداع، وهم: امرؤ القيس، وطرفة، والأعشى، وعنترة، وسنستعرض هنا هؤلاء الشعراء مركزين على حياتهم وبعض أشعارهم الغزلية التي قالوها في المرأة وهذا الغزل الذي قيل في العصر الجاهلي ينقسم إلى (الغزل الصريح والغزل العفيف) وكل قسم له شعراؤه الذين تميزوا به وذلك بالقدر الذي يسمح به هذا البحث.

الغزل الصريح (المكشوف)

يعدُّ امرؤ القيس زعيم الغزل الصريح في العصر الجاهلي حيث نراه يتغزل في مطلع معلقته غزلًا صريحًا مكشوفًا تارة بعنيزة وتارة بفاطمة وصويحباتها

وهناك من الدارسين من يقول بأن (فاطمة) لم تكن سوى (عنيزة) نفسها ابنة عمه، والأرجح أن (عنيزة) لم تكن ابنة عمه بل جارية من الجواري اللواتي أحبهن وعرفهن أثناء تطوافه في البلاد بعد مقتل أبيه. فما يقوله امرؤ القيس في أشعاره لا يقوله عربي جاهلي مهما كان فاسقًا لابنة عم له بل يقوله لإحدى الجواري.

امرؤ القيس

هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمر، كان كريم الأبوة والأمومة، فأمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب، والمهلهل، وقبيلته إحدى القبائل اليمنية التي كانت تسكن غربي حضرموت قبل الإسلام.

أبوه سليل الملوك من كندة وملك بني أسد، شب امرؤ القيس في حجر النعيم، إلا أنه نشأ نشأة الغواة يعاقر الخمر ويغازل النساء، ويعشق اللهو فأطلق لنفسه العنان في المجون، وعندما رأى أبوه منه ذلك طرده قبل وفاته وكان أصغر أولاده فخرج في زُمرة من أخلاط العرب يرتادون الرياض، يلعبون، ويعاقرون الخمر ويصيدون، ولم يزل على هذا الحال خمر ومجون، وسكر ولهو، وتشبيب بالنساء إلى أن أتاه نعي والده وقد قتله بنو أسد غيلة، فقال امرؤ القيس قولته المشهورة «ضيعني أبي صغيرًا وحملني دمه كبيرًا، لا صحو اليوم، ولا سكر غدًا، اليوم خمر وغدًا أمر»، فذهبت مثلًا. وفي هذه القصيدة التي سنذكرها لامرئ القيس يقص علينا مغامرته مع النساء فيقول[1]:

ويـــومَ عَـقَـرتُ لـلـعـذارى مَـطِـيَّـتِـي

فـيـا عـجـبًـا مِـنْ رحْـلـهـا المُتحَمَّل[2]

(1) ديوان امرئ القيس وملحقاته بشرح أبي سعيد السكري، ص 180 - 237، جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق خليل شرف الدين، الطبعة الثانية، 1991، دار مكتبة الهلال، بيروت، ص 157 - 162.

(2) عقر ناقته: نحرها وذبحها. العذراء: البكر والجمع العذارى. والمطية: الناقة. الرحل: مركب للبعير والناقة والجمع أرحال .

ويـــا عـجـبًـا مـن حـلـهـا بـعـد رحـلـهـا
ويـــا عـجـبًـا لـلـجـازر المـتـبـذل[1]
فَـظـلّ الـعـذارى يَـرْتَمـيـنَ بِـلَـحْـمِـهـا
وشَـحْـمٍ كَـهُـدَّابِ الـدِّمَـقْـسِ المُفَتَّلِ[2]
تـــدارُ عـلـيـنـا بـالـسـديـف صـحـافـهـا
ويـؤتـى إلـيـنـا بـالـعـبـيـط المثمَّل[3]
ويـــوم دخـلـت الخـــدر خـــدر عـنـيـزة
فـقـالـت لـك الـويـلات إنـك مرجلي[4]
تـقـول وقـد مـال الـغـبـيـط بـنـا معًـا
عـقـرت بـعـيـري يـا امـرأ الـقـيـس فانزل[5]
فـقـلـت لـهـا: سـيـري وأرخـــي زمـامـه
ولا تـبـعـديـنـي عـن جـنـاك المعلل[6]
دعـي الـبـكـر لا تـرئـي لـه مـن ردافـنـا
وهـاتـي أذيـقـيـنـا جـنـاة القرنفل[7]
بـثـغـرٍ كـمـثـل الأقـحـوان مـنـورٍ
نـقـي الـثـنـايـا أشـنـبٍ غـيـر أثـعل[8]

(1) حل بالمكان حلاًّ: نزل، وهو نقيض الارتحال. المتبذل: الذي يلي العمل بنفسه.
(2) يرتمين: يناول بعضهن بعضًا. والدمقس: القز الأبيض، وقيل الكتَّان. المفتل: المفتول. شبه به بياض الشحم. الهداب والهدب: اسم لما استرسل من طرف الثوب الذي لم يستقم نسجه.
(3) تدار علينا: تدور علينا، نتناولها مداورة. والسديف: لحم السنام. والصحاف جمع صحفة، وهي القصعة يوضع فيها الطعام، والعبيط من اللحم: ما كان سليمًا من الآفات. والمثمل: المصلح.
(4) الخدر: الهودج. لك الويلات تدعو عليه. مرجلي: كرهت أن تعقر البعير وعنيزة، لقبها واسمها فاطمة
(5) عقرت بعيري: أدبرت ظهره. والغبيط: مركب من مراكب النساء فيه ارتفاع.
(6) المعلل: يعني المقبل. شبهها بجني علل بالطيب مرّة بعد مرة وجعل مايصيب من حلاوة حديثها بمنزلة ما يصيب الجاني من الثمر. والمعلل بالكسر الملهي.
(7) في نسخة أخرى: أذيقيني لذيذ المقبل. الرداف: الموضح يركبه الرديف، ردفت الرجل: ركبت خلفه. جناة القرنفل: لذيذ المقبل.
(8) في بعض النسخ: (بثغر كأمثال الأقاح ونوره). الشنب: عذوبة الأسنان ورقتها. الثعل: تناسق الأسنان بعضها فوق بعض. يصف جمال ثغرها.

فمثلك حبلى قد طرقتُ ومرضع

فألهيتها عن ذي تمائم محوِل[1]

إذا ما بكى من خلفها انصرفتْ له

بِشقٍّ وتحتي شقُّها لم يحوَّلِ[2]

ويومًا على ظهر الكثيب تعذَّرتْ

عليَّ وآلتْ حِلْفةً لم تحَلَّلِ[3]

أفَاطِم مهلًا بعد هذا التدللِ

وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرمي فأجملي[4]

أغرَّكِ مني أن حبَّكِ قاتلي

وأنكِ مهما تأمري القلبَ يفعل[5]

وأنكِ قَسَّمْتِ الفؤاد فنصفه

قتيلٌ ونصفٌ في حديدٍ مكبل[6]

فإن تكُ قد ساءتك مني خليقةٌ

فسلّي ثيابي من ثيابك تنسلي[7]

وما ذرفتْ عيناك إلا لتضربي

بسهميكِ في أعشارِ قلبٍ مقتل[8]

---

(1) المحول: الولد الذي يغشى أبوه أمه وهي ترضعه فتحمل وترضعه من لبن أخيه. والتمائم جمع تميمة وهي الهياكل التي تعلق في رأس الصبي الصغير.

(2) اعتراف منه أنه ارتكب الفاحشة معها.

(3) الكثيب: الرمل المجتمع المرتفع على غيره، وآلت: من آلى إيلاء وألية محل أقسمت. لكنها لم تستثن.

(4) مهلًا: رفقًا، التدلل: أن يثق الإنسان بحب غيره إياه فيؤذيه على حسب ثقته فيه. بعض هذا التدلل: كفي عني بعض تدللك وأقلي منه. أجملي: أحسني في الهجران، أو أجملي في اللفظ، أفاطم: ترخيم.

(5) أغرك مني: الاستفهام للتقرير، قد غرك مني كون حبك قاتلي لشدته.

(6) في بعض النسخ: في الحديد مكبل، الفؤاد: القلب، مكبل: مقيد.

(7) خليقة: صفة أو عادة، تنسل: تسقط، نسل الطائر ريشه إذا سقط، ذرفت: دمعت . مقتل: منقاد مذلل.

(8) ذرفت: دمعت. مقتل: منقاد، مذلل.

وبـيـضـةَ خـــدرٍ لا يـــرامُ خـبـاؤهـا
تمـتـعـت مـن لـهـوٍ بـهـا غـيـر معجل[1]
تجـــاوزتُ أحـــراسًـــا إلـيـهـا ومـعـشـرًا
عـلـيَّ حـراصًـا لـو يُـسـرُّون مَقْتلي[2]
إذا مـا الـثـريـا فـي الـسـمـاء تـعـرضـتْ
تـعـرَّضَ أثـنـاء الـوشـاح المفصل[3]
فـجـئـتُ وقـد نَـضَـتْ لـنـومٍ ثـيـابـهـا
لـدى الـسـتـرِ إلا لـبـسـةَ المتفضل[4]
فـقـالـت يمـيـنَ الـلـه مـا لـك حـيـلـةٌ
ومـا إن أرى عـنـك الـغـوايـةَ تنجلي[5]
خـرجـتُ بـهـا أمـشـي تجـرُّ وراءنـا
عـلـى أثـرينـا ذيـلَ مـرطٍ مرجل[6]
فـلـمـا أجـزنـا سـاحـةَ الـحـيِّ وانْـتـحـى
بـنـا بـطـنُ خـبْـتٍ ذي قـفـافٍ عقَنْقَل[7]

---

(1)في النسخ الأخرى: أراد: رب بيضة، يشبهها بالبيضة من النعام لصفائها ولينها. الرّوم: الطلب.

(2)الأحراس: جمع حارس أو حرس. معشرًا: يريد قومها. وحراصًا: جمع حريص فهو يقول: هم حراص على قتلي جهارًا لينزجر ويرتدع غيري، أو هم حراص على قتلي خفية لأنهم لايجترئون على قتلي جهارًا.

(3)يريد بالثريا الجوزاء وله معنى آخر: إذا ما الثريا اعترض يقال إنها تتعرض آخر الليل. ويقال إذا طلعت طلعت على استقامة، فإذا استقلت: تعرضت، وهكذا الوشاح يعترض آخر الكشح. والمفصل: الذي فصل بالشذر والذي جعل فيه بين كل خرزتين لؤلؤة.

(4)نضت: خلعت، ورجل فضل: متفضل في ثوب واحد. والمتفضل: لبس المنزل: كالقميص والأزرار، وما يلبس عند النوم.

(5)ما لك حيلة: ما لك من عمل تعمله. وفي النسخ الأخرى:

فـقـمـت بـهـا أمـشـي تجـرُّوراءنـا
عـلـى إثـرنـا أذيـــال مـــرطٍ مـرحَّـل

(6) المرجل: الذي يكون فيه صور الرجال من الوسي. والمرط: ثوب خز معلم. أما مرحّل: أي مخطط على هيئة الرّحل.

(7) أجزنا: قطعنا. والساحة: فناء الدار. والحي: القبيلة. وانتحى: اعترض. والخبت: بطن من الأرض غامض. وقيل أرض مطمئنة. والقفاف: جمع قف وهو ما غلظ وارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلًا. العقنقل: المنعقد الداخل بعضه فوق بعض.

هـصـرتُ بـفـوْدَي رأسـهـا فـتـمـايـلـتْ

عـلـيَّ هـضـيـم الـكـشـحِ ريَّـا الـمُخلخل[1]

مُـهـفـهـفـةً بـيـضـاءَ غـيـرُ مـفـاضـةٍ

تـرائـبـهـا مـصـقـولـةٌ كالسجنجل[2]

تَـصُـدُّ وتـبـدي عـن أسـيـلٍ وتـتَّـقـي

بـنـاظـرة مـن وحـش وجـرة مُطْفِلِ[3]

وجـيـدٍ كـجـيـد الـريم لـيـسَ بـفـاحـشٍ

إذا هـي نـصَّـتْـه ولا بمعطَّل[4]

وفـرعٍ يـزيـن المـتن أسـودَ فـاحـمٍ

أثـيـثٍ كـقـنـو الـنـخـلـةِ الـمُتعثكل[5]

غـدائـرهُ مُـسـتـشـزراتٌ إلـى الـعُـلا

تـضـلُّ الـعـقـاص فـي مـثـنًى ومرسل[6]

---

(1) الهصر: الحذب والثني. الفودان جانبا الرأس. تمايلت أصغت إلي رأسها أي أمالته. وهضيم الكشح: ضامر الكشح داخلته. والكشح: ما بين منقطع الأضلاع إلى الورك. والرّي: انتهاء شرب العطشان ومنه قيل لكل ممتلئ من شحم ولحم. ريّان، وريّا تأنيث الرّيان، والمخلخل: موضع الخلخال من الساق، والمسور: موضع السوار في الذراع.

(2) المهفهفة: اللطيفة الخصر، الضامرة البطن. المفاضة: المسترخية البطن. والترائب: جمع تريبة، وهو موضع القلادة من الصدر. والسجنجل: سجاجل. ومصقولة: أي مجلوَّة.

(3) الصَّدُّ والصُّدود: الإعراض، والإبْداء: الإظهار. «وتصدُّ وتبدي» أي تعرض عنا وتبدي عن خد أصيل، والأسالة في الخد: الاستطالة وألاّ يكون مرتفع الوجنة. «وتتَّقي بناظرة» أي تلقانا بعينها، والاتقاء: الحجز بين الشيئين. وجرة: موضع. ومطفل: ذات طفل. وأراد بوحش وجرة: الظباء.

(4) الجيد: العنق. الريم: الظبي الأبيض الخالص البياض، والجمع: آرام. ليس بفاحش: أي ليس بكريه المنظر. نصَّته: رفعته. والمعطّل: الذي لاحلي عليه.

(5) الفرع: الشعر التام، الجمع: فروع، والمتن والمتنة: لغتان، يذكر ويؤنث: لحمتان معصوبتان بينهما صلب الظهر. الفاحم: الشديد السواد، من الفحم. وأثيث كثير أصل النبات، والأثاثة: الكثرة. والقِنوُ والقُنْو والقنا: العذق بما فيه من الرُّطب. والمتعثكل: الذي دخل بعضه في بعض لكثرته.

(6) الغدائر: الذوائب. ومستشزرات: مرفوعات – وأصل الشَّزر: الفتل على غير جهة لكثرتها. والعقاص: جمع عقيصة، وهو ما جمع من الشعر، فالذي فتل بعضه على بعض هو المثنى. والمرسل: المسرح غير مفتول.

وكشحٍ لطيفٍ كالجديلِ مُخصَّرٍ
وساقٍ كأنبوبِ السقِيّ المُذلَّلِ[1]
ويُضْحِي فتيتُ المسك فوق فراشها
نؤوم الضُّحى لم تنْتَطقْ عن تفضُّلِ[2]
وتعْطو برخْصٍ غير شَثْني كأنَّه
أساريعُ ظبي أو مساويكُ إسْحِلِ[3]
تضيء الظلام بالعشاء كأنَّها
منارةُ ممسَى راهبٍ متبتِّلِ[4]
إلى مثلها يرنُو الحليمُ صبابةً
إذا ما اسْبكرَّت بين درعٍ ومجْوَلِ[5]
كبكر المُقاناة البياض بصُفرةٍ
غذاها نميرُ الماء غير مُحلَّلِ[6]

(1) الكشح: الخصر. واللطيف: الصغير الضامر. والجديل: الزمام يتخذ من السيور فيجيئ حسنًا لينًا يتثنى. والخصر: الدقيق الوسط. والأنبوب البرديّ، الكعب من القصب. والسقي: والنخل المسقي. والمذلّل: الذي سقي وذلّل بالماء.

(2) فتيت المسك: ما تفتّتَ منه. ويضحي فتيت المسك: أي يبقى إلى الضحى. نؤوم الضحى: أي لها ما يكفيها من الخدم، فهي تنام ولا تهتمّ بشيء. الانتطاق: الائتزار للعمل، والتفضل: لبس الفضلة، وهي ثوب واحد يلبس للخفة في العمل.

(3) وتعطو: وتتناول. برخص: أي ببنان رخص، وهو اللين الناعم. الشثن: الغليظ الكز. الأساريع: جمع أُسروع ويُسروع، وهي دواب تكون في الرَّمل، أو في الحشيش، ظهورها مُلس، تُشبَّه أنامل النساء بها. وظبي: اسم كثيب، والكثيب: جبيل من الرَّمل، وقيل هو موضع بعينه. والمساويك: جمع مسواك. والإسحل: شجرٌ له غصونٌ ناعمة دقيقة يُسْتاكُ بها ويتَّخذُ منها الرِّحال.

(4) المتبتِّل: المنقطع عن الناس، المشغول بعبادة الله. ومنه قيل مريم البتول لانقطاعها عن الرجال واختصاصها بطاعة الله. والمنارة: مفْعلة من النور، وهي المسرجة، والجمع مناور ومنائر. وقد خصَّ الراهب لأنَّه لا يُطفئ سراجه.

(5) يرنو: يديم النظر. الصِّبابة: رقة الشوق. اسبكرّت: امتدَّت ومترّت. الدرع: قميص المراة الكبيرة. والمجول: قميص الجارية الصغيرة أو هو دريع خفيف تجولُ فيه الصبيَّة. وقوله (بين درع ومجول) معناه: ان سنها بين سنِّ التي تلبس الدرع وبين سن من تلبس المجول. أي أنها لم تدرك الحلم، وقد ارتفعت عن البنات الصغار.

(6) البكر من كلِّ صنف: ما لم يسبقه، والبكر ههنا: أوّل بيض النعام. والمقاناة: المخالطة التي خلط بياضها بصفرة. النّمير: الماء النامي في الجسد. وغير محلَّل أي: لم يحلل عليه فيكدر.

تسلَّت عمـايـاتُ الـرِّجـال عـن الصِّبـا

ولـيـس فـؤادي عـن هـواك بِمُنْسَلي[1]

من الأبيات الطويلة السابقة من معلقة امرئ القيس يتضح لنا هذا الوصف الفاضح للمرأة وذلك جلي في الأبيات الخمسة الآتية فعندما يقول:

فمثلك حُبلى قد طرقتُ ومرضعٍ

فألهيتُها عن ذي تمائمَ محولِ

إذا ما بكى من خلفها انصرفتْ لهُ

بشقٍّ وتحتي شقُّها لم يحوَّلِ

نرى مدى جرأة الشاعر في دخوله خدر عنيزة ومطارحتها حديث الغرام والهيام، وكيف أنه محبوب لدى النساء، حتى الحبلى والمرضع (ذي تمائم محول) هنا كناية عن موصوف الطفل، وهما أكثر النساء زهدًا في الرجال، لانشغال الأولى بأمور الحمل وما يجره من متاعب، وانشغال الثانية بطفلها وإرضاعه، وقضاء حوائجه ومداومة مرافقته، حيث إن مثل هذه المرأة المشغولة عن الرجال مالت إليه وتركت ولدها الذي هو قطعة منها، فكيف إذا لا يميل إليه غيرها من النساء الأبكار، وأيضًا وصف فاضح لما يتم بين الرجل والمرأة.

أما قوله:

أغـرَّكِ مـنّـي أنَّ حُـبَّـكِ قـاتـلـي

وقوله:

وأنَّـكِ قـسـمـتِ الـفـؤاد فـنـصـفـهُ

(1)سلاه وسلا عنه وسليه سلوًا سلّوا وسُلُوًّا وسليًا وسلوانًا: نسيه. وانسلى الهمُّ عني وسلّى: انكشف. والعمايات جمع عماية، وهي الجهالة. والصِّبا: أن يفعل فعل الصبيان، وقيل اللّعب. ومنسلي: منفعل من السُّلوِّ.

وقوله:

فـــإنْ تَـــكُ قـد سَـــاءتـــكِ مـنِّـــي خـلـيـقـةٌ

فكلام الشاعر هنا مقبول ولا يعد من الغزل الصريح؛ لأنه شكا حبه وأن فؤاده بيد من يحب تفعل به ما تشاء.

أما قوله:

وبـيـضـة خـــدرٍ لا يـــرام خـبـاؤهـا
تمـتـعـت مـن لـهـو بـهـا غـيـر مُـعـجـلِ
تجـــاوزتُ أحـــراسًـــا إلـيـهـا ومـعـشـرًا
عـلـي حـــراصًـــا لـــو يـــسـرون مـقـتـلـي

في هذه الأبيات كرر الشاعر جرأته في الوصول لنساء القبيلة المحصنات في خدورهن مُظهرًا أن من كان يذهب في طلبهن لم تكن نساء عاديات بل كنَّ ذوات حسب وجاه بدليل الحراس المنتشرين حول خدورهن ورغم ذلك يجازف ويغامر بحياته ليصل إلى من شغفته حبًّا، ولم تكن مكابدته للمخاطر ليكتفي بنظرة من محبوبته بل كانت تلك المخاطرة للمتعة الجسدية فقط وهذا دليل على أنه لم يحب هذه الجارية بل أراد أن يلهو بها ويلبي رغباته الجسدية.

أما قوله:

فـجـئـت وقـــد نـضـت لـنـوم ثـيـابـهـا

إلى أن يقول:

هـصـرت بـفـودي رأسـهـا فـتـمـايـلـت

ففيه جرأة لا تضاهى وغزل فاضح مكشوف. كما اشتملت الأبيات على وصف جمال ومحاسن محبوبته فيقول: إن خصرها لطيف وبطنها ضامرة غير كثيرة اللحم فيها وعندما تحرك رأسها تكشف عن رقبة مصقولة لونها جميل، وشكلها لطيف.

فيشبه لونها بلون بيض النعام من حيث إن كلا منهما مشترك ببياض خالطته صفرة، ومن ذلك قول الشاعر كأنها قنينة قد مسها الذهب وهو دليل على أنه أحسن الألـوان عند العرب، ويستطرد امـرؤ القيس في وصـف المحاسن فيشبه عينها بعيون الظباء، وجعل الظباء مطفلة أي التي لها أطفال؛ لأن نظرة الظباء إلى أولادها يخالطها الحب، والعطف، كما شبه جيدها بجيد الظبي بعد هذا الوصف ينتقل إلى حياتها وأنها تعيش حياة ترف وغنى ويتضح ذلك من قوله (نؤوم الضحى) هنا كناية عن صفة الترف والتنعم، أي لاتصحو مبكرة وإن كنت أرى أن هذا ليس مما تمدح به المرأة بل تعاب عليه فالأفضل للمرأة مهما تكن غنية أن تباشر أعمالها بنفسها، وإلا ما الغرض من وجودها إن لم يكن لها دور في الحياة فتصويرها هنا في هذا البيت كالتمثال الجميل الذي وضع ليستمتع بالنظر إليه فقط.

وكل الصور التي صورها امـرؤ القيس للمرأة صور لنساء فائقات الجمال فكل صاحباته فائقات الجمال، ورغم جمالهن الفتاك النادر يصورهن معشوقات له، وكلهن يتمنين نظرة منه ويصور نفسه محبوبا لدى الجنس الناعم، وليس كل النواعم بل الفاتنات منهن وهذا أمر يدعو إلى الريبة والشك، مع ما يذكر من قبح منظره الذي ينفر النساء وقد صور النساء بصورة لا تليق بالمرأة العربية المحافظة والتي كانت تتبرقع عندما تصل سن البلوغ، ولا ننكر أن الاختلاط كان موجودًا في الجاهلية عند العرب فكان الفتيان والفتيات يرون بعضهم بعضًا في أماكن الرعي، ولكن رغم هذا الاختلاط لم تكن مبتذلة كما يصورها امرؤ القيس، ولوكان قد أحب واحدة منهن لما تغزل بهن في أشعاره هذا الغزل الماجن الصريح.

والحرائر من العرب بعيدات كل البعد عما وصفه امرؤ القيس، «ويروى أن الرسول ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال، بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة وكانت متنكرة خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها لما صنعت بحمزة، بايعهن على أن لا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن، ولما قال النبي ولا يزنين قالت هند: وهل تزني الحرة»[1] ونلاحظ أن امرأ القيس قد وظَّف وسائل البيان

(1) البخاري، حديث رقم 5288، مسلم، حديث رقم 1866.

من تشبيه، واستعارة، وكناية، في وصف محبوبته لما لهذه الألوان البيانية من أثر في توصيل المعنى للسامع.

وقال امرؤ القيس ينسب بـ «سلمى»:

ألا عم صباحًا أيها الطَّلَلُ البالي

وهل يعِمنْ من كان في العُصُرِ الخالي[1]

وهل يَعِمَنْ إلا سعيدٌ مخلَّدٌ

قليل الهُموم مايبيت بأوْجال[2]

ِ وهلْ يعِمَنْ من كان أحدثُ عهده

ثلاثين شهرا في ثلاثة أحوال[3]

ديار لسلمى عافياتٌ بذي خالِ

ألحَّ عليها كُلُّ أسحم هطّال[4]

وتحسب سلمى لا تزال ترى طلاً

من الوحش أو بيضاً بميثاء محْلال[5]

وتحسب سلمى لاتزال كعهدنا

بوادي الخزَامى أو على رسّ أوعال[6]

ليالِيَ سُلَيمى إذ تريك منصَّباً

وجيدًا كجيد الرِّئم ليس بمعطال[7]

---

(1)ديوان امرئ القيس ص 299 – 333. عمّ صباحًا: أنعم صباحًا. والطلل: المراد به أهله.

(2)الأوجال: الواحد وجل: الخوف.

(3)فأحدث عهده: أي أقرب عهده بالنعيم.

(4)ذو خال: موضع. الأسحم: السحاب السود. عافيات: دارسات.

(5)الطلا: ولد الظبية. الميثاء: الأرض السهلة. المحلال: التي يكثر الناس النزول فيها.

(6)وادي الخزامى ورس أوعال: موضعان. والخزامى: نبت طيب الرائحة، نسب إليه الوادي لكثرته فيه. والرس: البئر القديمة. أوعال، الواحد وعل، وربما نسبت هذه البئر إلى تيوس الجبل لشربها من مائها.

(7)منصبًّا: أي ثغرًا مستويًا متسقًا. الرِّئم: الظبي الأبيض. المعطال: غير المحلى بالحلي.

ألا زعمتْ بَسْبَاسَةُ اليوم أنني
كبرت وأنْ لا يحسنُ اللهو ، أمثالي[1]
كذبتِ لقد أُصْبي على المَرْءِ عِرْسَهُ
وَأَمْنَعُ عِرْسِي أنْ يُزَنَّ بها خالي[2]
ويا رُبَّ يومٍ قد لهوتُ وليلةٍ
بآنسة، كأنها خطُّ تِمثال[3]
يضيئ الفراشَ وجهُها لضجيعها
كمصباح زيتٍ في قناديلُ ذبَّالِ[4]
كأن على لباتها جمرُ مصطل
أصاب غضا جزلا وكف بأجزال[5]
وهبّت له ريحٌ بمختلف الصُّوا
صباً وشمال في منازل قفَّالِ[6]
ومثلِك بيضاء العوارضِ طفْلةٍ
لعوبٍ تنسيني، إذا قمتُ، سربالي[7]
إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها
تميل عليه هوْنة غير مِجبال[8]

---

(1) بسباسة: اسم امراة.
(2) أصبي: أميل. يزن: يتهم. الخالي: الذي لا زوجة له. العرس: الزوجة.
(3) آنسة: المرأة يؤنس إلى حديثها وقربها وحسنه. خط تمثال: أي نقش تمثال.
(4) الذبال، الواحدة ذبالة: الفتيلة.
(5) لباتها: الواحدة لبة: أعلى الصدر. الغضا: شجر خشبة من أصلب الخشب وجمره يبقى زمنًا طويلًا لا ينطفئ. الجزل: الغليظ، والكثير. كف: جعل له كفاف، أي أحيط بحطب من سول الشجر.
(6) الصوا: الواحدة صوة: حجر يكون علامة في الطريق. القفال: الراجعون من الأسفار. الصبا: ريح شرقية ناعمة.
(7) العوارض، الواحدة عارضة: صفحة الخد. الطفلة: الرخصة الناعمة. سربالي: قميصي.
(8) الهونة: اللينة الضعيفة. المجبال: الغليظة الخلق. ابتزها: انتزعها.

كحقف النّقا يمشي الوليدانِ فوقه
بما احتسبا من لين مسٍ وتسْهالِ[1]
لطيفة طي الكشح غيرُ مفاضةٍ
إذا انفتلت مرتجَّةٍ غير مثقالِ[2]
تنورتها من أذرعات وأهلها
بيثرب أدنى دارها نظر عالِ[3]
نظرت إليها والنُّجومُ كأنَّها
مصابيح رهبان تُشبُّ لقفّالِ[4]
سموت إليها بعدما نام أهلها
سموَّ حباب الماء حالًا على حالِ[5]
فقالت سباك الله إنك فاضحي
ألست ترى السُّمارَ والنَّاس أحوالي[6]
فقلت: يمين الله أبرح قاعدًا،
ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي[7]
فلمّا تنازعنا الحديثَ وأسْمحت
هصرتُ بغصنٍ ذي شماريخ ميَّالِ[8]
وصرنا إلى الحسنى ورقَّ كلامنا
ورُضت فذلَّتْ صعْبةً أيّ إذْلالِ[9]

(1) يشبه ردفها بالحقف: وهو ما اعوج واستطال من الرمل. النقا: القطعة من الرمل. التسهال: السهولة.
(2) الكشح: منقطع الأضلاع، الخصر. المفاضة: العظيمة البطن. المسترخية اللحم.
(3) أذرعات: موضع في الشام وهو مدينة درعا حاليًا. يثرب: المدينة المنورة.
(4) شب النار والمصباح: أوقده، أشعله. القفال: العائدون.
(5) سموت إليها: نهضت إليها شيئًا بعد شيء لئلا يشعر بمكاني – حال بعد حال: شيئا بعد شيء.
(6) سباك: باعدك وفضحك.
(7) أبرح قاعدًا: أي لا أبرح قاعدًا. وحذف لا بعد القسم كثير في كلامهم.
(8) هصر: جذب إليه، أمال. الشماريخ، الواحد شمروخ: غصن دقيق ينبت في أعلى الغصن الغليظ.
(9) رُضتُ: أي أنَّه روَّضها، ذلل صعبها.

فأصبحت معشوقًا، وأصبح بعلها

عليه القَتَامُ سيئَ الظن والبال[1]

هنا يبدأ الشاعر بذكر العنصر الأساسي للقصيدة عند الشعراء وهو الوقوف على الأطلال، وإلقاء التحية عليها والدعاء لها بالنعيم، ولايكاد يلقي عليها التحية حتى يبادرها بالسؤال: كيف يمكن لمن تغيرت به الحال وذهب عنه الأهل أن ينعم بالهناءة؟ وهل يمكن أن يحظى بالنعيم إلا من حالفه الحظ وقلَّت همومه وكان ليله صافيًا بدون مخاوف؟ وكيف يكون يسعد من لم ينعم إلا ثلاثين شهرًا في ثلاثة أعوام؟ وهكذا ينتقل الشاعرمن ذكر الديار وما آلت إليه، إلى الحديث عن مصير الشاعر العاشق في وحدته وحرمانه من الحب، وعن مغامراته الليلية، وهذه المرة مع امرأة اسمها سلمى. وليالي الحب الجميلة معها فيشير إلى جيدها الجميل بدون أن تزينه بالحلي، وأن ما عهدته هذه الحبيبة لم يبق منه شيء، ثم ذكر بعد ذلك أن بسباسة زعمت أنه قد كبر وتحول من القوة إلى الضعف، وأنه صار شيخًا كبيرًا لا يحسن مغازلة الفتيات، فيرد غاضبًا عليها بأنها كذبت وأنه قادر على أن يستحوذ على ما في يد غيره، مهما كانت درجة امتناعه، وليس هناك في الشيء الممنوع أعظم من قلب المرأة الحرة المتزوجة، فيزعم أنه قد ينال هذه الحرة ويأخذها من بعلها، ثم يذكر بعد ذلك لهوه بأكرم النساء وأنبلهن وأرفعهن منزلة، وأنها ذات خد ناعم أبيض، وأن هذه الجميلة اللعوب تفقده عقله فينسى قميصه، وهي التي تسلل إليها بعد ما نام أهلها، ويوغل الشاعر في التلميحات التي تشير إلى ما يكون بين الرجل والمرأة من مثل قوله «صرنا إلى الحسنى» كناية لطيفة، وأعتقد أن الشاعر هنا قد أغضبه قول بسباسة من أنه كبر وأنه لا يستطيع أن يلهو مع الجميلا ت، وانطلاقًا من هذا أراد أن ينتقم لنفسه ويؤكد أنه يقتحم على القوم بيوتهم فينال من نسائهم الحرائر ما يريد، ويصرِّح بما لا يُصرَّح به وبما تعف الأنفس أن تشرحه.

---

(1) القتام: الغبار.

وبإمعان النظر إلى كثرة معشوقات امرئ القيس، يُرجَّحُ أن امرأ القيس لم يكن عاشقًا محببًا إلى النساء، بل كان بغيضًا إليهن، لا تكاد امرأة تصبر معه. ومن الممكن تعليل شيوع الوصف الجسدي الصريح وكثرة النساء في شعره بأن الشاعر لم يكن يتعامل مع الحرائر، فلم يعرفهن معرفة أكيدة، لأن تعامله مع المراة البغي هو التعامل الشائع في شعره بسبب حياته المتنقلة، وما إسرافه في تصوير شهوات الجسد إلا تعبير غير مباشر عن ضعف الرجولة عند الشاعر، وأن المبالغة في مسألة المرأة ما هي إلا تعويض عن هذا النقص الكبير الذي يحس به الشاعر، وهو يكذب ليغطي هذا النقص أمام الآخرين، كما يظهر لنا فإن امرأ القيس شاعر وجدان، وقد جعله النقاد في صفوف المتقدمين على معاصريه من شعراء الجاهلية، وحجتهم لذلك بأنه أول من وقف على الأطلال، وأول من شبه النساء بالغزلان، وكان امرؤ القيس واسع الخيال لتقلبه في النعيم ولكثرة أسفاره في البادية والحضر.

وورد عن النبي ﷺ في سياق الذم قوله عندما ذكر امرأَ القيس «ذاك أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار»[1] يعني شعراء الجاهلية والمشركين، ولا يقود قومًا إلا أميرهم.

وقد قال العلماء بالشعر أن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها؛ لأنه قيل أول من لطف المعاني واستوقف على الطلول من وصف النساء.

طرفة بن العبد

هو طَرَفة بن العبد بن سفيان بن سعد، ولد طرفة في البحرين في أسرة كريمة الأصل، وافرة الثراء، وتوفي أبوه وخلفه صغيرا في رعاية أمه[2] وردة وعانى في صغره من ظلم أعمامه ولم يحسن أعمامه تربيته ورعايته وأنكروا حقه، فأنطقه الظلم بالشعر وطفق يهدد أعمامه، ويعيبهم لأنهم استضعفوا أمه وردة وهضموا

(1) صحيح البخاري، الجزء الرابع، ص 50، كتاب الأدب (باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر).
(2) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، 1282.

حقها، فانغمس في اللهو والسكر وتبديد المال، سفها وجهالة، وهو شاعر بالفطرة والوراثة، فخاله المتلمس شاعر ومن عمومته ثلاثة شعراء مشهورون هم المرقش الأكبر والمرقش الأصغر وعمرو بن قميئة رفيق امرئ القيس وقتله عمرو بن هند على يد واليه في البحرين، عن عمر يناهز ستا وعشرين سنة كما تقول أخته الخرنق والتي رثته في بيتين:

عـددنـا لـه سـتًّـا وعـشـريـن حِـجـةً

فلما تـوفّـاهـا اسـتـوى سَـيِّـدًا ضخما

فـجـعـنَـا بـه لمـا رجـونـا إيـابـهُ

على خير حـالٍ، لا ولـيـدًا ولا قحما[1]

شغلت المرأة بال الشاعر، طرفة – كما شغلت بال الشاعر الجاهلي، لما للمرأة من مكانة كبيرة في مجتمعهم، مكانة شغلت هؤلاء، ففتنوا بها، وتفننوا في وصفها وملكت عليهم جوارحهم، ووسط هذا السيل يقف طرفة يجول بعينه في أرجاء قبيلته، والقبائل المجاورة، وهو الشاب المدلل، الذي يفيض شبابًا وعاطفة، ويغتنم من عمره كل ما سنح له من الوقت لقضائه في المتعة واللذة، وحبيبة طرفة لها صفات مختلفة، فهو يجعلها ظبيًا أحوى من كحل العينين وسمرة الشفتين، ووجهها وجه مشرق، كأن الشمس كسته ضياءها وجمالها، فوجهها نقي اللون، كامل الضياء والنقاء والنضارة[2] يقول:

وفـي الحـيِّ أحـوى ينـفض المـردَ شـادنٌ

مـظـاهـر سـمـطـى لـؤلـؤٍ وزبـرجـدٍ

---

(1) من كتاب بحوث تطبيقية في الأدب العربي، د. مختار عطية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، ص 17.

(2)ديوان طرفة بن العبد، شرح يوسف الأعلم، طبعة فرنسا 1900. من كتاب بحوث تطبيقية في الأدب العربي، ص 93.

خـــذول تـــراعـــي ربـــربًـــا بـخـمـيـلـةٍ

تـنـاول أطـــراف الـبـريـر وتـــرتـــدِي[1]

وتـبـســم عـــن ألمـــى كـــأن مـــنـــوَّرًا

تـخـلـل حُـــرَّ الـرَّمـل ودعـــصٌ لـه نـــدِ[2]

سـقـتـه إيـــــاةُ الـشـمـس إلا لـثـاتـه

أُسِـــــفَّ ولـــم تـكـدم عـلـيـه بإثمدِ[3]

ووجـــه كـــأنَّ الـشَّـمـس ألـقـت رداءهـــا

عـلـيـه نـقـيُّ الـلـون لـم يتخدَّد[4]

وطرفة رجل جمع حوله كثيرا من النساء حتى إنه يفتخر بذلك في بعض شعره، ويخاطب المحبوبة بأن تعطف عليه، ولاتنصرم عنه، تاركة إياه دون حبيب أو أنيس، فكفى ما فعل بنا الزمن من فراق، ولا عجب إلا لسؤال جارتي هل لنا أهل؟ وأنا لست مستقرًا في مكان، بل إني أتمنى أن أسكن حر دارك، فلا راحة في الغربة، لأنها كالموت ينتاب النفوس على حين غفلة، وأين تلك الأيام الخالية التي كنت إذا مرضت يوما وجدت حولي رجالًا قليلًا ونساء كثيرًا (من حيي ومالك) ونلاحظ أن روي القصيدة هو الكاف ولكن الشاعر التزم حرف اللام قبل الكاف وهذا من لزوم ما لا يلزم الذي اشتهر به المعري فيما بعد. وقد قال:

---

(1)الخذول: المتخلفة عن الظباء مع ولدها – البرير ثمر الأراك – لربرب: جماعة البقر الوحشية. الخميلة : الأرض اللينة ذات سحر.

(2)يروى ظاهره – الألمى: في شفته سواد. تخلل: توسط ودخل فيه. حر الرمل: النقي منه. الدعص: الكثيب الصغير من الرمل. يقول تبسم الحبيبة عن ثغر ألمي الشفتين ندي كأنه أقحوان خرج نوره في كثيب من الرمل. الإياة: ضوء الشمس.

(3)الإثمد: الكحل. أسف: أي ذرَّ عليه بإثمد. لم تكدم: أي لم تعض فتختلف نبتته وأصوله. رداءها: جمالها.

(4)لم يتخدَّد: لم يضطرب. وقوله: حلت رداءها عليه: خلعته وألبسته إياه.

قـفـي ودَّعـيـنـا الـيـوم يـا ابـنـة مـالـكِ
وعُـوجـي عـلـيـنـا مـن صـدور جـمـالـكِ
قـفـي لا يـكـن هـذا تـعـلَّـة وصـلـنـا
لـبـيـنٍ ولا ذا حـظُّـنـا مـن نَـوَالِـكِ
أخـبـرك أن الحـي فـرَّق بـيـنـهـم
نـوى غـربـةٍ ضـرارةٍ لـي كـذلـك
ولا غَـرْوَ إلا جـارتـي وسـؤالـهـا
ألا هـل لـنـا أهـلٌ؟ سُـئِـلْـتِ كـذلـكِ
تـعـيـر سـيـري فـي الـبـلاد ورحـلـتـي
ألا رب لـي دارًا سـوى حـرِّ دارك
ولـيـس امـرؤٌ أفـنـى الـشـبـاب مـجـاورًا
سـوى حـيِّـه إلا كـآخـرِ هـالـكِ
ألا ربَّ يـومٍ لـو سـقِـمـتُ لـعـادنـي
نـسـاءٌ كـرامٌ مـن حـيـيٍ ومـالـكِ

وها هو طرفة في رائعة من روائعه يشبب بمحبوبته وهو أصدق تمثيلًا لنظراته في المرأة وتغزله بها وحرصه عليها، وهو قسم طويل، يعد ملحمة غزلية يقف في بدايتها بالأطلال ثم يتغنى باسمها ويتلذذ بذلك «هر» والقصيدة ترسم لنا صورًا فنية رائعة إلى جانب أنها تعكس مشاعر طرفة، وكغيره من شعراء الجاهلية أحس بجمال النساء في قومه وكثيرًا ما روى حكاياته مع الأخريات لندمائه وأصحابه، وكان طرفة عاشقًا ذواقًا له صفات ينبغي أن تتوفر في فتاة أحلامه، التي يستقر عليها على الرّغم من أنَّه لا يحب الاستقرار، ويصف حاله، ويأسف على هذه الحال

التي وصل إليها، فقد تمكن حب حبيبته من نفسه حتى صار كالمرض القاتل، إلاّ أن جمالها الفتاك يثيره، فيعود فيتغزل في هذه الأعين التي تشبه أعين البقر الوحشي في سعتها وشعرها الغزير الملتف الممتد فوق ظهرها، وهي تجول بين الزهور بكشح يشبه كشح المها التي تتسم بالحنان، وهي صغيرة سن، تتخلف عن ركبها، فترعى صغيرها وهي شديدة الحياء، مفرطة الرقة، إذا رفعت طرفها حسبت ذلك أمرًا شديدًا عليها، وشبابها مكتمل لانقص فيه، وهي متعة على كل حال، يستمتع بها حيث شاء، يلثم ثغرها، ولا يستطيع الزهد عن هذا.

ولكنها مع هذا ليست سهلة المنال، فإذا ناولته مرّة ما يطلب منعته مرّة أخرى وهو يريد منها وصلًا دائمًا غير منقطع وهي عندما تمنعه ما يريد يشعر وكأنه، من شدة نصبه يظلم نهاره، في حيرة أمام أمرها حين تبعد عنه وتنأى.

ويطيل في وصف محبوبته بأنها ممتلئة الجسد، ولها أسنان كالفقاقيع البيضاء التي تطفو على سطح الماء العذب وهوالرضاب، وهو ليس كأي رضاب، إنما هو رضاب مسك ممزوج بالماء البارد، الذي ينساب من ربوة مرتفعة إلى واد يتشكل من حجارة مستوية ملساء فيستقر عليها ويصفها بأنها ليست كباقي النساء فهي من نسوة منعمات ذوات حياة مرفهة، يقوم على خدمتهن من يكفيهن العمل، ورشاقتها دائمة لا يؤثر عليها الحمل ولا الرضاعة فهي شباب دائم، مشغولة بنفسها لا يشغلها شاغل، من ولد أو مسؤولية.

قال طرفة يشبب بمحبوبته «هر» ويذكر رحيلها وما أحدثه في نفسه من ألم[1]:

أصحوتَ اليوم أم شاقتك هرُّ

ومن الحبِّ جنونٌ مُستعرُّ[2]

(1) ديوان طرفة، العقد الثمين من دواوين الشعراء الجاهليين، مدينة غريفزولد المحروسة، بالات، المدرسة الملكية، 1899، ص 59.

(2) أصحوت: أتركت الصبي والباطل. شاقتك هر: هاجت شوقك. هرّ: اسم امرأة. مستعر: ملتهب.

لا يكن حبك داءً قاتلا
ليس هذا منك ماوي ً بحُرْ [1]
كيف أرجو حبَّها من بعدما
علق القلب بنصب مسْتتسِرْ[2]
أرَّق العين خيال لم يقِر
طاف والركب بصحراء يُسُر[3]
جازت البِيد إلى أرحلنا
آخر الليل بيعفور خدر[4]
ثم زارتني وصحبي هجَّع
في خليط بين برد ونمر[5]
تخْلس الطرف بعيني بَرْغز
وبخدَّي رشإ آدم غِرْ[6]
ولها كشْحَ مهاة مُطفِل
تقتري بالرَّمل أفنان الزَّهر[7]
وعلى المتنين منها وارد
حسنُ النَّبت أثيث مُسْبطِرْ[8]

(1) قاتلًا: (ويروى داخلًا) أي مستترًا في القلب. ماويَّ: مرخم ماوية، اسم امرأة. بحُر: بفعل حرّ كريم.
(2) أرجو حبها: أي زوال حبها. علق: تعلق. نصْب: تعب وعناء مستسر: مكتتم في القلب.
(3) أرَّق: أسهر. ولم يقرّ من القرار، أي الثبات، أو من الوقار. ويُسُر: موضع بالحزن، قاله الأعلم، وقال ابن السكيت: موضع قريب من اليمامة.
(4) جازت: يريد خيالها، وأنثه على معنى المرأة. بيعفور: هو الظبي تعلوه حمرة، واستعاره للمرأة. خدر: فاتر العظم، بطيء عن القيام.
(5) هجع: نيام. وخليط: قوم مختلطون، وبرد ونمر: قيل هما قبيلتان. وقيل هي في ثوبين.
(6) تخلس: تسرق. وبرغز: هو ولد البقرة. وارشأ: الظبي إذا قوي ومشى مع أمه. وآدم: أبيض البطن أسود الظهر. وغر فيه غفلة لحداثته.
(7) الكشح: مابين الخاصرة إلى الضلع. والمهاة: بقر الوحش. مطفل: ذات طفل، أي ولد. وتقتري: تتبع. أفنان: أنواع.
(8) المتنان: مكتنف الصلب من اللحم، وتثنية متن. وارد مسبطر: شعر طويل مسترسل. وأثيث كثير، أي كثيف.

جـــأْبـــة المِـــــدرى لـــهـــا ذو جُـــدَّة
تـنـفـض الـــضَّـــال وأفـــنـــان السمر[1]
تحـــسـب الـــطـــرف عـلـيـهـا نجْـــدة
يـــا لَـــقَـــوْمـــي لـلـشَّـبـاب المُسبكر[2]
فـلـــه مـــنـــهـــا عـــلـــى أحْـــيـــانـــهـــا
صـفْـوة الـــــرَّاح بمـــلـــذوذ خصر[3]
إن تـــنـــوِّلـــه فـــقـــد تمـنـعـه
وتـريـه الـنـجـم يـجـري بالظُّهر[4]
ظـــلَّ فـــي عـسـكـرة مـــن حـبـهـا
ونـــــأَتْ شـحْـط مـــزار المُـــدّكـــر[5]
فـلـئـن شـــطَّـــت نـــواهـــا مـــرَّة
لـعـلـى عـهـد حـبـيـب معتكر[6]
بـــــادنٌ تَجْـلـــو إذا مـــا ابـتـسـمـت
عـــن شـتـيـت كـأقـاح الـــرَّمـــل غـــرْ[7]
بـــدّلـــتـــه الّـــشـــمـــس مـــن مـنـبـتـه
بـــــردا أبـيـض مـصـقـول الأُشُـــــرْ[8]

---

(1) جأْبة المدري: غليظة القرن ملساؤه، وذلك أول ما ينبت. أراد حداثتها وصغرها. ذو جدَّة: ولد فيه خطّة في ظهره، تخالف لونه. وتنفض الضال: تحركه بقرنيها ليسقط ثمره. والضَّال: السدر البري. الأفنان: جمع فنن، الأغصان. السَّمر: وهو نوع من الشجرة.

(2) النجدة: الشدة. المسبكر: التام المنتصب.

(3) على أحيانها: في كل حين. خصر: بارد.

(4) تنوله: تعطيه، تصله.

(5) عسكرة: شدة وحيرة.

(6) شطت: بعدت. نواها: جهتها التي تنوي. معتكر: عاكف على حبها.

(7) بادن: سمينة. تجلو: تكشف. شتيت: مفلج. الأقاح: جمع أقحوان. غر: جمع أغر، وهو الأبيض.

(8) بردًا: يقصد ثغرًا أبيض نقيًا كالبرد. والأشر: تحزيز الأسنان.

وإذا تضحك تُبْدي حبَبًا
كرُضاب المسك بالماءِ الخصِر[1]
وإذا قامت تداعى قاصفٌ
مال من أعلى كثيب منْقعر[2]
تطرد القُرَّ بحرِّ صادقٍ
وعكيك القيظِ إن جاء بِقُر[3]
لا تلمني إنها من نسوةٍ
رقَّد الصَّيفِ مقاليت نُزُر[4]
كبنات المَخْر يَمْأدْن كما
أنبت الصِّيفِ عساليج الخُضَرْ[5]
فجعوني يوم زموا عيرهم
برخيم الصَّوتِ ملثومٍ عطرْ[6]
وإذا تلْسنُني ألْسُنُها
إنني لست بموهون فقر[7]

ويتضح من أشعار طرفة في وصف المرأة أنه عكس امرئ القيس عرف المرأة الحرة كما عرف الغانية، وكان يضع كل امرأة في مكانها الصحيح، فعندما يصف المرأة كان حسن التصرف، إن وصف حرة شريفة قرنها بالظباء، وألقى نفسه بين

(1)تبدي: تظهر. الحبب: ماء الأسنان. رضاب المسك: فتاته.
(2)تداعى: مال للسقوط. القاصف: المرتفع من الرمل. كثيب: رمل مجتمع- منقعر: منقطع من أصله.
(3)القر: البرد. العكيك: الشديد.
(4)رقد الصيف: ينمن ولايخدمن، كناية عن رغد العيش والنعمة. مقاليت: جمع مقلاة، وهي التي لا يعيش لها ولد. نزر: جمع نزور: قليلات الأولاد.
(5)بنات المخر: سحائب بيض تأتي قبل الصيف. يمأدن: يتحركن ويتثنين. العساليج: ما لان واخضر من القضبان.
(6)فجعوني: أوجعوني. زموا عيرهم: جعلوا فيها الأزمة للرحيل. والعير: هي القافلة. ملثوم: عليه اللثام. عطر: مطلي بالعطر.
(7)تلسنني: تأخذني بلسانها مفتخرة علي. ألسنها: أغلبها في الكلام. موهون: ضعيف. فقر كسير فقار الظهر.

أهدابها لتصيده بسحرها، وتسيطر على فكره وقلبه فيحسسنا أن البداوة مقترنة بالشرف والعفة يقول[1]:

ديـــارٌ لسلـمـى إذْ تَـصِـيـدُك بـالمُـنـى
إذْا حَـبْـلُ سلـمـى مِـنْـكَ دَانٍ تَـواصُـلُـهْ
وإذْ هـي مـثـلُ الـــرِّيمِ صِـيـدَ غـزالُـهـا
لـهـا نـظـرٌ ســاجٍ إلـيـك تُـــوَاغِـــلُـــهْ[2]
وقـــد ذهـبـت سـلـمـى بـعـقـلـك كـلـه
فـهـل غـيـرُ صَـيـدٍ أحـرزتُـه حَبائلُهْ[3]

وإن وصف قينة من قيان الحان، تتخطر بين الندمان خصَّ أصحابه بالصورة الشريفة، وخلع على القينة ما تتخلع فيه، فأصحابه نجوم مضيئة، والقينة اللعوب تتعطف بينهم رافلة بألوان الحضارة، وبالثياب المتعهرة، المشقوقة عن صدرها الرَّيان المكشوف لإغواء العشاق الفساق:

نـدامـاي بـيـضٌ كـالـنُّـجـومِ، وَقَـيْـنَـةٌ
تـــروح عـلـيـنـا بـيـن بُـــردٍ ومَجْسدِ[4]
رحـيـبٌ قـطـابُ الجـيـب مـنـهـا رفـيـقـةٌ
بِـجَـسِّ الـنَّـدامـى، بـضَّـةُ المُتجرَّدِ[5]

الأعشى

ميمون بن قيس بن جندل وقد اتبع نفس طريقة امرئ القيس وطرفة في التغزل بالمرأة الغزل المادي، وكان أعمى ويكنى أبا بصير، وكان أبوه قيس يدعى قتيل الجوع،

(1)الأدب الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، د. غازي طليمات، أ.عرفان الأشقر ص 447
(2)صيد غزالها: لأن ذلك أشد لتشوفها. الساجي: الساكن الفاتر. تواغله: تسارقه النظر.
(3)فهل غير صيد أحرزته حبائله: هل أنت غير صيدٍ صيد فنشب في حبالة صائد
(4)بيض كالنجوم: أعلام مشاهير. برد: ثوب وشي. مجسد: مصبوغ بالزعفران.
(5)رحيب: واسعة. قطاب الجيب: القطاب مجتمع الجيب، والجيب الشق في أعلى الثوب، الجس: اللمس. البضة: الناعمة الرقيقة. الجردة: الجسم.

وذلك أنه كان في جبل فدخل غارا فوقعت صخرة من الجبل فسدت فم الغار فمات فيه جوعًا، وكان جاهليًّا وأدرك الإسلام في آخر عمره ولكنه لم يسلم[1].

كان شعر الأعشى يختلف عن غيره من الجاهليين، فلايقف طويلاً عند الأطلال يبكي آثار الديار، ولا يتعمق مع الذكريات، بل يدخل في موضوع حبه فيصف حبيبته التي لم يرها، ولكنه على الأرجح اعتمد على وصف الغير له، ولكنه عندما يصفها يوهمنا أنه رآها بأم عينه، فيصف لنا عواطفه الجياشة نحو حبيبته، وأحيانًا يتحدث عن مغامراته مع النساء المتزوجات على شاكلة امرئ القيس في الغزل الصريح الماجن فيقول:

فظللتُ أرعاها وظلَّ يَحوطُها
حتى دنوت إذا الظلامُ دنا لها
فرميتُ غفلةَ عينه عن شاتهِ
فأصَبتُ حبَّةَ قلبها وطِحالَها
حفظ النهارَ وبات عنها غافلاً
فخلت لصاحب لذةٍ وخلا لها[2]

وكان شعره ماديًّا، وهذا طبيعي لمن كان ذا لهو ومعاقرًا للخمر غير أنه كان في غزله رقة وله لحبيبته، وكان يبدع في تصويره لعواطف العشاق وأحاسيسهم التي لايستطيعون كتمانها وكان متأثرًا بالحضارة فجاءت معانيه رقيقة على عكس الشعراء الجاهلين ممن عاصرهم وممن سبقوه أمثال طرفة فهو قرين امرئ القيس، في حبه للنساء والتغزل بهن، هذا الغزل الصريح الماجن، ونراه يقول موضحًا مبدأه في الحياة فيما يتعلق بمغزى محبته للنساء جميع النساء[3]:

(1)الشعر والشعراء تأليف عبدالله بن مسلم بن قتيبة ص33
(2)ديوان الأعشى – من الشبكة العلمية للمعلومات–ص 139
(3)ديوان الأعشى طبعة دار صادق– ص 206

وأقـــــررتُ عـيـنـي مـــن الـغـانـيـا
تِ إمَّـــا نـكـاحًـا وإمّـــا أُزنْ
ومـــن كـــل بـيـضـاءَ ممـكـورةٍ
لـهـا بـشـرٌ نـاصـعٌ كـالـلَّـبن
تُـعـاطـي الـضـجـيـعَ إذا أقـبـلـت
بُـعَـيْـدَ الـرُّقـاد وعـنـد الـوسـن

وأكثر محبوبات الأعشى اللواتي تغزل بهن غزلاً صريحًا في شعره كن من الجواري البغايا اللواتي كان سماسرتهن يبيعونهن لقاء مبلغ معين من المال، فلنستمع إليه واصفًا في إحدى قصائده لجوءه إلى سمسار محبوبته ميثاء، ليطلب منه أن يصلح ذات البين بينه وبينها:[1]

لِمَـيْـثَـاءَ دارٌ عـفـا رسـمُـهـا
فـمـا إن تـبـيَّـنُ أسـطـارَهـا
فـبـانَـت وقـد أورثـت فـي الـفـؤا
دِ صـدعـاً يُـخـالِـط عَـثَّـارهـا
فـعِـشْـنـا زمـانًـا ومـا بـيـنـنـا
رسـولٌ يـحـدِّثُ أخـبـارهـا
وأصـبـحـتُ لا أسـتـطـيـع الـكـلام
سـوى أن أُراجـعَ سِـمْـسَـارَهـا

فهو يعترف إذًا اعترافًا صريحًا في عجز البيت الأخير بأنه كان كلّما وجد صدودًا من ميّثاء نفسها نحوه يراجع سمسارها، جاعلاً منه وسيطًا بينه وبينها يصف لنا الأعشى مغامراته مع النساء وبالذات في هذه القصيدة مع الفتاة التي بعث إليها رسولًا يحتال عليها حتى استجابت لرغبته فزارها وقضى معها ليلة ممتعة.

(1)ديوان الأعشى ص 89

يقول الأعشى[1]:

وأخـــــــونُ غـفـلـة قـومـهـا
يمـــشـــون حـــــول قـبـابـهـا
حـــــذراً عـلـيـهـا أن تـــرى
أو أن يُـــطـــاف بـبـابـهـا
فـبـعـثـتُ جـنِّـيـا لـنـا
يـــأتـــي بـــرجْـــع جـوابـهـا
فـمـشـى ولـــم يـخـش الأنـيْـ
ـــس فـــزارهـــا وخـــلا بـهـا
عـــضـــبُ[2] الـلـســان مـتـقَّـنٌ
فـطـنٌ لمـا يُـعـنـى بـهـا[3]
صَـــنَـــعٌ بـلـيـن حـديـثـهـا
فـدنـت عُـــرى أسـبـابـهـا
قـــالـــت: قـضـيـت قـضـيـةً
عـــدلاً لـنـا يُـــرضـــى بـهـا
فـــأرادهـــا كـيـف الـدخـو
ل وكـيـف مـا يُـؤتـى بـهـا
فـي قـبّـةٍ حـمـراء زيْـ
ـيَـنـهـا ائـتـلاق طِـبـابـهـا[4]

(1)(ديوان الأعشى طبعة دار صادر ص 19)-بحوث تطبيقية في الأدب العربي د. مختار عطية دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ص82.
(2)حادة قاطعة.
(3)يعنيها.
(4)الطباب: شارات عريضة توضع على مثل هذه البيوت.

ودنـــــــا تـــســـمُّـــعُـــه إلـــى
مـــا قـــال إذ أوصـــــى بـــهـا
إن الـــفـــتـــاة صـــغـــيـــرةٌ
غِـــــرٌّ فـــلا يُـــســـدى بـــهـــا[1]
واعـــلـــم بـــأنـــي لـــم أكـــلْـــ
ـــلِـــمْ مـثـلـهـا بـصـعـابـهـا
إنـــي أخـــاف الـــصُّـــرمَ مـنْـ
ـــهـا أو شـحـيـحَ غـرابـهـا
حـــتـــى إذا مـــا أســـتـــرســـلـت
مـــن شـــــدةٍ لـــلـــعـــابـــهـا
قـــسَّـــمـــتُـــهـا قـــســـمـــين كـــلْـــ
ـــلَ مُـــوجّـــهٍ يُـــرمـــى بـــهـــا[2]
فـــثـــنـــيـــت جـــيـــد غـــريـــرةٍ
ولمـــســـت بـــطـــن حِـــقـــابـــهـــا[3]

وفي قصيدة أخرى رسم الأعشى لمحبوبته تمثالاً رائعًا فهي ذات قامة معتدلة حسنة الخلق، وساقان مليئان باللحم أي صار اللحم مورا عليها وهو مطوق بخلخال ذي رنين، وكانت المرأة السمينة هي من تستسيغها الأذواق في الجاهلية. وهذه المحبوبة إذا انبطحت على الأرض، وارتفع خصرها الدقيق عن الفراش ظهرت أرادفها الضخمة كالقدح الكبير، وعندما تختلي بنفسها وتلبس قميصها، ملأته أرادفها، وصورها أيضًا عندما تلبس الثوب، فهذا الثوب يمنع اللحم من الانهيار وشبه قامتها الممدودة بغصن البان كما شبه ثدييها بالرُّمانتين، وجيدها بجيد

(1) يتصل بها.
(2) يوجهها أي وجهة أرادها.
(3) الحقاب: حزام تعلق به الحلى ويشد على الوسط.

الغزال الذي زين بالحلي، ويزداد جمالها عندما تضحك فتبدو أسنانها بيضاء ناصعة كأنها زهور الأقحوان النضر، وبشرتها بيضاء، نقية تتلألأ كالفضة، والعين مثل عين الغزال صافية وجميلة ولو لم تضع الكحل.

ولم يترك الأعشى موضعًا في جسد محبوبته إلاّ أبدع في تصويره. وهذه المرأة التي يتغزل بها الأعشى وغيره من شعراء االغزل الفاضح هي بالتأكيد ليست حبيبة الشاعر الخاصة بل جنس المرأة عامة، وهو لهذا يصف جسدها جزءًا جزءًا، فيبدأ من قدميها إلى ساقيها إلى أردافها فبطنها، فثدييها، فقامتها وفمها وخدودها وعينها، إنها هنا المرأة النموذج، وليست المحبوبة التي يستحي الحبيب أن يعرض مفاتنها بصورة مكشوفة ترضي غرائزه، وحرمانه الجنسي، وشبه الأعشى هنا المرأة بالناقة والمهرة، والرجل هو فارس هذه المهرة، وإذا ما علاها هذا الفارس المتبذل – فهي نعم فراش لهذا الفارس الذي ترك التصون –وترك التزين والتجمل

وهنا يتضح إنه كلما كان العاشق ماجنًا كان غزله مكشوفًا وتظهر المرأة في شعره سافرة يظهر من جمالها ما قد يخدش الحياء، وما قد يتعارض مع أعراف المجتمع الجاهلي.

يقول الأعشى في محبوبته «قتيلة»[1]:

صحا القلبُ منْ ذكرى قُتَيلةَ بعدما

يكون لها مثلَ الأسير المكبَّلِ[2]

لها قدم رَيّا، سباطٌ بنانُها

قدِ اعتدلت في حُسن خَلقٍ مُبتَّل [3]

---

(1)ديوان الأعشى طبعة دار صادر ص126.

(2)صحا القلب: تيقظ من هوى أو غفلة. المكبل: المقيد، المحبوس.

(3)روى الحبل ريا: أنعم فتله. ارتوى: يقال: ارتوت مفاصله: اعتدلت وغلظت. البنان: أطراف الأصابع. سباط، الواحد سبط: الطويل المسترسل. المبتل: التام.

وســاقــانِ مــارَ الــلــحــمُ مــوراً عليهما،
إلــى منتهى خلخالِها المُتصَلصِل [1]
إذا الــتُــمِــسَــت أُربــيّــتــاهــا تــســانــدتْ
لــهــا الــكــفُّ فــي رابٍ مــن الخلقِ مُفضِلِ[2]
إلــــى هــــدفٍ فــيــه ارْتــــفــــاعٌ تــــرى لــه
مــن الحسن ظِــلاً فــوق خــلــقٍ مكمَّلِ[3]
إذا انبطحتْ جافى عن الأرض جنبُها،
وخــــوَّ بــهــا رابٍ كــهــامــةِ جُنْبُلِ[4]
إذا مــا عــلاهــا فــــارس مُــتــبــذِّلٌ
فــنــعــم فــــراشُ الــــفــــارِسِ المُــتَــبَــذِّلِ[5]
يَــنــوءُ بــهــا بُــــوصٌ، إذا ماتفضَّلتْ
تــوعَّــب عــرْض الــشــرعــبــيّ المُغيَّلِ[6]
روادفـــــه تــثْــنــي الــــــرّدَاءَ تــســانــدت
إلــى مــثــلِ دِعــص الــرّمْــلــةِ المتهيِّلِ[7]
نِــيــافٌ كغصن الــبــانِ تــرْتجُّ إن مشت٠
دبــيــب قــطَــا الــبــطــحــاءِ فــي كــلِّ منهَلِ[8]

(1)مار الشيء: تحرك وتدافع. والمور: اللاضطراب. تصلصل الشيء صوَّت صوتا فيه ترجيع.
(2)الأربية: أصل الفخذ. راب فلان: تحير. ربا الشيء ربْوا، وربوًّ: نما وزاد. . وعلا وارتفع. وراباه: داراه ولاينه. والريبة: ما ارتفع من الارض. مفضل: زائد.
(3)خوَّى: مال وسقط. والهامة: الرَّأس – أعلاه أو وسطه. الجنبل: القدح.
(4)تبذل الرجل: ترك التصوّن والتحرّز – ترك التزين والتجمل – لبس الخبق من الثياب
(5)ينوء: يبعد. البوص: الردف. توعب: استوعب. الشرعبي: نوع من البرود. المغيل: الواسع.
(6)الدعص: قطعة من الرّمل مستديرة. الجمع دعصة، وأدعاص.
(7)نياف: طويلة. البان ضرب من الشجر، سبط القوام، لين، ورقة كورق الصفصاف. ويشبَّه به الحسان في الطول واللين. واحدته:بانه. القطاء: جمع القطاة: وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء ويتخذ أفحوصة في الأرض، ويطير جماعات ويقطع مسلفات شاسعة، وبيضه مرقّط. البطحاء: المكان المتسع يمرُّ به السيل، فيترك فيه الرّمل والحصى الصغار.
(8)المنهل: المورد، أي الموضع الذي فيه المشرب. والمنزل في المغارة على طريق السّفار، لأن فيه الماء، الجمع مناهل.

وثـديـانِ كـالـرُّمـأَنـتـين، وجـيـدُهـا
كـجِـيـدِ غـزالٍ غـيـر أنْ لـم يُعطَّل[1]
وتـضـحـك عـن غُـرِّ الـثـنـايـا كـأنَّـه
ذُرى أقـحـوان نـبـتـه لـم يفلَّل[2]
تـلألُـؤهـا مـثـل الُّـلـجـينِ، كـأنَّمـا
تـرى مُـقـلـتـي رئْـم ولـو لـم تكحّل[3]
سـجـوّيـن بـرْجـاوَيـن فـي حسن حاجبٍ
وخـدّ أسـيـلٍ واضـحٍ متهلِّل[4]
لـهـا كـبـدٌ مـلـسـاء ذاتُ أسـرّةٍ
ونـحـر كـفـاثـورِ الـصّـريـف الممثّل[5]
يـجُـول وشـاحـاهـا عـلـى أخمصيهما
إذا انْـفـتـلـت جـالاً عـليـها يُجَلجِلُ[6]
فـقـد كـمُـلـتْ حُـسـنـاً فـلا شـيء فوقها
وإنـي لـذو قـولٍ بـهـا متنخَّل[7]
وقـد عـلـمـتْ بـالـغـيـبِ إنِّـي أُحـبّـهـا
وأنِّـي لـنـفـسـي مـالـكٌ فـي تجمّل[8]

---

(1) الجيد: العنق أو مقدّمه و- موضع القلادة. لم يعطل: لم ينزع الحلى عنه.
(2) الثنايا جمع الثنية: إحدى الأسنان الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق وثنتان من تحت. وغرّ الثنايا أي: بيضاء. لم يفلل: لم يتكسر.
(3) اللجين: الفضة. الرّئم: الظبي الخالص البياض -ولد الظبي. الجمع: آرآم، وآرام. وهي رئمة. وتشبه به الحسناء. والمقلة: العين كلّها.
(4) سجوين: ساكنتين فاترتين. برجاوين: واسعتين صافتين. الأسيل: المالس المستوي. تهلّل: تلألأ وأشرق.
(5) الكبد: الوسط. أسرة: خطوط. النحر: أعلى الصدر. الفاثور: الخوان من رخام أو فضة. الصريف: الفضة. الممثل: الجيد الصنعة.
(6) الوشاح: خيطان من لؤلؤ وجوهر، منظومان، يخالف بينهما، معطوف أحدهما على الآخر أو نسيج عريض يرصّع بالجوهر، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها. الأخمص: باطن القدم الذي يتجافى عن الأرض. جلجل الشيء: حرّكه فكان لحركته صوت شديد. وفي البيت إقواء.
(7) تنخل الشيء: اختار أجوده.
(8) التجمل: الصبر

وما كنتُ أُشكي قبل قتلَةَ بالصّبا
وقد ختلتْني بالصِّبا كلَّ مختلِ[1]
وإني إذا ما قلت قولاً فعلته
ولسْت بمخلافِ لقولي مبدِّلِ[2]
تهالَكُ حتى تُبْطرَ المرءَ عقْلهُ
وتصبي الحليم ذا الحجى لمّا ترجّلِ[3]
إذا لبست شيدارةً ثمَّ أبرقتْ
بمعصمِهَا، والشَّمسُ لمّا تَرجّلِ[4]
وألْوت بكفٍّ في سوَارٍ يزينُها
بَنَانٌ كهدَّابِ الدِّمقس المفتَّلِ[5]
رأيت الكريمَ ذا الجلالة رانِيا،
وقدْ طار قلبُ المستخفّ المعذَّلِ[6]

وهكذا ظل الأعشى متيَّما بالمرأة يرسل عينيه في أوصالها من القدم إلى الرأس، لايغفل عن عضو، ولايخجل من وصف. يبدأ من القدم ذات الأنامل المرصوفة أحسن رصف، ثم يتجه صعودًا إلى الساق المكتنزة لحمًا، والمزين بالخلخال، ويد الأعشى

(1) الصبا: الشوق – الصغر والحداثة. ختلتني: خدعتني.
(2) المخلاف: الكثير الإخلاف. وأخلف الشيء: تغير وفسد.
(3) تهالك: تتمايل في مشيها. تبطر: تدهش. أصْبَت الفتاة فلانا: استمالته. وتصابى: تكلف الصبا. وصبا فلان: صبوا، وصبوة: مال إلى اللهو وإليه حنَّ وتشوق. الحلم: الأناة وضبط النفس. والعقل. الحجا: السّتر العقل. التقتل: التثني.
(4) شيدارة: لم نجد هذه اللفظة، ولعلها من الشباب ترجل: ترتفع.
(5) ألا-ألْوا-وألْو، وأليًا: فتر وضعف – أو قصر وأبطأ. الهداب: من الثوب: الخيوط التي تبقى في طرفيه دون أن يكمل نسجها. والدمقس: كل ثوب أبيض من كتان أو إبريسم أو قز.
(6) رنا – رُنواً – ورُنُواً: أدام النظر في سكون طرف. و- فلان: طرِب ولها مع شغل قلب وبصَرٍ وغلبه هوى. المستخف: يقال : خف عقله أي طاش وحمُق. وخفت حاله: رقت. واستخف به: استهان – وأهانه. المعذّل: الملام.

أحد بصرا من عينيه يتحسس ويتلمس مواضع الفتنة من ساقها إلى نحرها، وهكذا ظلّت صلته بالمرأة إلى أن تركه مضطرًّا لأن المرأة هي التي تركته بسبب كهولته[1].

الحب العفيف

لم يذكر الرواة سوى عدد قليل من الشعراء العشاق الذين أحبوا في العصر الجاهلي حبا عفيفًا بريئًا من الشهوات. فكل واحد من هؤلاء أحب في حياته محبوبة واحدة، جعلها ملهمة أشعاره فاشتهر بها كما اشتهرت به ولم يكن باستطاعته أن ينساها أو يحب سواها عله بذلك يبرأ من مرضه الذي أضناه وقاد خطاه إما إلى المنفى وإما إلى القبر.

كان الواقع الاجتماعي والفوارق بين الطبقات في العصر الجاهلي قد حفز الكثير من الشعراء على تقديم ألوان جديدة من الحب البعيد عن صور اللهو والمتعة. ولشعر الفروسية فضل في إثراء غزل ذلك العصر بمفاهيم عشقية جديدة، وكان خير من يمثل هذا الاتجاه هو عنترة بن شداد العبسي[2].

عنترة

هو عنترة بن شداد العبسي، وهو أحد فرسان العرب المشهورين وأجوادهم المعروفين وأحد الأغربة الجاهليين، وأمه زبيبة أمة حبشية، وكان أبوه نفاه واستعبده على عادة العرب مع أبناء الإماء، فأنهم يستعبدونهم إلا إذا ظهرت عليهم النجابة وكان إخوته من أمه عبيدًا، واعترف به أبوه بعد ذلك بعد أن ظهرت شجاعته والتي هي أشهر من نار على علم فألحقه أبوه بنسبه.

أحب عنترة عبلة ابنة عمه؛ لأن القلب لا يعرف الفوارق الاجتماعية التي بينهم فتعلق قلبه بها متناسيًا كل الحواجز التي أقامها القدر بينهم فتجرأ وطلبها

(1) أحلى قصائد الغزل العصر الجاهلي د صلاح هواري دار تيسير الطبعة الأخيرة 2000 ص 26.
(2) الحب عند العرب د. عادل كامل الألوسي ص 48 الطبعة الأولى 1999 الدار العربية للموسوعات بيروت لبنان.

من عمه إلا أن العم رفض ذلك لسواده ولأن أمه أمة، وظلّ عنترة يتغنى بها طوال حياته، تغني المحب المحروم، وكان حبه مشوبًا بالحزن واليأس والألم، ويعدُّ شعر عنترة في عشقه لعبلة كما يرى النقاد أساسًا لشعر الحب العذري عند العرب، وتجربته العشقية هذه لابنة عمه لانجد لها مثيلاً في الشعر الجاهلي القديم، وإن كانت قد تكرّرت في الشعر الإسلامي لدى مجموعة شعراء العشق المعروفين أمثال قيس بن الملوح – وجميل – وكثير وغيرهم من شعراء العصر الأموي، والصورة التي تنطبع في نفوسنا هي صورة الفارس المحب ومعظم شعره يجمع هذين الطرفين – الفروسية – الحب[1] وأصبح بنخوته وفعاله وغرامه بعبلة التي خلد اسمها في معلقته المشهورة جزءًا من التراث الأدبي في العالم العربي.

فها هو عنترة يخاطب عبلة بلهجة لا تخلو من تذلل ووعيد فيقول:

لاتصرميني ياعُبَيْلَ وراجعي
فيَّ البصيرة نظرة المتأمِّلِ
فلرُب أملحَ منك دلاًّ فاعلمي
وأقَرَّ في الدنيا لعين المجتلي[2]
وصلت حبالي بالذي أنَا أهله
من وُدِّها وأنا رَخى المِطْوَلِ[3]

يصف عنترة الحب في نفس العاشق ويتهم غراب البين بتهمة التفريق، وهذا الفراق سبب له جرحا لا يقدر على مداواته أحد، وأن نار الفراق تؤجج عظامه

(1)شرح المعلقات العشرة وأخبار شعرائها –الأستاذ أحمد بن أمين الشنقيطي قدّم له د. فايز ترحيبي –دار الكتاب العربي1985 ص 101

(2)الدل: االمليح . المجتلي: الناظر، يقال اجتليت الشيء إذا نظرت إليه

(3)رخى المطول: أي حبلي الطويل، وأصله حبل الدابة الطويل فتسير حيث شاءت من المرعى . والمطول:والكلام وضرب هذا مثلا لما كان فيه من الصبا واللهو

ويحرك مشاعره الطير على الأغصان فينوح ويفيض دمعه، فالطير شبيهه فيما يعانيان منه ولكنهما مختلفان في التعبير عن مشاعرهما، فهذا يبكي بلا دمع وهو يفيض دمعًا، فهو لا يقوى على فراقها رغم مقاتلته لكل جبار عنيد. فيقول[1]:

غـــرابَ الـبـــينِ مـــا لـــك كـــل يـــومٍ
تـعـانـدنـي وقـــد أشـغـلـتَ بـالـي
كـأنـــي قـــد ذبـحـــت بـحـد سـيـفـي
فـــراخَـــك أو قَـنـصـتُـك بـالحـبـالِ
بـحـق أبـيـك داوي جـــرحَ قـلـبـي
ورَوّح نـــارَ ســـرّي بـالمـقـال
وخـبّـــر عـــن عُـبـيـلـةَ أيـــن حـلّـت
ومـــا فـعـلـت بـهـا أيـــدي الـلـيـالـي
فـقـلـبـي هـــائـــمٌ فـــي كـــل أرضٍ
يُـقـبّـل إثـــر أخْـــفَـــافِ الجـمـال
وجـسـمـي فـي جـبـال الـرمـل ملـقًى
خـيـــالٌ يـــرتجـــى طَـيـف الخـيـال
وفـــي الـــوادي عـلـى الأغـصـان طيرٌ
يـنـــوح ونـــوحـــه فـــي الجـــو عـال
أنـــا دمـعـي يـفـيـض وأنـــت بـــاكٍ
بـــلا دمـــــعٍ فـــذاك بـــكـــاءُ ســال
لحـــى الـلـــه الـــفـــراق ولا رعـــاهُ
فـكـم قـــد شـــك قـلـبـي بـالـنِّـبـال

(1) تطور الصورة في الشعر الجاهلي –، د. خالد محمد الزواوي. مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع ص118.

أقـــاتـــل كـــل جـــبـــارٍ عـنـيـدٍ
ويـقـتـلـنـي الـــفـــراقُ بـــلا قـتـال

وكان عنترة كثيراً ما يخاطب حبيبته عبلة برقة محاولا أن يقنعها بالزواج منه لأنه كان حقًّا يهواها ولا يحب من النساء امرأة سواها فيقول:

إنـــي امـــرؤ سـمـحُ الخـلـيـقـة مـاجـدٌ
لا أتْـبـع الـنّـفس الـلّـجـوج هـواهـا
ولـئـن سـأَلـتَ بـذاك عـبـلـة خَـبَّـرت
أن لا أريـــد مـــن الـنـســاء سـواهـا

كان عنترة عنده اليقين بأن عبلة ترفضه لسواده، وأن سواده أشبه بسواد المسك يجلب لصاحبه الشرف فيقول[1]:

لـئـن أكُ أســـودًا فـالمـسـك لـونـي
ومـــا لـــسـواد جـلـدي مـــن دواءِ
ولـكـن تـبـعـد الـفـحـشـاء عـنـي
كـبـعـد الأرض عـن جـوّ الـسـمـاءِ

من أجل هذا كان عنترة يحاول جاهدًا أن يلقن عبلة حينما كان يلقاها الكلمات التي يجب عليها أن تتفوه بها كلما عيرها معير بسواد لون حبيبها أو بنسبه من جهة أمه[2]:

ألا يـا عـبـلُ قـد عـايـنـت فعلي
وبـــان لـك الـضـلالُ مـن الـرشـادِ
وإن أبـصـرت مـثـلـي فـاهـجـريـنـي
ولا يـلـحـقـك عـــارٌ مـــن ســـوادي
وإلاّ فـــاذكـــري طـعـنـي وضـربـي
إذا مـا لـجَّ قـومُـك فـي بِـعـادي

(1)ديوان عنترة، بن شداد، الطبعة الأولى، دار صادر، ص 50.
(2)ديوان عنترة، بن شداد، الطبعة الأولى، دار صادر، ص 59.

وكان عنترة يتألم أشد الألم وهو الفارس المغوار من جراء صدود عبلة ولكنَّ حبه لعبلة لم ينته فيذكرها ويذكر ديارها التي مايلبث الإنسان يبعد عنها حتى يعود إليها مرة ثانية، فيخاطب الآرام (الظباء) ويسألها إذا كانت فيهم المتألمة في حبها لأليفها، وكل كلامه لعبلة حتى ترضى عنه، وترى كم هو صبور يصبر على هجرها فلا يلتفت للفتيات الجميلات، وكم هو حزين لفراقها، وكم يفجعه صوت الغراب الذي ينظر بالشؤم وهو الذي إذا سمع حمائم يندبن إلا كان هو أول من يندب حظه السيء الذ ي فرّق بينه وبين عبلة، وألمه هذا هو الذي فجر عبقريته، موحيًا إليه بهذا الشعر الرّصين الرّقيق الذي قاله مفتخرًا أو متغزِّلا فيقول[1]:

بين العقيقِ وبينَ بُرْقَةِ ثَهْمدِ
طَلَلٌ لِعبلة مستهِلُّ المعْهدِ
يا مسْرحَ الآرَامِ في وادي الحِمى
هل فيك ذو شجنٍ يروحُ ويغْتدي
في أيْمن العلميْن درسُ معالمٍ
أُوهي بها جلدي وبان تجلُّدي
من كل فاتنة تلفَّت جيدها
مرحا كسالفةِ الغزالِ الأغْيدِ
ياعبل كم يشجي فؤادي بالنَّوى
ويرُوعني صوت الغُرابِ الأسودِ
كِيفَ السُّلُوُّ وما سمِعْتُ حمائما
يندبْن إلاّ كُنتُ أوَّل مُنْشد
ولقَدْ حبَسْتُ الدّمعَ لابُخْلاً به
يوم الوداع على رسُومِ المَعْهَدِ
سألْتُ طيْر الدّوحِ كم مِثْلي شَجَا
بأنينه وحنينه المتردّد

(1)ديوان عنترة، دار صادر، ص 34.

نـــاديـــتُـــه ومـــدامـــعـــي مـنْـهـلَّـةٌ
أيـــن الخَـــلـــيُّ مـــن الـشَّـجـيِّ المُـكـمَـدِ
لـوكـنـتُ مـثـلِـي مـا لـبـثْـتَ مـلـوَّنـا
وهـتـفـتَ فـي غُـصـنِ الـنَّـقـا المـتـأوّدِ
رفـعُـو الـقـبَـاب عـلـى وجـــوهٍ أشـرقـتْ
فـيـهـا فَـغَـيَّـبـتْ الـسُّـهـى فـي الـفَـرْقـدِ
واسـتَـوْقـفُـو ا مـاء الـعُـيـونِ بـأعْـين
مـكـحـولـة ٍ بـالـسِّـحـرِ لا بـالإثْـمِـدِ
والـشَّـمـس بـين مـضـرَّج ومـبـلّـجٍ
والـغـصـن بـين مـوشّـحٍ ومقلَّد[1]
يـطْـلُـعـنَ بـين سـوالـفٍ ومـعـاطِـفٍ
وقـلائـدٍ مـنْ لُـؤْلـؤٍ وزبَـرْجَـدِ
قـالـوا الـلِّـقـاءُ غـداً بمُـنْـعـرج الـلِّـوى
وأطُـولَ شـوقِ المُـسْـتَـهَـام إلـى غـدِ

وكان عنترة يتمنى مثلما كان يتمنى معاصروه من الشعراء المتيمين الموت قبل الفراق فيقول[2]:

يـا دهـر لاتـبـق عـلـي فـقـد دنـا
مـا كـنـت أطـلـب قـبـل ذا وأريـدُ
فـالـقـتـلُ لـي مـن بـعـد عـبـلـةَ راحـةٌ
والـعـيـش بـعـد فـراقـهـا مـنـكـود

وكانت أجمل بقاع الأرض في نظره الأرض «الشَّربَّة» التي نشأ وترعرع فيها برفقة محبوبته عبلة حيث تعارف قلبه على عبلة وأحبها حبا طاهرا وقد ظلت صورة تلك الأرض عالقة في ذاكرته طيلة حياته فيقول[3]:

(1)المضرج – ملطخ بالدم أي الشمس بين الاحمرار والإضاءة – المبلج النقاوة والإضاءة – الموشحة: بجنبيها خطان –مقلد: ضم الشيء.
(2)ديوان عنترة، ص 131.
(3)ديوان عنترة، دار صادر، ص150–151.

أرض الشربة كم قضَّيت مُبتهجًا
فيها مع الغيد والأتراب من وطرِ
أيامَ غُصْنُ شبابي في نعومتهِ
ألهو بما فيه من زهر ومن ثمر
في كل يوم لنا من نشرها سَحرا
ريح شذاها كنشر الزّهر في السَّحر
وكل غصن قويم راق منظره
ما حظُّ عاشقها منه سوى النَّظر
همُّ الاحبة إن خانوا وإن نقضوا
عهدي فما حُلْتُ عن وجدي ولا فكري
أشكو من الهجر في سرٍّ وفي علنٍ
شكوى تؤثر في صلدٍ من الحجر

وقد تجلت عند عنترة التقاليد العربية الداعية إلى التمسك بالعفة والمحافظة على العرض من خلال قوله في إحدى قصائده[1]:

أغشى فتاة الحي عند حليلها
وإذا غزا في الجيش لا أغشاها
وأغض طرفي ما بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

تتضحُ عفة عنترة في هذين البيتين وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال «ماوصف لي أعرابي فأحببت أن أراه إلا عنترة.

****

(1) المصدر السابق ص 176.

المبحث الثاني
الصورة السائدة للمرأة في الشعر الجاهلي وموقف المجتمع الجاهلي من هذه الأشعار

من خلال معرفتنا بنوعية الأشعار التي قيلت في المرأة نرى أن الشاعرالجاهلي صور المرأة صوراً جميلة مبدعة، وذلك انطلاقًا من رؤيته الخاصة المتأثرة برؤية شعراء عصره ومجتمعه وثقافة مجتمعه، فكانوا في قصائدهم يصفون جمال المرأة وصفًا مفصلًا وغامضًا في الوقت نفسه، ونرى في الصور الغزلية للشعراء احتفالهم بالمرأة فلا يكاد يخلو شعر دون ذكر صور مختلفة للمراة، لأنها أساس الحياة لهذا كانت نظرتهم إليها نظرة عميقة فجعلوا يصفونها ويتبارون في وصفها، «وقد جاءت صورة المرأة عند الشعراء الجاهليين مادية حسية مثالية نموذجية، من حيث اختيار الصفات الجمالية التي تبرز فيها، ومن أجل ذلك جاءت الصورة مجزأة ليس لها إطار يضم هذه الأجزاء لأن نظرة الشاعر كانت إلى الأجزاء أكثر تركيزًا من نظرته إلى الصورة ككل في موضوعات معينة، كالغزل مثلا فكان اهتمامه بهذه الأجزاء أكثر من اهتمامه بالصورة الكلية للمرأة التي يصورها، فتكررت صور معينة في وصف المرأة منبت القصيدة لالتصاقها بحياة الرجل[1].

وشعر الغزل كان أكبر عون للرجل في رسم المرأة في لباسها، وفي أعضاء جسدها وفي حركاتها وطريقة عيشتها، مبينا أثر العصر الذي عاشت فيه مصورًا

(1)تطور الصورة في الشعر الجاهلي –للمؤلف د–خالد محمد الزواوي الطبعة الأولى 2005 مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع –الإسكندرية ص– 92.

الحرقة والأسى والنعيم والسعادة عند الشاعر وعند المعشوقة. « وأول صورة تلقانا في قصائدهم هي بكاء الديار القديمة التي رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم، ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها، ولا يكادون يتركون شيئًا فيها دون وصف، إذ يتعرضون لجبينها وخدها وعنقها وصدرها وعينها وفمها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحيائها وعفتها »[1]

كما كان الشعراء يتعرضون لمغامراتهم مع المرأة، ومنها مغامرات حوَّلها بعض الرواة إلى قصص غرامية وذلك على نحو ما قيل عن حب المنخَّل اليشكري للمتجردة زوج النعمان، وله قصيدة رائعة يقول فيها[2]:

ولقد دخلت على الفتا
ةِ الخدر في اليوم المطيرِ
الكاعب الحسناء تر
فل في الدمقس وفي الحريرِ
فدفعتها فتدافعت
مشي القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفست
كتنفس الظبي البهير[3]
فدنت وقالت يا منـ
ـخل مابجسمك من حرور
ماشف جسمي غير حبـ
ـكِ فاهدئي عنِّي وسيري

(1) العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص 212.
(2) الأصمعيات، الأصمعي، أبوسعيد مالك بن قريب تحقيق عمرفاروق الطباع بيروت دار القلم ص 60.
(3) البهير من البهر وهو ما يعتري الإنسان والحيوان عند السعي الشديد من النهج وتتابع الأنفاس.

وأيضًا كانوا كثيرًا ما يصفون ظعنها وهي ترحل في الجزيرة من موضع إلى موضع، وكانت الرحلة أساسًا في حياتهم، وفي معلقة زهير وصف طويل لهذه الظَّعن، وزاد عليه وفاقه في هذا الوصف المثقب العبدي في قصيدته حيث يقول[1]:

أفاطمُ قبل بينكِ متّعيني
ومَنْعُكِ ماسألت كأن تبيني
فإني لوتخالفُني شِمالي
خلافَك ما وصلت بها يميني

وكانت ذكراها لاتزال تلم بهم، ومن ثم أكثروا الحديث عن طيفها، وما يثيره في أنفسهم من تباريح الحب ولهم في وصف هذه الذكرى وماتصنع بهم شعركثير يصفون فيه صبابتهم على شاكلة قول المرقش الأصغرحيث يقول:

صحا قلبه عنها، على أن ذكرةً
إذا خطرت دارت به الأرض قائما[2]

وفي القصيدة الأخرى للمرقش الأصغر يبدأ القصيدة بحديث وفائه لصاحبته، ثم يتذكر يوم الفراق ويصف لنا صورة رائعة عن صاحبته: شعرها الطويل، وثناياها العذاب، ومعاصمها الناعمة، وخدها الأسيل:

تراءت لنا يومَ الرحيل بوارِدٍ
وعذبِ الثنايا لم يكن مُتراكِما
سقاهُ حَبيُّ المزْن في متهلِّلٍ
من الشمس روّاه ربابًا سواجمًا
أرتك بذات الضال منها معاصمًا
وخدًّا أسيلاً كالوذيلة ناعما

(1) المفضليات ص 288.
(2) المفضليات ص 346.

ثم يصف ماعاوده من ذكرياتها، ويستعيد يوم الرحيل، فيصف الظعائن ورحلتهن، ويتغنى بجمالهن وزينتهن، ثم يعود مرة أخرى إلى صاحبته، فيصف جمالها ويبين مدى حبه لها ووفائه لعهدها:

أفاطم لو أن النساء ببلدة

وأنت بأخرى لاتَّبعتك هائما

وهكذا كان من الطبيعي أن تتاح الفرصة للشاعر الجاهلي – في أوقات السلم والدعة – لنشدان الجمال في الآخر، ومن هنا حفل الشعر الجاهلي بالتجارب الإنسانية التي تكشف عن فرط إعجاب المحب بجمال المحبوبة، الذي منها ما هو حسي مثير، وما هو أخلاقي روحي هادئ.

وهناك صورة للغزل الرقيق الذي يشف عن أرق معاني الوجد والشوق والتصبر على مقتضيات البعاد، وهي أبيات لعنترة التي يقول فيها[1]:

إذا رشقتْ قلبي سهامٌ من الصدِّ

وبدَّلَ قربي حادثُ الدهر بالبُعدِ

لبست لها درعًا من الدهر مانعًا

ولاقيت جيش السوق منفردًا وحدي

وبت بطيفٍ منك ياعبلَ قانعًا

ولو بات يسري في الظلام على خدي

فبالله ياريحَ الحجاز تنفسي

على كبد حرّى تذوب من الوجد

ومما يبدو من تصوير المرأة عند شعراء الجاهلية أن هذه الصور كان يغلب عليها الطابع الحسي، حتى ليتحول إلى مجرد وصف مستقص للجماليات الحسية

(1)ديوان عنترة، ص -32.

في المرأة، وهذا مايبدو واضحًا في كثير من شعر امرئ القيس، ومنه ماجاء في معلقته خاصة حيث يقول[1]:

إذا قلتُ هاتي نوِّليني تمايلتْ
على هضيم الكشح ريَّا المخلخلِ[2]
مهفهفةٌ بيضاءُ غير مُفاضةٍ
ترائبها مصقولةٌ كالسجنجل[3]
كبكر مُقاناة البياض بصفرةٍ
غذاها نميرُ الماء غيرُ المحلَّل[4]
تصدُّ وتبدي عن أسيلٍ وتتقي
بناظرةٍ من وحشِ وجرةَ مُطفل[5]

وتبدو هذه الصورة واضحة في معلقة عمروبن كلثوم ومنه قوله:

تُريك إذا دخلت على خلاءٍ
وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعَي عَيطلٍ أدماءَ بِكرٍ
تربعت الأجارع والمتونا
وثديًا مثلَ حُقِّ العاج رَخصًا
حَصانًا من أكفِ اللامسينا

وتأتي صورة الغزل، تعني بالقيم الجمالية المادية في المرأة، ولكن لا فحش فيه ولا استثارة للغرائز الدنيا في الإنسان على نحو ما نجد في قول عمرو بن قميئة الذي جاء فيه[6]:

---

(1)ديوان (امرؤ القيس) ص 45 تحقيق حسن السندوبي.
(2)هضيم: الضامر. ريا: ممتلئ.
(3)الترائب: النحر. السجنجل: المرأة.
(4)بكر مقاناة البياض: الدرّة المشوب لونها بصفرة.-النمير: الصافي. غير المحلل: الذي لم يصبه ما يعكره.
(5)بناظرة من وحش: أي بعين بقرة وحشية ذات طفل.
(6)الشعر الجاهلي السياق والملامح – أهم قالقضايا – أبرز الأعلام دكتور صلاح رزق – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع. ص 191

لـهـا عـيـنُ حـوراءَ فـي روضـةٍ
وتـفـرو مـع الـنـبـت أرطًـى طِـوالا
وتُجـري الـسـواك عـلـى بـاردٍ
يـخـال الـسّـيـال ولـيـس الـسـيـالا
كـأن الـذوائـب فـي فـرعـهـا
حـبـالٌ تُـوصِّـل فـيـهـا حـبـالا
ووجـهٌ يَـحـار لـه الـنـاظـرون
يـخـالـونـهـم قـد أهـلّـوا هـلالا

أدرك العرب الجمال وتذوقوه، أدركوه في الطبيعة الجميلة التي تحيط بهم والتي أطلقت لألسنتهم العنان ليعبروا عما يختلج في نفوسهم، وأدركوه في المرأة فصوروها كما تمثلتها نفسهم، ولاشك أن جمال المرأة أنفس ألوان الجمال وأغلاها وأشدها تأثيرًا على النفوس، فاستحسنوا من المرأة الوضاحة والصباحة والهيف والرشاقة، وأحبوا أن تكون الرشيقة الهيفاء ضامرة الخصر ممتلئة الردفين، ومما يدل على النظرة الصائبة للعربي إلى جمال الجسد قول الأعرابي «اطلب لي امرأة بيضاء، ميدة فرعاء، جعدة[1]، تقوم فلا يصيب قميصها منها إلا مشاشة[2] منكبيها، وحلمتي ثدييها، ورنفتي[3] إليتها ورضاف[4] ركبتيها، إذا استلقت فرميت تحتها بالأترجة[5] العظيمة نفذت من الجانب الأخر فقال ابن عمه: وأنى بمثل هذه

(1) جعدة: محكمة الخلقة.
(2) مشاشة: رؤوس العظام.
(3) الرنفتان: أسفل الالية
(4) الرضاف: الجلد الذي على الركبة.
(5) الأترجة: ثمر كالليمون.

إلا في الجنان؟[1] والجميلة في نظر أعرابي آخر، » هي التي عذبت ثناياها وسهل خداها، ونهد ثدياها، والتف فخداها، وعرض وركاها، وجدل ساقاها فتلك هي النفس ومناها »[2].

موقف المجتمع الجاهلي من هذه الأشعار

إن الشاعر إنَّما يتغزل ليعبر عن عاطفة الحب للمرأة التي اختارها قلبه، وليعبر عن إعجابه بجمال هذه المرأة كما يراها هو لا كما يراها غيره، قد تكون المرأة جميلة في عينيه وقبيحة في عيني غيره، فيصور الشاعر مشاعره ويصف آلامه وآماله، ويكشف عن مستور حبه، والشاعر يتغزل بالمرأة التي يحبها؛ لأنه مدفوع بميله الفطري إلى التعبير عما بنفسه. ووسيلته لذلك هذا الشعر الصادق الرائع، يصور عاطفته كالرسام – الذي يرسم بدهانه وألوانه «والعرب أمة شاعرة، والشعر هو الفن الجميل الذي صوروا به عواطفهم، وقد بقي من شعرهم فيض غزير مختلف الألوان والخصائص» وكان المحب لا يدع الغزل وإن نزل به ما يكره، لأنه غير مختار في تنفيسه عن نفسه، ينفجر إذا كتم حبه أو بثه.

وكانت العرب تمنع الشعراء من قول الشعر في نسائهم وكانوا مدفوعين بغيرتهم على النساء، وحسبهم من الثأر من الشاعر أنهم حرّموه ما أمل، يدل ذلك قول أبي ليلى وهو يعزّي في قيس:

«ما علمنا أن الأمر يبلغ كل هذا، ولكني كنت امرأً عربيا أخاف من العار وقبح الأحدوثة ما يخافه مثلي، فزوجتها فخرجت من يدي، ولو علمت أن أمره يجري

(1) الغزل في العصر الجاهلي –للدكتور أحمد محمد حوفي –صفحة 34.
(2) المحاسن والأضداد لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري –قدمه وراجعه د.عاصم عيتاني، الطبعة الأولى 1986 – دار إحياء العلوم، بيروت ص 142.

على هذا ما أخرجتها عن يدي، ولا احتملت ماكان علي في ذلك[1] ولهذا حرم عنترة من عبلة لأنه صرح بحبها وتغزل بها، كما علم الإصبع بن محصن أن مالك بن الصمصامة يحب أخته جنوب، فحلف أن يقتله إن تعرّض لها أو زارها، وليأسرنَّه ثم لا يطلقه حتى يجزَّ ناصيته في نادي قومه إن ذكرها في شعر، ولكن مالك لم يطق أن يحبس غزله، فعرض نفسه للأسر وحلق الرأس ورأى ذلك أهون عليه من أن يحرم رؤيتها أو يدع الغزل فيها.

قال في قصيدته له:

فما الحلق بعد الأسر شربقيةً
من الصدِّ والهجران وهي قريبُ
أحقًّا عبادَ الله أن لست خارجًا
ولا والجٌ إلا عليَّ رقيب
ولا زائرًا وحدي ولا في جماعةٍ
من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبة في أن تحن نجيبةٌ
إلى إلفها أو أن يحنَّ نجيب

وقد أنذر عمر بن الخطاب الشعراء بجلد من يشبب بامرأة[2] والشاعر كان ينزل هذه العقوبة على نفسه، لأنه لا يستطيع أن يكتم مكنون نفسه، فكان يتغزل فيمن أحبها، وهو يعلم صرامة العقاب المُعدَّ له، ويفضل التغزل ليتخفف من الحب الذي يحمله على صدره، يتغزل ليسرَّ إلى صديقه، أو ليناجي ليلاه، فيشيع غزله بين الناس ويشتهر حبه فيرفض آل المحبوبة أن يزوجوه، لأن من عادات العرب

(1) كتاب الأغاني- الأصفهاني أبوالفرج علي بن الحسين، الطبعة الثانية، الجزء العشرون، صفحة 181.
(2) الغزل في العصر الجاهلي، د. أحمد محمد حوفي، ص 22.

أنهم لا ينكحون الرجل امرأة شبب بها قبل خطبته[1] وقد استمروا على هذا في جاهليتهم، على أن بعض العرب كانوا لا يفرقون بين شاعر تغزل وبين حبيبته التي خطبها، يدلنا على ذلك أن دريدًا بن الصمة رأى تماضر بنت عمرو – الخنساء– فأحبها وقال:

حيوا تماضرَ واربَعوا صحبي
وقفوا فإن وقوفَكُم حسبي
ما إن رأيتُ ولا سمعت به
كاليوم طالي أَينُقٍ جُرب[2]
متبذلاً تبدو محاسنُه
يضع الهناءةَ موضعَ النُّقب[3]
أَخُناسُ قد هام الفؤاد بكم
واعتاده داءٌ من الحبِّ

وخطبها إلى أبيها وقيل أخيها معاوية وكان صديقه فرحب به، ثم استشارها فرفضته لأنه شيخ كبير، ولم يرفضه أبوها أو أخوها، ولم ترفضه لأنه تغزل فيها قبل أن يخطبها، بل إن بعضهم تغزل في زوجته، وما حيلته إن كان يحب زوجته حبًّا حادًّا كما يحب حبيبته.

تغزل زهير بن أبي سلمى في زوجته أم أوفى وبدأ معلقته بالغزل بها:

أمن أمِّ أوفى دمنةٌ لم تكلّمِ
بحومانةِ الدرّاج فالمتثلَّمِ

(1) الغزل في العصر الجاهلي، د. أحمد محمد حوفي، ص 23
(2) طالي: طلوة: علته. –أينق: أيانق: من الناقة. –جرب: بثر يعلو أبدان الناس والإبل.
(3) الهناءة: ضرب من القطران توضع على جسد الناقة من الجرب. النقب: الثقب في أي شيء

كما تغزل امرؤ القيس في زوجته أم جندب[1]:

خـلـيـلـيَّ مـــرّا بـــي عـلـى أم جُـنـدبٍ
لـنـقـضـي حـاجـات الـفـؤاد المـعـذبِ
فـأنـكـمـا إن تـنـظـرانـي سـاعـةً
مـن الـدهـر تـنـفـعـنـي لـدى أم جـنـدب
ألـــم تـريـانـي كـلـمـا جـئـت طـارقًـا
وجـــدت بـهـا طـيـبًـا وإن لـم تـطّـيـب

*****

(1)ديوان امرئ القيس ص 47.

المبحث الثالث
نظرة المرأة الجاهلية لمجتمعها ونفسها من خلال أشعار بعض الرائدات في الشعر في العصر الجاهلي

كان من المهم أن نعرض الصور التي رسمتها المرأة لنفسها ولمجتمعها، في حالاتها النفسية المختلفة وهل كان للمجتمع دور في فرض رؤيته، أم أن المرأة رسمت لنفسها الصورة التي رغبتها، رغم أن المجتمع من حواليها كان مجتمعًا ذكوريًّا – يحتل فيه الرجل الفارس الشاعر مكانة عالية في سلم الأدوار الاجتماعية وتبقى الأنثى في أوقات كثيرة بعيدة عن دوائر الاهتمام.

من المفارقات أن المرأة الجاهلية التي كانت الضحية الأولى للسبي، والتي ذاقت ولامست معاناة السبي تفاخر بالسبي، في أشعارها عندما لا تكون هي ضحية السبي، فنظرتها لا تختلف عن نظرة مجتمعها فهي أداة إذلال مشروعة، وها هي الشاعرة جنوب الهذلية تجعل السبي من مآثر أخيها، عمرا ومن دلائل سيادته تقول[1]:

تمشي النسورُ إليه وهي لاهيةٌ
مشيَ العذارى عليهن الجلابيبُ
والمخرج الكاعب العذراء مذْعنة
في السبي ينفح من أردانها الطيب

(1)شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام- بشير يموت-- تحقيق عبدالقادر محمد مايو -الطبعة الأولى 1998- ص 150.

فلن تروا مثل عمرٍو ماخطَتْ قدمٌ
وما استحنَّت إلى أوطانها النِّيْبُ[1]

بل الأكثر غرابة عندما يكون الرجل الذي تمدحه المرأة الشاعرة بالسبي هو زوجها، الذي ستكون كل هؤلاء النسوة اللاتي سباهن تحت تصرفه والمرأة بطبيعتها غيورة جدا، رغم ذلك تمدح زوجها وكأنّها ميزة والشاعرة هي الخنساء تمدح زوجها فتقول[2]:

وسبيٍ كآرام الصَّريمِ تركتَهُ
خلال ديارٍ مُستكينًا عواطِلُهْ

وهذا دليل على أن المرأة كانت أداة ضغط مشروعة لا تعيب من يلجأ إليها، ولكن تعيب من يكون ضحيتها في مجتمع يؤمن بالقوة على إطلاقها ويكره الضعف، فالزوجة لا تنقم على زوجها أن يسبي بقدر ما تنقم عليه وتحتقره عندما لايستطيع منع نسائه من السبي والوقوع في أيدي الأعداء.

وقد تعرضت المرأة الشاعرة لعوائق صعبت اقتحامها مملكة الشعر، وساهمت هذه العوائق في منع المرأة من قول الشعر، وبالتالي ساهم هذا في عدم ظهور الشعر النسوي وعدم الاحتفاء به. وأدى هذا بدوره إلى محدودية الأغراض الشعرية التي طرقتها، وأهم العوائق التي صعبت اقتحامها لعالم الشعر هي:

تحتاج المراة إلى تقمص الذكورة لكي تكتب شعرا لايتصف بالليونة التي تمثل إحدى أهم سمات الأنثى وعندما يلين الشعر يعد ضعفا «لذلك قال بشار: لم تقل امرأة شعرا قط إلا تبين الضعف فيه، فقيل له: أو كذلك الخنساء؟ قال تلك لها أربع خصي «فهو يصف الشعر النسوي بصفة الضعف التي كانت أكثر ما يعيب الشعر، وميز الخنساء عن بنات جنسها بأن لها أربع خصي، أي أنها مميزة.

(1) الأردان: الأكمام. النيب: جمع الناب وهي الناقة المسنة.
(2) الرجل في شعر المرأة – د عمر عبدالعزيز السيف– –ص 126–

الرجل في أشعاره يتطرق إلى أغراض مختلفة، أما المرأة فالقيم الاجتماعية تحصرها في أغراض محددة فالمجتمع لايقبل من المرأة أن تتغزل بالرجل وتصف الخمر.

افتقار المواضيع الشعرية في الجاهلية إلى ما تمتاز بها المرأة ويخصها – فمواضيع الشعر الجاهلي التقليدي لاتناسب طبيعة المرأة فليس فيها مواضيع الأمومة والشؤون الاجتماعية، ويمكن أن يكون السبب في ذلك المرأة نفسها التي لم تستطع فرض ذاتها الأنثوية باستحداث مواضيع شعرية تخصها».

وقصة تحكيم أم جندب، بين زوجها امرئ القيس وعلقمة حين طلبت من كل منهما أن يصف فرسه تكشف عن معرفة مهمة غير معلن عنها، فقد بدأ امرؤ القيس قصيدته بقوله[1]:

خَـلـيـلَـيَّ مـــرّا بـــي عـلـى أم جُـنْـدُبٍ
أُقَـــضِّ لُـبـاَنـات الـفـؤادِ المـعـذّبِ [2]

وقال: علقمة قصيدته التي مطلعها:

ذهـبْـتِ مـن الـهـجـران فـي غـيـر مـذْهـب
ولـــم يـك حـقًـا كـل هـــذا الـتَّـجَـنُّـبِ

فغلّبت علقمة، وقالت لامرئ القيس: فرس ابن عبدة أجود من فرسك. زجرت وضربت وحرّكت ساقيك، وابن عبدة جامد لا مقتدر» وهذه القصة تكشف لنا أن المرأة كانت المتلقي الذي يتجه الفحلان لإرضائه في هذه المصارعة البيانية بين هذين الفحلين فكان الطلاق هو ما استحقته المرأة عندما أعجبت بشعر غير زوجها، فالمرأة اجتماعيا لا تستطيع أن تتغزل ولا أن تمدح، إضافة أن الشعر أصبح

(1) الرجل في شعر المرأة د. عمر عبدالعزيز السيف، ص 113.
(2) القض: مذاق الأمور –واللبانة مابين الصدر.

ممارسة فحولية يختال خلالها الفحل أمام الأنثى، مع أن المرأة كانت تعاني غالبًا، من النظرة الدونية من مجتمعها، شفقة من الأقارب، واستحقارًا من الأباعد.

تركت المرأة الأم بصمتها على أولادها، فكان لها فضل كبير في تنشئة أولادها طلاب مجد وأمثال عالية في الشجاعة، لأنها كانت تعلم قيمة القوة في هذه البيئة الوعرة، كما كانت تعلم قيمة الفتى المقدام عند القبيلة فالمرأة تنتظره ليدافع عنها، ويدفع عنها كيد الأعداء، لهذا كانت المرأة ترضع طفلها مع لبنها صفات المجد، وطلب السؤدد، فينشأ والعزة تفيض من فؤاده. قالت ضباعة بنت عامر بن قرط بن سلمة بن قشير وهي ترقّص ابنها المغيرة ابن سلمة[1]:

نمـــى بـــه إلـــى الـــــذُّرَى هـشـام
قَـــــــرْمٌ وآبـــــــاءٌ لـــه كـــرامُ
جـحـاجـحُ خـــضَـــارِمٌ عِـــظَـــامُ
مـــن آلِ مـــخـــزومٍ هُـــمُ الأعـــلام[2]
الـــهـــامـــة الـــعـــلـــيـــاءُ والـــسِّـــنـــامُ

ومثلها فعلت أم الفضل بنت الحارث عندما كانت ترقّص ولدها عبدالله بن العباس:

ثـكـلـت نـفـسـي وثـكـلـت بـكـري
إن لـم يـسـد فـهـرًا وغـيـر فهرِ[3]
بـالحـسـب الـعـدِّ وبـــذل الـوفـر
حـتـى يُـــوارَى فـي ضـريـحِ الـقـبـرِ

---

(1) مظاهر القوة في الشعر الجاهلي، أ.د. حنا نصر الحتي- ص 273

(2) جحاجح: جمع جحجح، وهو السيد المسارع إلى المكارم. خضارم: جمع خضرم، وهو السيد الكريم الشبيه بالبحر.

(3) مظاهر القوة في الشعر الجاهلي د. حنّا نصر الحتي.

وكذلك قالت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان عندما كانت ترقص ولدها معاوية[1]:

إنَّ بُـــنَـــيَّ مُـــعْـــرقٌ كـــريمٌ
مـــحـــبَّـــبٌ فـــي أَهْـــلـــه حـلـيـمُ
لـــيـــس بـــفـــحّـــاشٍ ولالـــئـــيـــمُ
ولا بـــطـــخـــرور ولاســـــــؤوم[2]
صـــخـــر بـــنـــي فـــهـــرٍ بـــه زعـيـم
لا يـخـلـف الـــظَّـــنَّ ولايَـــخِـــيـــم[3]

فلم تكن المرأة تدلل ابنها ذلك الدلال الذي يضعف شخصيته ويسيء إلى مستقبله، بل كانت تدفعه إلى طريق الشرف والّرئاسة، واقتفاء آثار الأبطال. وكان حضورها النقدي كان في معظمه صامتًا، وعندما أتي العصر الأموي الذي كان قريبا بروحه من العصر الجاهلي تعود الأنثى إلى ممارسة دورها في تلقي الشعر ونقده، ففي العصر الجاهلي كان دور المرأة صامتا للشعر، وموجها توجيهًا مسموعًا للشعر في موضع واحد كما في قصة أم جندب.

والظروف المقيدة لشاعرية المرأة جعلت بعض الأغراض – كالرثاء – والفخر أكثر حضورا في شعرها، وكانت الشاعرة لا تقف على الأطلال ولا تصف رحلة – بل تتناول غرضها مباشرة، والمرأة لم تكن تطرق في القصيدة الواحدة أغراضا مختلفة، ومن أهم وأبرز الأغراض التي تناولتها المرأة الرثاء، وهو غرض ملتصق بالنساء، فالمرأة كانت تشق الجيوب وتلطم الخدود وتعدد مآثر فقيدها، والتحريض هو الهدف الأكبر من وراء رثائهم للفقيد؛ لأن الشاعرة ترثي القريب (الأب – الأخ

(1)مظاهر القوة في الشعر الجاهلي، أ.د. نصر الحتي ، ص 274 .
(2)طخرور: يقال للرجل إذا لم يكن جلدًا ولاكثيفًا.
(3)يخيم: يجبن.

أو الزوج أو الابن أو غيرهم) وتحرض على قتل قاتله ليرتاح في قبره وترتاح هي في دنياها، وكانوا يعتقدون في الجاهلية، أن من يقتل ولا يؤخذ بثأره يظمأ في قبره، لذلك كثر في شعر المرأة التحريض على أخذ الثأر، واللوم على التقاعس عن ذلك، وكانت المرأة تشد من عزائم الرّجال بما تنشد من أناشيد حماسية. حتى إذا قتل فارس ندبته ندبًا حارًّا حاضات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته.

وهذه كبشة أخت عمرو بن معد يكرب تعيّر قومها لتكاسلهم في إدراك الثأر، وتحرضهم على الامتناع عن قبول الدية، لأن في ذلك عارًا وضعفًا[1]:

وأرسل عبدالله إذ حان يومُهُ
إلى قومه لا تعقلوا لهم دمي
ولا تأخذوا منهم إفالاً وأبْكُرًا
وأُتْرَكُ في بيْتٍ بصعْدَة مُظْلِم [2]
ودعْ عنك عمرًا إن عمرًا مُسالمٌ
وهل بطنُ عمرٍ غيرُ شبرٍ لِمَطعَم
فإن أنتم لم تثأروا واتّدَيْتُمْ
فَمُشُّوا بآذانِ النَّعام المُصَلَّمِ
وَلاَ تَرِدُوا إلا فُضول نسائكم
إذا ارْتَملتْ أعقابُهُنَّ مِنَ الدَّم

وربما وصل اللوم حد الاستهزاء والاستهانة لاستنهاض الحمية داخل نفس الرجل وقد كانت أبيات البسوس الجمرة التي أشعلت الحرب عندما خاطبت ابن أختها[3]:

---

(1) مظاهر القوة في الشعر الجاهلي، أ.د. حنا نصر الحتي –ص 277

(2) الإفال: جمع أفيل، وهومن أولاد الإبل ما بلغ سبعة أشهر. صعدة اسم موضع. اتديتم: قبلتم الدية. المصلم: المجدّع.

(3) الرجل في شعر المرأة – عمر بن عبدالعزيز السيف –الطبعة الأولى 2008 ص 148

لـعـمـرك لـو أصـبـحـتُ فـي دار مـنـقـذٍ
لـمـا ضـيـمَ سـعـدٌ وهـو جـارٌ لأبـيـاتـي
ولـكـنـنـي أصـبـحـت فـي دار غُـربـةٍ
مـتـى يـعـد فـيـهـا الـذئـب يـعـد عـلـى شـاتـي
فـيـا سـعـدُ لا تـغـرر بـنـفـسـك وارتـحـل
فـإنـك فـي قـوم عـن الجـار أمـوات
ودونـك أذوادي فـإنـي عـنـهـمُ
لـراحـلـةٌ لا يـفـقـدونـنـي بـنـيـاتـي

والشاعرة هنا ترى بني مرة غير قادرين على حماية أنفسهم ناهيك عن حماية جارهم. ولهذا يعدّ التحريض من أخطر الأغراض الشعرية، وقد سبب حروبًا وعداوات ومآسي أضرمها شعر التحريض الذي أتقنته المرأة جيدًا.

ويوازي شعر التحريض على أخذ الثأر الأشعار التي تنشدها النساء في ساحات المعارك لحض الرجال على الاستبسال، ولاشك بأن وجود المرأة أمر يدعو الرجل للاستبسال في الدفاع، وتعرف المرأة جيدًا كيف تثير حمية الرجل، ففي يوم ذي قار أنشدت النساء تحضُّ الناس[1]:

إن تـهـزمـوا نـعـانـق
ونـفـرش الـنـمـارق
أو تُـهـزمـوا نـفـارق
فـراق غـيـر روامـق

كانت المرأة كثيرا ما ترثي فقيدها فعند فقد انسان عزيز ينطلق لسانها بالرثاء لفقيدها، ومن شاعرات تلك الحقبة الخنساء، وجليلة بنت مرة.

(1)أشعار النساء، للمرزباني –أبوعبدالله محمد بن عمر تحقيق سامي مكي العاني وهلال ناجي، بيروت، عالم الكتب 1415 ص 130

الخنساء

هي تماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد السلمي. اشتهرت الخنساء بأنها أعظم شواعرالعرب، نشأت وترعرعت في بني سليم وهي قبيلة نشأ فيها شعراء منهم الشاعر زهير بن أبي سلمى. ولم يكن لها إخوة سوى معاوية شقيقها وصخر أخيها لأبيها، وصخر هو الذي أكثرت فيه الرثاء، وكانت محببة عند أخويها، فآثراها بحبهما، ومن ثم كانت الصلة بينها وبين أخويها قوية، وأثر فقد الأخوين عليها تأثيرًا موجعًا خطيرًا، وهذا ما يصوره لنا شعرها أصدق تصوير[1].

كانت الخنساء تقف بالموسم فتسوم هودجها بسومة وتعاظم العرب بمصيبتها بأبيها عمرو وأخويها صخر ومعاوية فتتشدهم فتبكي الناس، ولا عجب في ذلك فقد طلب منها ذات مرة وصف أخويها صخر ومعاوية، قالت: كان صخر والله جنة الزمان الأغبر وزاف الخميس الأحمر وكان معاوية والله القائل والفاعل، قيل لها فأيهما كان أسنى وأفخر ؟ قالت أما صخر فحر الشتاء وأما معاوية فبرد الهواء، قيل لها: فأيهما أوجع وأفجع ؟ قالت أما صخر فجمر الكبد وأما معاوية فسقام الجسد، ثم أنشدت[2]:

أســـــدانِ مُـحـمـرّا المـخـالـب نجـدةً
بـحـرانِ فـي الـزمـن الـغـضـوب الأغـبـرِ
قـمـران فـي الـنـادي رفـيـعـا مَـحـتـدٍ
فـي المـجـد فـرعـا ســـؤدٍ مُـتـخـيّـر

واشتهرت بلقب الخنساء وأجمع أهل العلم بالشعر أنها كانت أشعر النساء، وأنه لم تكن امرأة قط أشعر منها. وهي شاعرة مخضرمة شهدت الجاهلية والإسلام، وأكرمها الله بالإسلام حيث دخلت الإسلام مع قومها والخنساء معروفة

(1)مائة شاعر وقصيدة –للكاتب صلاح الإمام – 1998الطبعة الأولى –مكتبة جرير ص 57.
(2)ديوان الخنساء تقديم وشرح وتعليق الكتور محمد محمود الطبعة الأولى –1998ص 16.

بموقفها إزاء استشهاد أبنائها الأربعة في معركة القادسية إذ قالت حينما بلغها نبأ استشهادهم: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته، وهذا يبين لنا مدى إيمانها لو قارنا موقفها من موت أخويها وكيف أنها ظلت تبكيهم إلى أن كرمها الله بالإسلام والابن أغلى من الأخ فكيف إذا كانوا أربعة في وقت واحد. تقول الخنساء في رثاء أخيها صخر[1]:

يـاعَـينِ مـا لَـكِ لا تـبـكـيَن تَـسـكـابـا ؟

إذ راب دهـرٌ وكـان الـدهـر ريّابا[2]

فـابـكـي أخـــاك لأيـتـام وأرمـلـةٍ

وابـكـي أخـاك، إذا جـاورت أجنابا[3]

وابـكـي أخـاك لخـيـل كـالـقـطـا عصبا

فـقـدن لَّـا ثـوى، سـيـبـا وانهابا[4]

يـعـدو بـه سـابـحٌ، نـهـدٌ مـراكـلُـهُ،

مُـجَـلـبَـبٌ بـسـواد الـلـيـل جِلبابا[5]

حـتـى يـصـبـح أقـوامًـا، يـحـاربـهـم

أو يسلبوا، دون صف القوم، أسلابا[6]

---

(1) ديوان الخنساء تقديم وشرح وتعليق الكتور محمد محمود، الطبعة الأولى 1998ص27.

(2) التسكاب: مصدر سكب، وسكب الدمع: صبه. راب الدهر فلانا: أراه ما يكره. الرياب: الكثير. الريب، المفزع.

(3) الأجناب واحدها جنب: الغريب.

(4) عصبا: جماعات: القطا طيور في حجم الحمام واحدتها قطاة، يضرب بها المثل في الهداية فيقال: أهدى من القطا. السيب: العطايا، الأنهاب، واحدها نهب: الغنيمة، شبهت الخيل التي خلفها صخر بالقطا فهي عصب صارت معرضة للسلب والنهب من بعده لأنه فارسها وحاميها.

(5) السابح: الفرس السريع الجريء، كأنه يسبح بيديه في جريه. النهد: الفرس الحسن الجميل الجسم. مراكله، واحدها مركل: حيث تصيب الرجل من الدابة إذا ركلت، أي ضربت بالرجل وفرس نهد المراكل: أي واسع الجوف عظيم المركل. مجلبب: عليه الجلباب وهو الثوب المشتمل على الجسد كله.

(6) يصبح القوم: يدركهم في الصباح. الأسلاب: جمع سلب وهو ما يغنم من القتيل من ثياب وسلاح ودابة. الحامي حقيقته: أي يحمي ما لزمه الدفاع عنه.

هـو الـفـتـى الـكـامـلِ الـحـامـي حـقـيـقـتَـهُ

مـأوى الـضَّـريـكِ، إذا مـا جـاء مُنتابا[1]

وتقول في رثاء أخيها صخر[2]:

أعـيـنـي جـــودا ولا تَجـمُـدا

ألا تـبـكـيـانِ لـصـخـر الـنـدى

ألا تـبـكـيـان الجـــوادَ الجـمـيـلَ

ألا تـبـكـيـان الـفـتـى الـسـيـدا

طـويـلَ الـنـجـادِ رفـيـعَ الـعـمـادِ

وســـاد عـشـيـرتـه أمـــردا

إذا الـقـوم مـــدوا أيـاديـهـم

إلـــى المـجـد مـد إلـيـه يـدا

فـنـال الـــذي فـــوق أيـديـهـم

مـن المـجـد ثـم مـضـى مُـصـعِـدا

يـحـمّـلُـه الـقـومُ مـا عـالُـهـم

وإن كـــان أصـغـرهـم مـولـدا

وإن ذكـــر المـجـد ألـفـيـتَـهُ

تـــأزر بـالمـجـد ثـم ارتـــدى

وهكذا ترثي الخنساء أخاها الذي أحبته، وهذه كانت عادتهم عند فقد العزيز، فتطلب الخنساء من عينيها أن تجودا وأن لا تبخلا بالدمع على هذا الكريم الجواد، كما تشيد بجمال أخيها وعزته في قومه، فوصفته بطويل النجاد، وهو كناية عن

(1)الضريك: الضرير والفقير والسيء. المنتاب: الذي يأتي مرة بعد أخرى، تصف أخاها بالشجاعة والكرم والإباء.

(2)ديوان الخنساء –ص 17.

طول القامة، لأنه كلما كانت حمائل السيف طويلة كان هذا دليلا على طول قامة صاحبه، فعددت الخنساء في القصيدة كل الصفات الجميلة لأخيها، من جمال وسيادة، وشرف بين القبيلة، ويساعد قومه على بلوغ المجد والعزة فهو إذا ارتفع رفع القبيلة معه رغم صغر سنه فالقوم يكلفونه بما عجزوا عن القيام به، وهو يرى أن أفضل ما يكسبه منهم هو الحمد، وأنه اتخذ المجد سترًا له.

جليلة

هي جليلة بنت مرَّة وهي أخت جساس بن مرّة وزوجة كليب وائل التغلبي. كان زوجها كليب كثير الفخر بنفسه أمامها وكثير التعريض بأهلها حتى رماه أخوها جساس فقتله بسبب ناقة خالته البسوس.

عندما قتل أخوها زوجها غادرت لأهلها وهي آسفة وحزينة، فقالت لها أخت كليب كلامًا مضمونه أنها ترحل رحيل الشامت، فقالت تجيبها[1]:

يـــاابـــنـــة الأعـــمـــام إن لمـــت فـلا
تـعـجـلـي بـالـلـوم حـتـى تـسـألـي
فـــــإذا أنـــــت تـبـيـنـت الـــذي
يـوجـب الـلـوم فـلـومـي واعـذلـي
إن تـكـن أخـــت امـــرئ لِـيـمَـت عـلـى
شـفـق مـنـهـا عـلـيـه فافعلي[2]
جـــلَّ عـــنـــدي فـعـلُ جـســاس فـيـا
حـسـرتـي عـمًّـا انجـلـى أو يـنـجـلـي

(1) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام – تأليف بشير يموت تحقيق وتنقيح وشرح عبدالقادر مايو، ص 52–53.
(2) الشفق: الإشفاق والتحنن.

فـعـلُ جـسـاسٍ عـلـى وجـدي بـه
قـاطـعٌ ظـهـري ومُـدْنٍ أَجـلـي
لـو بِـعـيـنٍ فُـديـت عـيـنـي سـوى
أخـتـهـا فـانـفـقـأت لـم أحـفِـلِ[1]
تحـمـل الـعـين أذى الـعـين كـمـا
تحـمـل الأم أذى مـا تـعـتـلـي
يـا قـتـيـلاً قـوَّض الـدّهـرُ بـه
سـقـف بَـيْـتـيَّ جـمـيـعـا مـن عَـل
هـدم الـبـيـت الـذي اسـتـحـدثـتـه
وانـثـنـي فـي هـدم بـيـتـي الاوّلِ
ورمـانـي قـتـلـه مـن كـثـبٍ
رمـيَـة المـصـمـي بـه المستَأْصل[2]
يـا نـسـائـي دونـكـنَّ الـيـوم قد
خـصـنـي الـدهـر بِـرزْء معضِل[3]
خـصّـنـي قـتـل كـلـيـب بـلـظـىً
مـن ورائـي ولـظـىً مُـسـتـقـبـلـي
لـيـس مـن يـبـكـي لـيـومـيـه كمن
إنّمـا يـبـكـي لـيـومٍ يـنـجـلـي
يـشـتـفـي المـدرك بـالـثـأر وفـي
دَرَكـي ثـأري ثُـكـلُ المـثْـكِـل

(1) لم أحفل: لم أهتم
(2) من كثب: من قرب. المصمي: المفتول.
(3) الرزء: المصاب. المعضل: الثقيل المبهظ. اللظى: لهب النار

لِـيـتـه كـان دمـي فـاحـتَـلِـبـوا
دررا مـنـه دمـي مـن أَكْـحُـلـي
فـأنـا قـاتـلـة مـقـتـولـة
ولـعـلَّ الـلـهَ أن يـنـظـر لـي

قالت جليلة هذه الأبيات ردًّا على أسماء أخت كليب التي أهانتها عند رحيلها قائلة: رحلة المعتدي وفراق الشامت، ويل غدا لآل مرة، من الكرة بعد الكرة ! وفي هذه الأبيات تبين لنا الشاعرة أنها تعيش صراعًا لا حدود له بين مجموع من الأحزان بدت عاجزة عن تحمله بل هي عاجزة حتى عن تحمل اللوم، أو هدم بيتها وموت زوجها وجرم أخيها الكبير وثأر أهل الزوج منه، ولم يبق لها إلا الاستسلام للقهر فهي قاتلة مقتولة فتتمنى الموت والخلاص من هذا العذاب الذي وضعها فيه أخوها.

وردت عليها أسماء[1]:

أخـتَ جـسّـاسٍ تَـواري وارحـلـي
عـن فـنـانـا الـيـوم ثـم انـتـقـلـي
أنـت ألـقـيـتِ وأغـريـت بـنـا
سـتـريْ مـنّـا ضِـرامَ الـشُّـعُـلِ
كـنـت بـالأمـس تـغـريـنَ أخـي
وتُمـنـيـه بمـا لـم يـفـعـل
وتـقـولـينَ أخـي صـهـرُكَ مـا
مـثـلُـه ممـن أرى بـالمـعـبـل

(1)الشعر النسائي في أدبنا القديم للدكتورة مي يوسف خليف-دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص78.

يـابـنـي بـكـرٍ هـلُـمُّـوا شـمِّـروا
سـوف نـفـنـيـكُـم غـدًا بـالمـنـصـلِ
بـرجـالٍ لـيـس فـيـكـم مـثـلُـهُـم
مـن بـنـي تـغـلـب تحـت الـقَـسـطـل

وأبيات أسماء تفيض غضبًا وانفعالاً وتهديدًا ووعيدًا، وكأنها تقوم بتعبئة حربية كاملة، آملة في تحقيق حلمها وهو الثأر من قتلة أخيها، وكلتا القصيدتين توضح ارتباط المرأة بأهلها ورحيلها إليهم.

وأيضًا في حرب البسوس، نجد أمامة بنت كليب بعد نكبتها بأبيها، تحفز عمها المهلهل على ضرورة الثأر قائلة في حدة وعنف[1]:

أتـلـهـو بـالمـلاهـي والخـمـورِ
ولا تـدري بـعـاقـبـة الأمـورِ
ولا تـدري بـأن كُـلـيـب أضـحـى
قـتـيـلا عـنـد جـسّـاس الـغَـدور
فـواعـجـبًـا لجـسـاسٍ وعـمـرٍو
لـقـد جـسـروا عـلـى أمـر نـكـير
فـبـادر نـحـوه فـلـقـد تـرامـت
إلـيـه الآن شـجـعـانُ الـنـظـير

الغزل النسائي

أما الغزل الذي يعد من الأغراض المهمة في شعر الرجل؛ لأن النسيب يدخل في مقدمات معظم القصائد، ويقابل هذا الغزل الكثيف من قبل الرجل ندرة واضحة في غزل المرأة ويعود امتناع المرأة عن الغزل إلى الفطرة في أن تطرب المرأة

(1) الشعر النسائي في أدبنا القديم للدكتورة مي يوسف خليف –ص 80.

للشعر الغزلي الذي يرضي أنوثتها، فتكتفي بتذوقه وتشجع عليه وارتضت لنفسها دور أن تكون المعشوقة التي يتقدم إليها الرجل بأبيات غزلية طالبا ومتمنيا وصالها، والمرأة تستطيع كتمان مشاعرها عندما تحب وذلك لشدة خوفها من العار، ولكنها تظهر بغضها بوجهها ولسانها. لأن إظهار المرأة في مظهر العاشقة يعتبر إساءة لها، فتصريحها بحب الرجل وطلب الوصل منه يعتبر اعترافًا معيبًا لها من قبل المجتمع الذي فرض عليها كتمان مشاعرها وعدم البوح بها، فشعرها وتغزلها بالرجل يعد اعترافًا منها بوجود علاقة يرفضها المجتمع لا سيما إذا كانت المرأة هي المبادرة. وقد تغنى الرجل بالمرأة التي تتفنن في تعذيبه، ورفض الارتباط بالمرأة التي تقبله بسهولة. يقول السليك بن السلكة[1]:

من الخفرات لم تفضح أخاها

ولم ترفع لوالدها ستارا

يعاف وصال ذات البذل قلبي

واتبع الممنعة النوارا

فهو يفضل الممنعة التي لم تفضح أخاها أو أباها على الباذلة، وشارك في كره الباذلة العقل والقلب معا. والمرأة كالرجل تحب؛ لأن لها قلبا ينبض كالرجل فهي تحب وتتشوق وتتذكر حبها وتتمنى وصاله، فإذا كانت شاعرة فالمتوقع أن تتغنى حبها في الشعر- ولكن الذي منعها أن النساء مطبوعات على الاستحياء من الجهر بحبهن.

صور من غزلها وقد تكشف المرأة عن حبها متناسية العقاب الذي سيقع بها من الرجل، من ذلك أن رجلا من بني عقيل تزوج امرأة من قبيلته، دخل يوما وهي تتمثل بيت غزل، فقال لها: ماهذا الذي تتمثلين به لعلك عاشقة، قالت لا ولكن

(1) الأغاني-الأصفهاني أبوالفرج علي بن الحسين الطبعة الثانية، الجزء العشرون، ص- 384 دار إحياء العرب 1418 هـ.

أبيات حضرتني. فقال لئن سمعتك تعودين إلى مثل هذا لأوجعنّ ظهرك وبطنك فأنشأت تقول:

فإن تضربوا ظهري وبطني كليهما

فليس لقلبٍ بين جنبيَّ ضاربُ

يقولون عَزِّ النفس عمن تودُّه

وكيف عزاء النفس والشوقُ غالبُ

فطلقها الزوج[1].

وكانت امرأة واسمها سعدى الأسدية تهوى ابن عم لها فأحبها فمنعه أبوه من الزواج بها، وزوجها أبوها من رجل آخر فاشتد وجد ابن عمها فأرسل لها بيتين يشكو فيهما حبه فأجابته[2]:

حبيبيَ لا تعجل لتفهم حجتي

كفانيَ ما بي من بلاءٍ ومن جهدِ

ومن عَبَرَاتٍ تعترينيَ وزفرةٍ

تكاد لها نفسي تسيل من الوجد[3]

غُلبت على نفسي جهارا ولم أُطق

خلافًا على أهلي بهزل ولا جد

ولن يمنعوني أن أموت برُغمهم

غدًا جوف هذا الغار في جدثٍ وحدي [4]

---

(1) شاعرات القبائل العربية: أبوعبدالله محمد بن عمران المرزباني – تحقيق سامي مكي العاني، الطبعة الأولى 2007 م ص 76.

(2) مصارع العشاق –الجزء الأول أبومحمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج – بيروت دار صادر ص 266–.

(3) العبرات: الدمعات. الوجد: شدة الشوق والهيام.

(4) الجدث : القبر.

فـلا تـنـس أن تـأتـي هـنـاك فتلتمس

مـكـانـي فـتسلـو مـا تحـمـلـت مـن جـهـدِ

فماتت وكانت شهيدة حب ابن عمها فجاءها ابن عمها في الموعد فوجدها ميتة، فاحتملها إلى شعب بذي جبل وضمها ملتزما لها فمات ثم إن بعضهم وجدهما فأخبر عنهما فدفنوهما.

كما باحت امرأة من خثعم بحبها لكعب بن طارق الشجاع الباسل:

فـإن تـسـألـونـي مَـن أحـبُّ فإنـنـي

أحـب - وبـيـتِ الـلـهِ - كـعـبَ بـنِ طـارقِ

أحـب الـفـتـى الجـعـد الـسـلـولـي نـاضـلا

عـلـى الـنـاس مـعـتـادًا لـضـرب المفارقِ[1]

وقالت هند بنت الخُسّ في رجل تحبه[2]:

أشـمُّ كـنـصـلِ الـسـيـف جـعـدٌ مـرجّـلُ

شـغـفـتُ بـه لـوكـان شـيـئًـا مـدانـيـا

وأقـسـم لـوخُـيِّـرت بـين لـقـائـهِ

وبـين أبـي لاخـتـرتُ أن لا أبـا لـيـا

وقد تبتلي المرأة بالطلاق من زوجها الذي تحب، فلا تفتأ تتشوق إليه كزينب بنت فروة المرية، كانت عند ابن عم لها اسمه المغيرة فجرى بينهما نزاع فطلقها فقالت:

يـاأيـهـا الـراكـب الـغـادي مطيـتـه

عـرّج أنـبـيـك عـن بـعـض الـذي أجـد

مـا عـالـجَ الـنـاس مـن وجـدٍ ومـن كمد

إلّا ووجـدي بـه فـوق الـذي وجـدوا

(1) المصدر السابق 255.

(2) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ص117.

حسبي رضاه وأني في مسرّته

وودّه آخر الأيام أجتهدُ[1]

وفي رواية أخرى نسبت هذه الأبيات لامرأة تدعى أم الضحاك المحاربية كانت متزوجة رجلا من الضِّباب يدعى عطية، وأحبته حبًّا شديدا، وما لبث أن طلّقها فعاشت أمدا تندب حبه، إلى أن سلاها طول الفراق.

فقالت[2]:

يأيها الراكب الغادي لطيَّته

عرّج أبُثك عن بعض الذي أجد

ما عالج الناس من وجد تضمنهم

إلا ووجدي به فوق الذي وجدوا

حسبي رضاه وأنَّي في مسرَّته

ووجده آخر الأيام أجتهد

وفي الأبيات التالية تستفسر الشاعرة عن الحب عند المحبين الذين تحملوا آلام الشوق والبعد فتسأل وتجيب نفسها أنه لاشفاء للحب إلا بحب آخر أو بالبعد عن الحبيب أو اليأس عن الحبيب في أن يبادله الحب[3]

سألت المحبين الذين تحمّلوا

تباريحَ هذا الحب في سالف الدهرِ

فقلت لهم مايذهب الحب بعدما

تبوأ ما بين الجوانح والصدر

فقالوا شفاء الحب حب يزيله

من آخر أو نأي طويل على هجر

(1)المرأ ة في الشعر الجاهلي للمؤلف أحمد محمد الحوفي-ص 659.

(2)شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام بشير يموت، تحقيق عبدالقادر محمد، مايو ص94

(3)المرجع السابق ص 95.

أو اليأس حتى تذهل النفس بعدما

رجت طمعًا واليأسُ عونٌ على الصبرِ

وكانت المرأة تكره الطلاق وإن كانت قد زفت إليه مرغمة وها هي امرأة.

تزوجها سعد بن قرظ من بني جذيمة على كره منها، وهو ابن شاعرة تدعى أم نحيف فلما أراد سعد تطليقها منعته قائلة[1]:

لَعَمْرِي لقد أخلَفْتَ ظَنِّي وسؤْتنِي

فَحُزت بِعصياني الندامة فاصْبرِ

ولا تك مطْلاقًا ملولاً وسامح الْـ

ـقرينةَ وافْعَل فعلَ حُرٍّ مُشَهَّرِ[2]

فقد حُزت بالورهاءِ أخبث خُبْثةٍ

فدعْ عنْك ما قد قلت ياسعدُ واحذَر[3]

تربَّص بها الأيام علَّ صُروفها

سترمي بها في جاحم مُتسعِّر[4]

فكم من كريم قد مناه إلهُهُ

بمذمومة الأخلاق واسعة

فطاوَلها حتى أتتها منية

فصارت سفاة جُثوةً بين أَقْبُر[5]

فاعقب لما كان بالبر مُعصما

فتاة تمشي بين إتب ومئْزر[6]

(1) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام. تأليف: بشير يموت تحقيق عبدالقادر محمد مايو –الطبعة الأولى 1998م–دار القلم العربي –ص 154.

(2) كثير الطلاق لزوجاتك مطلاقًا.

(3) الورهاء: السمينة أو خبيثة الريح.

(4) جاحم: موقد نار. متسعر: متقد.

(5) سفاة: خفيفة كذرّة الغبار. جثوة: كومة تراب.

(6) الإتب: قميص بلا كمّين.

مهفهفة الكشحين محطوطة المطا

كهمِّ الفتى في كل مبدى ومحضر[1]

لها كفل كالدعص لبّده الندى

وثغر نقي كالأقاحي المنوّر[2]

وقد كانت المرأة تبدي رأيها في شريك الدرب وتتوق للزواج من فتى أحلامها الذي له مواصفات خاصة بها كما تتوق لليوم الذي ترحل فيه عن بيت أبيها لبيت زوجها، منها أنه كان لذي الإصبع العدواني بنات أربع قد عقلهن فلم يزوجهن، فاستمع إليهن مرّة فإذا بهن يتناجين بأمانيهن فقالت إحداهن[3]:

ألا ليت زوجي من أناسٍ ذوي غنى

حديث الشباب طيب النشر والذكر

لتصوق بأكتباد النساء كأنه

خليفة جان لا ينام على وتر

وقالت الثانية:

ألا ليته يعطي الجمال بديئة

له جفنة تشقي بها النيب والجزر[4]

له محكمات الدهر من غير كبرة

تشين فلا فان ولا ضرع غمر[5]

وقالت الثالثة:

ألا هل تراها مرة وحليلها

أشم كنصل السيف عين المهند

(1) المطا: الظهر. كهم الفتى: كمطلب الفتى وغايته. المبدي: موطن البدو. المحضر: موطن الحضر.

(2) الكفل: مجمع الردفين. الدعص: تلة الرمل. الأقاحي: زهر ربيعي أبيض.

(3) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ص 89-90

(4) الجفنة: قصعة الطعام. النيب: النوق. الجزر: الإبل الذبيحة.

(5) ضرع: ذليل. غمر: خامل الذكر.

عـلـيـمـا بـــأدواء الـنـســاء ورهـطـه

إذا مـا انتمى من أهـل بيتي ومحتدي[1]

وقالت الرابعة:

زوج من عود خير من قعود «فزوجهن جميعًا» وكانت المرأة الحرة تغضب عندما تمس الإهانة شرفها، ومن ذلك أن زوجة الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، ولدت له ولدا أشقر فأنكره، وخرج مغضبا، فلم يأتها أيامًا. ثم دخل عليها، فقامت إليه كما تقوم المرأة إلى بعلها، فصاح بها وانتهرها ثم أنشأ يقول[2]:

لا تمـشـطـي رأســـي ولاتـفـلـيـنـي

وحـــاذري ذا الـــريـــق[3] فـي يمـيـنـي

واقـــتـــربـــي دونـــك أخـبـريـنـي

مـــا شـــأنـــه أحـــمـــر كـالـهـجـيـن

خـــالـــف ألـــوان بـــنـــيّ الجـــوْن

فغضبت الحرة واجتذبت يدها من يده ثم قالت:

إن لـــه مـــن قِـبـلـي أجـــدادا

بـيـض الـوجـوه كـرُمـا أنجـادا

مـا ضـرهـم إن حـضـروا أمـجـادا

أو كـافـحـوا يـومَ الـوغـى الأنـدادا

ألا يـكـون لـونـهـم ســـوادا

فوثب إليها الزوج وترضاها حتى رضيت.

****

(1)أدواء: أمراض. رهطه: قومه. المحتد: الحسب والمجد.

(2)شاعرات قبائل العرب تأليف أبي عبيد الله محمد بن عمر ان المرزباني -تحقيق د-سامي مكي العاني، ص 105.

(3)ذو الريق: السيف يقال له ذلك لكثرة مائه.

الفصل الثالث
مكانة المرأة في صدر الإسلام

تمهيد

ببزوغ نور الإسلام الذي أضاء ربوع الجزيرة العربية، توحدت صفوف العرب التي كانت متنافرة، فجعل الإسلام منهم أمة تدين بدين واحد ألا وهو الإسلام، وبظهور الإسلام تمت للأمة العربية أكبر نقلة حضارية في زمن قليل فخلال ما لا يزيد كثيرا على قرن من الزمان والتي ارتأينا أن تكون عصر صدر الإسلام، تغيرت بهذا الزمن الوجيز عقيدة العرب، وخرج العرب من بواديهم وقراهم ليستوطنوا بلادًا تختلف عن بلادهم في الطبيعة ونظام المعيشة وتقاليد المجتمع والتراث. ولا شك أن تلك الهجرة بالإضافة إلى ما صاحبها من فتوح وقلاقل، قد هزت نفس العربي هزا عنيفا، ولنا أن نتصور ما أصاب النفس بعامة من التشتت في الماضي والحاضر، وبين الوطن القديم والملاذ الجديد «وهذا الاضطراب الذي مرت به النفس العربية من توزع وحنين ورضى، وماطرأ على الفكر العربي من نور العقيدة وثقافتها وما عرفه من تراث البيئات الجديدة التي استوطنها كان لا بد أن يجد سبيله إلى الأدب العربي شعره ونثره عند شعب لم يكد يترك من أمور حياته صغيرة ولا كبيرة إلا سجلها في أدبه من قبل» [1]

والإسلام أحدث تغييرًا جذريًّا في طبيعة المجتمع فوضع له قيمًا محددة من الناحية الاخلاقية والروحية بل شمل أيضًا المادية، وقضى على كثير من عادات العرب الرذيلة، وقد زكى ماكانت عليه العرب من الأخلاق والقيم النبيلة مثل الكرم

(1) الشعر الإسلامي والأموي، د. عبدالقادر القط- دار النهضة العربية للطباعة والنشر -بيروت، طبعة 1987 ص 7.

والمروءة والوفاء وإباء الضيم وإجارة المستجير، وقضى على تلك العادات القبيحة بل وحرمها، مثل شرب الخمر ومعاقرة النساء بغير نظام شرعي، ووأد البنات وقيام المعارك لأتفه الأسباب، أبدلهم بالألفة والمحبة والتعاون والبناء المثمر.

وبالتالي فهذا التغير الاجتماعي كان له أثر في التغير العقلي والفكري، وتوحدت اللهجات العربية تحت راية واحدة في إطار لهجة واحدة هي لهجة قريش التي نزل بها القرآن، وكان من الطبيعي أن يتأثر شعراء صدر الإسلام بالقيم الإسلامية فتخففت عند الشعراء لهجة الشعر القديم.

ونلاحظ على الشعر في عصر صدر الإسلام سهولة اللغة والألفاظ بالقياس إلى مثيله في العصر الجاهلي.

كما تغيرت رؤيته للمرأة، وإن ظل الشاعر على نهج الطريقة القديمة للشعراء القدماء بالبدء بالمقدمة الطللية وبث الشوق والحنين للديار والحبيبة، قبل البدء بالموضوع الأساسي وهذا طبيعي، لأن نتاج حصيلة قرون وزمان لم تمح بين ليلة وأخرى بل تحتاج لفترة من الزمن أيضًا.

****

المبحث الأول
سمو مكانة المرأة وإعطاؤها حقوقها

في مطلع القرن السابع الميلادي شهدت بلاد العرب أهم حدث في تاريخها، هو ظهور الإسلام، وقد أحدث الإسلام في حياة العرب انقلابا عميق الجذور، سواء على الصعيد الاجتماعي، أو على الصعيد الفكري أو الروحي، ظهر الإسلام والعرب تحكمهم روابط كثيرة فأكد على بعضها وألغى بعضها، واستحدث لهم قيما جديدة، ومن أهم هذه الروابط العصبية القبلية التي ذكرناها في الفصل الأول بإسهاب فأضعف الإسلام من شأن القبيلة وأحل محلها فكرة الأمة الواحدة المترابطة، قال تعالى: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) فأصبح رابط الدين لا الرابط القبلي هو الذي يوحد بين الناس فجمع شتات العرب وجعل منهم أمة لها ميثاقها ونظامها الذي يسير على هدي من الدستور الإلهي القرآن الكريم وسنة نبيه محمد ﷺ، ثم أنار العقول وأزاح عنها غيوم الظلام التي كانت تسيطر عليها وتحجب عنها الحقيقة والتفكير فيها تحت مسمى التقليد.

أخذ الإسلام يرسي القواعد الاجتماعية لهذه الأمة، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، يسودهم البر والتعاطف، حتى لكأنهم أسرة واحدة، محيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية، وأيضا فوارق الشرف والسيادة الجاهلية، فالناس جميعًا سواء في الصلاة وجميع المناسك وفي الحقوق والواجبات»[1]. هكذا أكد الإسلام للإنسان

(1)تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي-شوقي ضيف، الطبعة الرابعة والعشرون - دار المعارف 20007 -صفحة 19.

أنه لا يعيش لنفسه، وإنما يعيش أيضًا للجماعة التي يبذل لها كل ما يستطيع تقديمه، ومن ثم وضع نظام الزكاة، وهو ركن أساسي في الدين، فأوجب على كل إنسان أن يعطي من ماله سنويا قسطًا مكتوبًا للفقراء وبهذا صار للفقير حق معلوم في مال الغني يسلمه المال بنفس راضية.

وعلى هذه الشاكلة حاول القرآن أن يقيم ضربًا من العدالة الاجتماعية في محيط هذه الأمة الجديدة، إذ جعل رد الغني بعض ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقا دينيًّا إذ إنه لايعيش لنفسه وحدها بل يعيش أيضًا لأمته ويترابط معها ترابطا اقتصاديا كمايترابط في وجدانه وإيمانه»[1] حرم الإسلام كل أنواع الفواحش جملة ما كبر منها وما صغر لقوله تعالى: «قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن»[2] فالإسلام إذًا يدعو إلى طهارة النفس ونبذ كل الفواحش والرذائل، فهنيئا للإنسانية كلها بهذا الدين الذي يقوم على هذه القيم الروحية، وهنيئا للمرأة فالإسلام الذي كرمها ونظم حقوقها ورعاها حق الرعاية حيث كانت مهضومة الحقوق في الجاهلية عند بعض القبائل وإن لم تكن كلها. بزغ الإسلام بنوره في ربوع الأرض فرفع من القيمة الإنسانية عامة، ورفع مكانة المرأة خاصة حيث ساوى بين الرجل والمرأة مساواة مطلقة، ومنح الأم مكانة متفردة تفوق مكانة الرجل، وجعل برها واجبًا دينيًّا يجب القيام بها، بل هو من أهم مبادئ الإسلام والسبيل لدخول الجنة. وكثيرًا ماحضت الآيات على بر الوالدين. وبلغ من احترام الإسلام للأمومة إلى الأمر بوصلها حتى لوكانت مشركة.

وغدا عقوقها أمرًا منكرًا وذنبًا عظيمًا حتى لوكانت أمة، وعيّر يزيد بن مفرِّغ الحميري عبيد الله بن زياد بعقوقه أمه مرجانة:

أقــرَّ بـعـيْـنـي أنّـــه عـــقَّ أُمَّـــهُ

دعـتْـه فـولّاهـا اسْـتَـهُ وهْـــوَ يـهـرُبُ

(1) العصر الإسلامي-شوقي ضيف- صفحة 20.
(2) الأعراف الآية 33.

وقـــال عـلـيـك الـصـبـرَ كـونـي سـبـيَّـةً

كـمـا كـنـت أومـــوتـــي فـذلـكَ أقـــربُ[1]

وعندما نقول إن الإسلام ساوى بين الرجل والمرأة، فالأصل العام لهذه المساواة كما بينها الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام حيث قال: «النساء شقائق الرجال[2]» وبناءً على هذه الأخوة فإن كل ماثبت من حكم للرجل ثبت مثله للمرأة. إذا نظرنا لوضع المرأة في عصر صدر الإسلام وجدنا أن للمرأة مكانة متميزة إلى جانب الرجل، سواء كان ذلك بقبولها للدعوة وتأييدها، أو رفض الدعوة ومقاومتها، وقد دخل في الإسلام عدد غير قليل من النساء، حيث كان عددهن في أول الهجرة للإسلام إلى الحبشة أربع نساء، وهي نسبة كبيرة إذا ما نظرنا لعددهم الكلي البالغ أحد عشر من الرجال والنساء وأيضا شاركت المرأة في الغزوات في عهد الرسول صلى عليه وسلم ولم ينه المصطفى ﷺ المرأة من شرف المشاركة في الجهاد في سبيل الله.

والمرأة أساس الأسرة فإذا صلحت ربة البيت صلح البيت كله، لهذا حث الإسلام على حسن اختيار الزوجة وحسن معاشرتها بما يرضي الله ورسوله لقوله تعالى «وعاشروهن بالمعروف[3]»

كما جعل الإسلام للمرأة حق الكسب لقوله تعالى «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن وسئلوا الله من فضله»[4] كما جمع الله بين الرجل والمرأة في الصفات والحساب، وقد ورد ذلك في القرآن في مواضع كثيرة ومن

(1)كتاب الأغاني، للأصفهاني، أبو الفرج علي بن حسين – الجزء الثامن عشر –ص 281– بيروت دار إحياء التراث 1418 هـ.

(2)سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، تخريج الشيخ محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة ص 476 من الشبكة العالمية للمعلومات (الانترنت).

(3)سورة النساء، آية 19.

(4)سورة النساء، الأية 32.

ذلك قوله تعالى ﴿**إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذكرات أعدّالله لهم مغفرة وأجرا عظيما**﴾[1].

إن المرأة تتساوى مع الرجل أيضًا في الأمور الفطرية التي ترجع إلى الطبيعة البشرية في عمومها التي لا فارق في أصلها بين الجنسين، مثل الانجذاب الفطري في كل منهما للآخر، ورغبة كل منهما في أن يكون محبوبا مقبولًا عنده، ولذلك أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه وجه أولياء أمور النساء إلى مراعاة هذا الجانب في النساء، وعدم إغفاله البتة وعلل لهم هذا بقوله: «فإنهن يحببن لأنفسهن ماتحبون لأنفسكم «هذه كلمة الفاروق عمر بن الخطاب الذي ولد من جديد في ظل الإسلام، والذي تربى فيه وصاحب النبي ﷺ، وعمر هو نفسه الذي روى عنه أنه في الجاهلية، وأد بعض بناته كغيره من الجاهليين قبل الإسلام وبعده حيث قال: «كنا في الجاهلية لانعد النساء شيئًا، فلما جاء الإسلام وذكرهن رأينا لهن بذلك علينا حقًّا»[2].

كما أن المراة تتساوى مع شقيقها الرجل في أن كلا منهما يولد على الفطرة «لقول الرسول ﷺ ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء « ثم قرأ «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطرالناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[3]

---

(1)سورة الأحزاب آية 35.

(2)صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل (ت261 هـ) كتاب الشعب بالقاهرة كتاب اللباس، باب ماكان النبي ﷺ يتجوز.

(3)صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج (ت 256 هـ)، مطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة 1334هـ.

كما تتساوى معه أيضًا في أصل الكرامة الإنسانية لقوله تعالى:» ولقد كرمنا بني ءادم وحملنهم في البر والبحر ورزقنهم من الطيبت وفضلنهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا»[1].

كذلك يستويان في كون الأنبياء يرسلون لهم جميعا لقوله تعالى ﴿يابني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾[2] والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحب النار هم فيها خالدون». أيضًا تتساوى المرأة مع شقيقها في حق الحياة فقد ظهر الإسلام في الجزيرة العربية وقد دفن قبله في رمال صحرائها عدد من الإناث لايعلم عددهن إلاالله تعالى، حيث كان الرجل الجاهلي يرى الأنثى تأكل ولاتدافع عن القبيلة، كما كان يعتبرها مصدرا لجلب العار له وللقبيلة في حالة الحرب والسلم فأتى الإسلام ونزل قوله تعالى ﴿وإذا الموءودة سئلت، بأي ذنب قتلت﴾[3].

أدرك حينها الذين هداهم الله إلى نور الإسلام أنهم كانوا ظالمين لبناتهم الموءودات، روي أنه جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله إني وأدت اثنتي عشرة ابنة لي في الجاهلية أوثلاث عشرة ابنة قال: «فأعتق عددهن نسما» فلما كان في العام المقبل جاء بمائة ناقة فقال: يارسول، هذه صدقة قومي على أثر ماصنعت بالمسلمين، قال علي ابن أبي طالب فكنا نريحها ونسميها القيسية»[4] ونلمس عظمة الإسلام وسماحته في مواقف كثيرة – منها أنه على

(1)سورة الإسراء آية 70.
(2)الأعراف آية 35-36.
(3)سورة التكوير آية 9-8.
(4)مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة للدكتور محمد بلتاجي، صفحة 81، دار السلام للطباعة والنشر الطبعة الثالثة 2005.

عكس ما كان للابن المحارب في الجاهلية من تفضيل فالإسلام جعل للبنت مزية واضحة على الأبناء الذكور، حين قال الرسول ﷺ:

«من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له سترا من النار «وهذا الستر مشروط بالإحسان إليهن كما في الرواية الاخرى «فإذا أحسن إليهن بكفالتهن ووقايتهن كن له وقاية من النار»[1]

والمتدبر للآية القرآنية يرى أن الله عز وجل قد أعلى من شأن الأنثى وساوى بينها وبين الذكر في حق الحياة الكريمة قال تعالى «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبت وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا»[2]، كما تتساوى المرأة مع الرجل أمام التكليف الشرعي والجزاء الأخروي بدون فارق قال تعالى: «ومن يعمل من الصلحت من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيرا»[3]

ومما يدل على هذا التساوي في التكليف الشرعي أن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام دعا الرجال والنساء للإيمان به فكانت السيدة خديجة من السابقات إلى الإيما ن كما كانت سمية بنت خباط (أم عمار) أول شهيد في الإسلام. وأيضا تتساوى مع الرجل في الحدود والعقوبات الشرعية كما تتساوى مع شقيقها في أهلية التصرفات والتعاقدات المالية[4]

(1)هداية الباري إلى ترتيب صحيح البخاري شرح السيد عبدالرحيم عنبر الطهطاوي (ت 1362 هـ) الطبعة الرابعة دار الرائد العربي 1390 هـ 1970- م ص197-198 .

(2)سورة الإسراء آية 70.

(3)سورة النساء –آية 124.

(4)أي أن لها الشخصية القانونية الكاملة في ان تتصرف فيما تملكه ملكا حرا بالبيع، والهبة، والوصية، والإيجار، والشراء وغيرها من مختلف التصرفات المالية لقوله تعالى «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن «النساء آية 32.

فالإسلام كرم المرأة في الأمور التي ساوى فيها بينها وبين الرجل كما كرمها أيضًا في الأمور التي ميز فيها الرجل عنها لقوله تعالى: «للرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم»[1] ونظم حقوقها ورعاها خير رعاية، إذ كانت مهضومة الحقوق في الجاهلية، فردَّ عليها حقوقها وجعلها كفؤًا للرجل، لها ما له من الحقوق يقول تعالى «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف «وأيضًا لهن مثل ما للرجال حد السعي في الأرض والعمل والتجارة. «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن».

****

(1) ويظهرلنا كما يظهر للعيان أن وأد البنات لم ينته ولم يول من العالم بانتهاء حقب الجاهلية، فنحن نشاهد في وقتنا الحاضر صورًا عديدة من هذا الوأد وما يعتبر في حكمه، ففي دولة الهند والتي تعتبر ذات حضارة قديمة وحديثة المرأة هي التي تدفع المهر إلى الآن وهذا بدوره يحمل عبئًا كبيرًا للأسرة التي يكون كل أبنائها بنات – ورب الأسرة ناهيك عن المهر لا يملكون لهن قوت يومهن لهذا يلجأون إلى وأد الأنثى عند ولادتها أويبيعونها لمن لايرحمها ويتاجر بها ليكسب من ورائها، أما في دولة الصين والتي زاد عدد سكانها لايسمح النظام الحاكم للأسرة إلا بإبن واحد، ولما كان الطب يستطيع بواسطة أجهزة حديثة معرفةإذا كان الجنين ولداً أو بنتاً وهو في بطن أمه –لهذا فإن الآلاف من الأسر إذا ما تبين لهم أن الجنين ابنة تقوم الأسرة بإجهاض الأم سرا مرات عدة –أما في الأرياف عند الأسر الفقير ة التي لاتستطيع ان تدفع للطبيب للكشف لمعرفة نوع الجنين تقتل الأنثى فورًا عند ولادتها حتى لاتحسب عليهم ويمنعوا من الخلفة.

المبحث الثاني
نظرة الإسلام للشعر والشعراء وأثر ذلك على أدائهم

كان الشعر في الجاهلية العامل الأساسي في تخليد مآثر العرب، والشاعر كان يمثل مجد القبيلة، فتهنأ إذا نبغ فيها. وطرأ تحول جذري على هذه النظرة مع انتشار الإسلام وتأثيره عليهم فنزل الشعر من مرتبته بالنسبة إلى القرآن، واستحال أن يبقى الشعر هو كتاب العرب في ظل كتاب منزل لايمكن أن يأتي مثله.

فالقرآن له بعد إلهي، من ناحية، وبعد جمالي وبياني من ناحية أخرى، قال تعالى: «كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعملون[1]» وهكذا فإن أسلوب القرآن ونظمه أدهشا العرب فأخرسوا عن قول الشعر وسكتوا عنه زمانًا.

ذهب ابن خلدون إلى أنه «لم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره[2]» لأنه لو كان الوحي نزل بتحريم الشعر لكان من باب أولى أن ينهى الرسول أصحابه من قول الشعر لأن الشعراء لم ينقطعوا عن الشعر بمجيء الإسلام.

فعند دخول الناس في الإسلام حاربهم الكفار، فانقسم المسلمون فيما بينهم في الذود عن الإسلام فمنهم من حمل السلاح ومنهم من حمل السيف وسخر لسانه للرد على كل من يهجو الرسول ﷺ أو ينال من الدين الجديد. وكان شعراء الكفار يصوبون سهام أشعارهم إلى الرسول ﷺ وأصحابه، وكانت أشعارهم هذه تشاع في القبائل العربية ففكر بذلك الرسول وقال للأنصار «ما يمنع القوم الذين

(1) سورة فصلت آية 2.
(2) مقدمة ابن خلدون ص 725.

نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان بن ثابت أنا لها وأخذ بطرف لسانه، وقال: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء[1]» وكان معه في الذود والرد على الكفار كعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة فالإسلام خلق مناخًا جديدًا أثّر في الرؤية الدينية القائمة، في الشعر وغيره، رغم ذلك فالنبي ﷺ لم يقطع صلته بالماضي بشكل كامل، ولم يسع إلى القضاء على الشعر لكنه، حاول أن يضع حدا للأجواء المحيطة بالشعر، من كهانة وسجع، وسحر، وجن، وذلك ليحقق أولا: الانفصال عن تراث ليس هو تراث إسلامي في ذاته وثانيًا: ليضمن اتصالا بالجوهر الديني الجديد وتعاليمه وقد لاحظ الجاحظ أن النهي عن الشعر وقوله حدث لقرب عهدالناس بالجاهلية، ولمساعدتهم على نسيان ما يناقض روح الإسلام في الروح الجاهلي[2].

وقد نزلت آيات كثيرة تتحدث عن الشعر والشعراء، ولم يرد لفظ الشعراء إلا في آية واحدة وهذه الآيات منها قوله تعالى «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنو وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[3]».

وقوله تعالى: «بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بأية كما أرسل الأولون[4]» وقوله تعالى: وماعلمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين[5]» وقد سبق أغلب الدارسين إلى تفسير ما جاء في القرآن من الآيات تفسيرا يقطع ما يثار من اللبس عند

(1)العصر الجاهلي –للدكتور شوقي ضيف ص 47.
(2)البيان والتبيين للجاحظ –تحقيق عبدالسلام هارون –الطبعة الثانية 1960 الجزء الأول –ص287–
(3)سورة الشعراء 224–227.
(4)سورة ياسين 69–70.
(5)سورة ياسين آية 69–70.

الدارس من الظن أن القرآن قد عادى هذا الفن وقائليه. «والناظر في هذه الآيات يرى أنها لاتتحدث عن الشعر بخير أو شر، ولا تذكر لفظ الشعر إلا في آية واحدة وواضح أنها جميعًا حتى في تلك الآية تنفي عن النبي ﷺ أن يكون شاعرًا – فمن المعروف أن العرب شأنهم في ذلك شأن كثير من الشعوب في نظرتهم إلى الأدباء والفنانين حيث كانوا يعتقدون أحيانًا أن بهم مايشبه الجنون أو أن بهم مسا من الجن، وأن بعض الشياطين يوحون إليهم بما يجري على ألسنتهم من شعر، وتلك حقائق – ولو لصقت بالرسول صفة الشاعرية جديرة بأن تناقض معنى الرسالة والوحي «رأينا مما سبق من الآيات القرآنية أن القرآن لم ينه عن الشعر ويحط من قدره وإنما منع الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام حتى لا يحتج بذلك المشركون قال تعالى: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له»[1] أما قوله ﷺ «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خيرٌ له من أن يمتلئ شعرا» فيذهب ابن رشيق في تفسير الحديث إلى أن المقصود هو من غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه، وشغله عن الدين وذكر الله»[2].

وهناك حديث آخر لرسول الله ﷺ «اللهم من هجاني فالعنه مكان كل هجاء هجانيه لعنة»[3] وقد قرر صلوات الله وسلامه عليه رد العدوان بالمثل باستخدام الشعراء المسلمين في الدفاع عنه وعن الدعوة الإسلامية، حيث يقول رسول الله ﷺ وقد استعدى الشعراء للدفاع «مايمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم «وقد بارك رسول الله استعداد الشعراء للدفاع ودعاهم إلى الاستعانة بمن يستطيعون أن يطلعوهم على مواطن الضعف في خصوم الدعوة حتى يشددوا عليهم نكير الهجاء، فيقول الرسول ﷺ لحسان بن ثابت اهجهم يعني

(1) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده للقيرواني، أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني الأسدي المتوفى سنة 456هـ تحقيق محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الرابعة 1972 صفحة 29.

(2) جمهرة أشعار العرب، أبوزيد محمد بن الخطاب القرشي من علماء القرن الثالث، تحقيق علي محمد البجاوي، صفحة 29.

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده للقيروان.

قريشا – فوالله لهجاؤك عليهم اشدُّ من وقع السهام في غلس الظلام أهجهم ومعك جبريل روح القدس وألق أبابكر يعلمك تلك الهنات[1] وكان الرسول ﷺ يكرم الشعراء تكريمًا ماديًّا ومعنويًّا، عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ بنى لحسان بن ثابت في المسجد منبرا ينشد عليه الشعر»[2] كما تجاوز الرسول ﷺ عن كعب لقصيدته المشهورة ووهب له بردته.

وقد ورد عن ابن اسحاق أن قرة بن عامر بن ربيعة وفد على رسول الله ﷺ فبايعه وأسلم فحباه وكساه بردين وحمله على فرس، واستعمله على قومه فقال قرة:

حباها رسول الله إذ نزلت به

وأمكنها من نائل غير مفندِ

فماحملت من ناقة فوق رحلها

أبرَّ وأوفى ذمة من محمد[3]

وقد أكد شوقي ضيف في تأريخه للأدب العربي ارتقاء مستوى الشعر في صدر الإسلام وصدق تمثل الشعراء للقيم الإسلامية فقال:» ودفعتني النصوص الكثيرة في عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التي شاعت في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل لأشعار المخضرمين وهو زعم يسرف في تجاوز الحق فقد أتم الله على هؤلاء نعمة الإسلام يعيشون له وَيعيشون به، يريدون أن ينشروا نوره في أطباق الأرض»[4]

وقد حرص الإسلام على أن يحاط الشعر بسور من الحق ألا وهو الالتزام بالصدق في الأدب باعتبار أن الادب يحمل رسالة، وهناك حد معين يسمح به من

---

(1) المرجع السابق 27

(2) جمهرة أشعار العرب ص 35 – وورد البيت الثاني لابن زنيم في الاعتذار لرسول الله عليه الصلاة والسلام (كتاب السيرة النبوية –لابن هشام –تحقيق مصطفى السقا 1936.

(3) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشي.

(4) العصر الإسلامي لشوقي ضيف المقدمة صفحة 5

حرية الخيال لدى شعراء صدر الإسلام، وذلك لما فرضه الإسلام من رقابة على الشعر، وأرادوا للشعراء أن ينطلقوا انطلاقًا تلقائيًا من تمثلهم للقيم الجديدة ومبادئ الإسلام.

«وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينتقد الشعراء الإسلاميين حسب المقاييس الإسلامية، أو مدى تحمل الشعراء لمبادئ الإسلام فقد استعدى تميم بن مقبل عمر بن الخطاب على النجاشي (هوقيس بن عمر بن مالك من بني الحارث بن كعب وكان فاسقا رقيق الإسلام)[1]

فقال: ياأمير المؤمنين هجاني فاعدني عليه قال: يا نجاشي ما قلت؟ قال: يا أمير المؤمنين ما لا أرى علي فيه إثما وأنشد:

إذا الله جازى أهل قوم بذمة

فجازى بني العجلان رهط بن مقبلِ

قبيلته لا يغدرون بذمةٍ

ولا يظلمون الناس حبة خردلِ

فقال عمر ليتني من هؤلاء فقال:

ولا يرِدُونَ الماءَ إلا عشيةً

إذا صدر الورادُ عن كل منهلِ

فقال عمر ما على هؤلاء متى وردوا فقال:

وما سمي العجلان إلا لقوله

خذ العقب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر خير القوم أنفعهم لأهله فقال تميم فسله عن قومه:

أولئك أولاد الهجين وأسرةُ الـ

ـلئيمِ ورهط العاجز المتذلّلِ

(1) جمهرة أشعار العرب –تحقيق علي محمد البجاوي ص 31–32

فقال عمر أما هذا فلا أعذرك عليه فحبسه وضربه[1] أدى حرص الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين من بعده على أن يصدر الشعر من منطلق تمثل القيم الإسلامية، وقد وقف الإسلام موقفًا حازمًا تجاه الغزل الفاحش وشعر الخمر والمجون، وسنضرب الأمثلة على ذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله لا ينهى عن الشعر ولا يزجر الشعراء لقولهم في الغزل وإنما يزجرهم للحرص على الأخلاق والقيم الإسلامية وليحمل الشاعر مسؤولية تجاه أمته، فالنعمان بن عدي بن فضلة كان على كور دجلة من قبل عمر بن الخطاب وكان يقول الشعر فقال:

من مبلغ الحسناء أن خليلها

بميسان يسقي في زجاج وحنتمِ[2]

إذا شئت غنتني دهاقين قرية

وصناجة تحدو على منسم[3]

لعل أمير المؤمنين يسوؤه

تنادُمُنا بالجوسق المتهدِّمِ[4]

فلما بلغ عمر شعره قال: إي والله أنه ليسوؤني ذلك، فعزله كما كان عمر بن الخطاب ينهى عن التشبيب الذي يمكن أن يسيء إلى أعراض نساء المسلمين – وكان التشبيب كما نعلم من التقاليد الشعرية وقد أدى ذلك بحميد بن ثور الهلالي إلى أن يقول في مستهل إحدى قصائده:[5]

---

(1) الشعروالشعراء، طبقات الشعراء، لعبدالله بن مسلم بن قتيبة، الطبعة الثانية 1983 ص 68.

(2)الوحشيات – الحماسة الصغرى –أبوتمام حبيب بن أوس الطائي : الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر 1970 م، ص 215–216. وحنتم: آنية خضراء من الفخار.

(3)سيرة عمر لابن الجوزي، أبوالفرج، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن أبي الجوزي، طبعة مصر، ص81 . الدهقان: رئيس الفلاحين بين الأعاجم وتستعمل بمعنى الماهر الحاذق. المنسم: القدم.

(4)الجوسق: القصر.

(5)ديوان حميد بن ثور الهلالي –تحقيق عبدالعزيز الميمني، القاهرة 1951 ص 40.

أبـــى الـلـــه إلا أنَّ ســرحـــةَ مـالـكٍ
عـلـى كـل أفـنـــان الـعـضـــاةِ تـــروقُ
فـيـا طـيـب ريـــاهـــا ويـــابـــرد ظـلِـهـا
إذا حـــان مـــن حـامـي الـنـهـار وديـق

فلم تكن سرحة إلا المرأة التي أراد الشاعر أن يتغزل بها. ولم يتجاسر سحيم على ذكر محبوبته فورى عنها في قصيدته التي يقول فيها[1]

عُـمـيـرةَ ودع إن تجـــهَّـــزتَ غـاديـا
كـفـى الـشـيـبُ والإســـلامُ لـلـمـرء نـاهـيـا

«وربما كان اتجاه بعض الشعراء إلى الرمز في صدر الإسلام تحايلا على موقف الدولة الذي يحرم الخوض في بعض الفنون مثل شعر الهجاء الذي يثير تعصب الجاهلية وأحقادها، وشعر الخمر الذي يزين ما حرمه الإسلام وشعر الغزل الذي يتنافى مع مبادئ الإسلام وخلقه ويمس أعراض المسلمين»[2] ومما لاشك فيه أن مع ما ذكر في القرآن عن المرأة ومع تعمق الشعراء لفهم الدين الإسلامي ترك هذا أثرًا مباشرًا أو غير مباشر على وعي الشعراء للمرأة في عصر الإسلام ولو بقدر قليل؛ لأنه رغم ذلك لم يتجاوزوا في تصورهم للمرأة تصور شعراء الجاهلية، ويرجع ذلك كما ذكر آنفا أن كثيرًا منهم لم يتعمقوا في الإسلام ولم يتشربوا تعاليمه، لهذا لم يؤد إسلامهم إلى تغير رؤيتهم الشعرية تغيرا جذريًّا، حيث ظلَّ الشعر القديم المنبع الذي يستمدون منه نماذجهم الجمالية.

فظلّ للمراة سحرها في شعر صدر الإسلام وظلّ تأثير المرأة على إدراك الشعراء في صدر الإسلام قويا، ولم يستطع الشعراء أو لم يحاولوا أن يتخلصوا

(1)ديوان سحيم عبد بني الحساس –تحقيق الأستاذ عبدالعزيز الميمني، القاهرة 1965.
(2)شعراء صدر الإسلام وفاء فهمي السنديوني، الطبعة الثانية 1995 ص384.

من ذلك التأثير، فالمقدمة الغزلية ظلّت تتصدر القصائد الطوال في مدح الرسول ﷺ ولم نعرف أن الرّسول نهى الشعراء عن تلك المقدمة الغزلية، وإن نهى الشعراء عن الشعر الذي ينافي الخلق والدين، ومن تلك القصائد التي اتبع فيها الشاعر نهج الشاعر القديم نفسه مطلع لامية كعب بن زهير في مدح الرّسول ﷺ وإن كان لم يعلن إسلامه إلا أنه لم يذكر انّ الرسول أنّبه لذلك. لهذا كله تبدو الصورة العامة للمرأة عند شعراء صدر الإسلام شديدة القرب من صورتها عند شعراء العصر الجاهلي، فأكثرهم مخضرمون شهدوا الجاهلية والإسلام، والأغلبية كانوا من شعراء البادية الرحل الذين لم يتأثروا بالإسلام التأثر الذي يرى أثره في شعرهم بصورة أعمق.

والشعراء نجدهم يقدّمون للمرأة النموذج الأفضل رابطين بأثر هذا النّموذج على النفس فنراهم يتحدثون عن جمال الجسم والعيون، والوجه والشعر والساقين والأطراف والجيد والفم والأسنان.

ويتمحور تأثير المرأة عند شعراء صدر الإسلام في أنَّها تصبي النّاسك الوقور، وتشفي المريض، وتسقم الصحيح، وريقها عبارة عن خمر يدب في الجسم، والقلب مولع بها، وجمالها يسبي العقول والقلوب، أما الوجه فهو أبيض صاف كبيض النعام، أما الفم فبارد بسام تخلطه بماء سحابة، والأسنان تشبه زهر الأقحوان، والريق يشبه عسل النحل، وريقها يشفي من السل فيقول الشاعر[1]:

كـأنّ ضحكتها يومًا إذا ابتسمت
بـرقٌ سحائبهُ غـرٌّ زهاليلُ
كـأنّـه زهـر جـاء الجـنـاة بـه
مستطرف طيب الأرواح مطلولُ

(1) المرأة عند شعراء صدر الإسلام- أ- د حسني عبدالجليل يوسف- ص32.

ويقول الآخر[1]:

كـــأنّ ثـنـايـاهـا الـــعـــذاب وريـقـهـا

ونـــشـــوة فـيـهـا خـالـطـتـهـن قـرقـف

كـــأنّ فـاهـا إذا مـا الـلـيـل ألـبـسـهـا

سـيّـابـة مـــا بـــهـــا عـــين ولا أثـــر

أما الجيد، فهي حسنة الجيد فجيدها طويل، مزين بالحلي الذي يشبه نجوم الليل أو الجمر[2]:

وجـيـد كـجـيـد الـرئـم لـيـس بـعـاطـل

مـن الـدر والـيـاقـوت والـشـذر حـاليـا

كـــأنّ الـثـريـا عـلّـقـت فـــوق نـحـرهـا

وجـمـر غـضـى هـبّـت لـه الـرّيـح ذاكـيـا

وهكذا ظلّت المرأة مثالا رائعا للحسن والرِّقة والعذوبة، وهونموذج امتدَّ من العصر الجاهلي إلى عصرنا الحاضر، ومازال هذا الإطار يشكل الإطار الأوحد لصورة المرأة في الشعر العربي. أمَّا عن تجربة الحب عند شعراء صدر الإسلام الذين اعتنقوا الإسلام وحسن إسلامهم فلم يكن لديهم سلطان على قلوبهم لأنهم لا يستطعون أن يمنعوها من الحب، ولكن سلطتهم تمثلت في الابتعاد عن الفحش في القول والمجاهرة بما يخدش الحياء، ومن الشعراء الذين أحبوا حبا عذريا عروة بن حزام ومالك بن الصمصامة وغيرهم من الشعراء.

أحبّ عروة بن حزام ابنة عمه عفراء، ورفض العم أن يزوجها إياه لفقره، فذهب عروة لطلب مهرها لبلاد اليمن، بعد سفره زوج العم عفراء لآخر مقتدر، وعند عودة عروة أخبره أنها ماتت، فحزن عروة وظل مدة يتردد على قبرها المزعوم

(1)المرجع السابق ص 32.

(2)ديوان سحيم، تحقيق الأستاذ عبدالعزيز الميمني –طبعة –1965 ص 17.

باكيًا منتحبًا إلى أن رقّت لحالته جارية وأخبرته أن عفراء لم تمت ولكنها تزوجت، فذهب في أثرها فظلّ محبا لها إلى أن مات فماتت بعده بأيام قلائل.

يقول عروة مخاطبًا الوشاة والحساد عتابا رقيقًا[1]:

فيا واشي عفراء ويحكما بمن
وما وإلى من جئتما تشيانِ
بمن لو أراه عانيا لفديته
ومن لو رآني عانيا لفداني
متى تكشُفا عنِّي القميص تبيَّنا
بي الضُّرَّ من عفراءَ يا فتيان
إذن تريا لحمًا قليلاً وأعظما
بَلِيْنَ وقلبًا دائم الخفقان

كان عروة أسير هوى عفراء فكان لا يرى صورة أجمل من صورتها، ولايسمع صوتًا أرق وأندى وأعذب من صوتها يقول:

وقد تركتني لا أعي لمحدِّثٍ
حديثًا وإن ناجيتُه ونَجاني
جعلت لعراف اليمامة حكمه
وعرّاف حجر إن هما شفياني
فما تركا من حيلة يعرفانها
ولا شربة إلا وقد سقياني
ورشا على وجهي من الماء ساعة
وقاما مع العوّاد يبتدران
وقالا شفاك الله والله مالنا
بما ضُمِّنت منك الضلوع يدان

(1) الغزل في العصر الأموي، دكتور عفيف نايف حاطوم، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 1997، ص 56.

فـويـلـي عـلـى عـفـراء ويـلا كـأنـه

عـلـى الـصـدر والأحـشـاء حـدُّ سـنـان

أما مالك بن الصمصامة فقد أحبَّ جنوب بنت محصن الجعدية فهدّده أخوها بالقتل فأجابه مالك بن الصمصامة[1]:

إذا شئت فاقرني إلى جنب غيهب

أجبّ ونضوي للقلوص نجيب[2]

فما الحلق بعد الأسر شرُّ بِقَيَّةٍ

من الصّد والهجران وهي قريب

وهنا يريد أن يوضح الشاعر للشقيق بأنه مغلوب في حبه على أمره، وكان الحساد والرّقباء والأقرباء المبغضون دائمًا وأبدًا لمالك أصل عذابه وهو القائل:

أحقًا عباد الله أن لستُ خارجًا

ولا وَالِجًا إلا عَلَيَّ رقيبُ

ولا زائرًا وحدي ولا في جماعةٍ

من الناس إلاقيل أنت مريب

وهل ريبة في أن تحنَّ نجيبة

إلى إِلْفِها أو أن يحنَّ نجيب

والذي نلاحظه من خلال قرائتنا للشعر في عصر صدر الإسلام أن الشعراء لم يتوقفوا عن قول الشعر عندما أتم الله عليهم نعمة الإسلام، ولكنهم ترفعوا عن قول الفحش؛ لأن الإسلام هذّب أقوالهم.

ومن شعراء صدر الإسلام المخضرمين الذين أدركوا الإسلام والجاهلية حسان بن ثابت وكعب بن زهير.

---

(1) الغزل في العصر الاموي –ص –55، الغيهب. الشديد السواد يعني جملاً

(2) الأجب: المقطوع السنام. النضو.: البعير المهزول من السفر . القلوص: الفتيّة من الإبل.

حسان بن ثابت: هو حسان بن ثابت بن الخزرج، عاش في الجاهلية ستين سنة في الإسلام ستين سنة، وهي سن تقريبية، وهو ليس خزرجيًّا فحسب بل هو أيضًا من بني النجار أخوال الرسول ﷺ، دخل حسان بن ثابت في الإسلام، وكان يرد على قريش بلاذع هجائه، وكان الرسول يحثه على ذلك ويدعو له بمثل «اللهم أيده بروح القدس «ولذلك حقت له أن يسمى شاعر الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب[1].

المرأة في شعر حسان بن ثابت

صورة المرأة في شعر حسان في الإسلام لا تختلف عن الشعر الجاهلي، فلا نرى أثرًا للعقيدة الجديدة في قصائده، ولايدل ذكرالمرأة في مقدمة القصائد عند حسان عن تجربة حقيقية، بل هو نهج يسلكه الشاعر في مطلع قصائده. استكمالاً لشروط الفحولة الشعرية. كما اتبع حسان طريقة القدماء في مطلع قصيدة قالها في يوم أحد:

أشاقَكَ من أم الوليد ربوعُ
بلاقعُ ما من أهلهنَّ جميعُ

«وكان موضوع القصيدة عن يوم عظيم استشهد فيه كثير من الصحابة وعلى

رأسهم حمزة، ولوكان حسان يجد حرجا من ذكر النساء في مقدمته وأن ذلك منهى عنه لكان حسان الذي وهب نفسه لنصرة الإسلام بلسانه أولى النّاس باتباع تعاليم الدين الإسلامي والبعد عن ما نهى عنه»[2].

ويبدو أنّ المجتمع الإسلامي لم يكن كما نتصوره أحيانا من التشدد والتزمت نحو الشعر، وتعوّد الناس أن يسمعوا حديثا عن الخمر والغزل والنّساء ويتسامحوا

(1)العصر الإسلامي – للدكتور شوقي ضيف، الطبعة الرابعة والعشرون، دار المعارف –2007ص 78–79
(2) المرأة عند شعراء صدر الإسلام أ.د حسني عبدالجليل، الطبعة الأولى 2006 – دار السلام–ص 23–35 .

معهم لإدراكهم أن هذا لايتجاوز كونه تقليدا فنّيا لاضير منه ولايدل على سلوك الشاعر، كما تشير إليه الآية الكريمة «والشعراء يتّبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون»[1] وإلا فكيف السبيل إلى تبرئة حسان فيما ذكره في بعض قصائده وقد انتهى إلى وصفها من خلال الحديث عن رضاب صاحبته، وكلاهما أي الخمر والحديث عن النساء يتساويان في الحرمة.

يقول حسان[2]:

منعَ النومَ بالعشاء الهمومُ
وخيالٌ إذا تغُورُ النُّجومُ
من حبيب أصاب قلبك مِنْه
سَقم فهو داخل مكتوم
همُّها العطرُ والفراشُ ويعلو
ها لُجينٌ ولُؤلؤٌ منظوم
لو يدبُّ الحوليُّ من ولد الذّرْ
رِ عليها لأندبتها الكلوم[3]
لم تَفُقها شمس النَّهار بشيءٍ
غيرَ أن الشباب ليس يدوم

يصف الشاعر نعومة حبيبته النادرة لدرجة أنه لو دب صغير النّمل على جلدها لأثر فيه وجرحها، وعميق جدا تشبيهه في البيت الأخير، حيث ساوى بينها وبين الشمس، غير أن الشمس لا تتغير وشباب المرأة لا يدوم فجمالها إلى زوال. يقول حسان[4]:

(1) سورة الشعراء (223-226).
(2)حسان بن ثابت الأنصاري شاعر الإسلام – تأليف د. ربيعة أبي فاضل دار العلم للملايين بيروت- الطبعة الأولى 1993 -ص 57.
(3)الذرّ: النمل. أندبتها: تركت في جلدها ندوبا. الكلوم: أي جرح.
(4)ديوان حسان بن ثابت، تحقيق -د / سيد حنفي دار المعارف بمصر طبعة 1983 ص165-166.

ديـــارُ الـــتـــي راق الـــفـــؤادَ دلالُـــهـــا
وعـــزَّ عـلـيـنـا أن تجـــودَ بـنـائـلِ
لـهـا عـــيُن كـحـلاءِ المـدامـــع مُـطـفِـلٍ
تُـــراعـــي نَـعـامًـا يـرتـعـي بـالخـمـائـل
ديـــارُ الـتـي كـادت ونـحـن عـلـى مِنًى
تَحُـــلُّ بـنـا لـــولا نجـــاءُ الـرواحـل

هنا يصف الشاعر المرأة المحبوبة التي يعجب بها قلبه، ويصعب عليه أن لا تجود له بنائل، أما عيونها فإنها كعيون غزالة كحلاء لها طفل تنظر إليه حانية راعية. وقد كاد الشاعر ومن معه لمّا عرفوا هذه المرأة الجميلة أن يقيموا فلا يبرحوها، وهذا إقرار من الشاعر بتأثير جمال المرأة على الرّجل.

وتتكرر نفس الصورة عند شعراء الجاهلية والإسلام، وهي صورة تؤكد ارتباط نموذج المرأة بالنماذج الجميلة المؤثرة في عالم الطبيعة.

يقول حسان بن ثابت[1]:

تَـبَـلَـت فـــؤادَك فـي المـنـام خَـريـدةٌ
تـشـفـي الـضـجـيـع بـبـارِدٍ بَـسّـامِ[2]
كـالمـسـكِ تـخـلِـطُـه بمـاء سـحـابـةٍ
أوعـــاتـــقٍ كـــدم الـذبـيـح مُـــدام[3]
نُـفُـجُ الحـقـيـبـة بـوصُـهـا مـتـنـضّدٌ
بـلـهـاءُ غـيـرُ وشـيـكـةِ الأقـســامِ[4]

(1)ديوان حسان بن ثابت، تحقيق د. سيد حنفي دار المعارف بمصر طبعة 1983 ص 107-108.
(2)تبلت فؤاده: أسقمته أو ذهبت به. خريدة: المرأة البكر. بارد: بسام: ثغر بار مبتسم.
(3)عانق: خمر قديمة.
(4)نفج الحقيبة: ضخمة الأرداف. البوص: الكفل أو العجيزة. البلهاء: العفيفة الغفول عن الشر.

بُـنِـيَـت عـلـى قَـطَـن أجـمَّ كـأنـه
فُـضُـلاً إذا قـعـدت مَـداكُ رُخـام[1]
وتـكـادُ تـكـسـلُ أن تـقـومَ لحـاجـةٍ
فـي جـسـم خَـرعـبـةٍ وحـسـن قَـوام[2]
أمـا الـنـهـارُ فـلا أُفَـتِّـرُ ذكـرَهـا
والـلـيـلُ تـوزعـنـي بـهـا أحـلامـي
أقـسـمـتُ أنـسـاهـا وأتـرك ذكـرهـا
حـتـى تُـغـيَّـب فـي الـضـريـح عظامي

فالمرأة كما صورها لنا الشاعر هي مصدر اللذة، والألم والسعادة والشقاء، كما هي أيضًا مصدر للمرض والشفاء، فهي تمرض القلب، أو تشفيه بهذا الثغر البارد البسام، فكل هذا السحر الذي تمتلكه المرأة يلتقي بعناصر التأثير والمتعة، وتلتقي أيضًا بمصادر الحياة، فهي كالمسك، وماء المزن، والخمر.

وقد أضاف الشاعر إلى عناصر الحسن في محبوبته – عنصر الحركة وعنصر الرائحة والطعم والملامسة والحرارة، فهي كسول قليلة الحركة، وهي لينة تتثنى في مشيتها، والصورة تلتقي مع التصور الجاهلي للمرأة، من حيث الافتتان بالمرأة المكتنزة الكسول» ويلتقي جمال المرأة مع جمال الطبيعة. يقول حسان[3]:

جِـنـيّـةٌ أرّقـنـي طـيـفُـهـا
يـذهـب صُـبـحًـا ويُـرى فـي المـنـام
هـل هـي إلا ظـبـيَـةٌ مُـغـزِلٌ
مَـالـفُـهـا الـسـدرُ بِـنَـعـفـي بَـرام[4]

(1) القطن: فوق العجيزة. أجم: ممتلئ باللحم غائب العظام. المداك: الذي يسحق به الطيب وغيره.
(2) خرعبة: لينة.
(3) ديوان حسان بن ثابت ص 184–186
(4) ونعفي برام: جانبي وادي برام .

تُــزجــى غــــزالا فــاتــرًا طَــرفُــهُ
مَــقــاربَ الخـطـو ضـعـيـفَ البُغام[1]
كـــأن فـــاهـــا ثَـــغَـــبٌ بـــاردٌ
فـي رصـــفٍ تحـت ظـلال الغمام[2]
شُـــجَّ بـصـهـبـاء لـهـا ســـورَةٌ
مـن بـيـت رأسٍ عُـتِّـقـت فـي الخيام[3]
عَـتّـقـهـا دهـــرًا رجـــا بـرِّهـا
يـولـي عـلـيـهـا فَـــرْطَ عـــام فـعـام
تَـــدِبُّ فـي الجـسـم دبـيـبًـا كـمـا
دبَّ دبـــيَّ وســـط رقـــاقٍ هـيـام
مـــن خـمـر بـيـسـانَ يُـغـالـي بـهـا
دريـــاقـــةً تـسـرع فـتـرَ الـعـظـام
يـسـعـى بـهـا أحـمـرُ ذو بُـرنُـسٍ
مـحـتـلـقُ الـــذِّفـــرى شـديـدُ الحـــزام

والشاعر أسبغ على المرأة صفات مفارقة لها، فصورها بالجنّية، وكأن وصفها بالإنسية ليس كافيًا لاكتمال الجمال والأنوثة؛ ليبين لنا أنّها فوق صفات البشر. فمحبوبة الشاعر هنا جنية لايمكن الاختلاط بها إلا في المنام، كما وصفها بالغزال الشرود التي ترعى الوادي الوعر الذي لا تطال غزلانه، أمّا ريقها فشبهه بالخمر التي تسري في عروق صاحبه فتذهب بلبه ورشده. «ولا نخال تلك القصيدة إلا

(1) تزجى: ترعى.
(2) البغام: الصوت الرخيم. ثغب بارد في رصف: ماء بارد سال من أعلى الجبل إلى أسفله حفظته الحجارة المتراصفة.
(3) شجّ: مزج.

من تلك القصائد التي قالها حسَّان قبل إسلامه، وإن لم نعدم له حديثًا عن المرأة والخمر بعد الإسلام»[1]

ومن النماذج المطولة التي يشكو فيها حسان حبه لحبيبته والتي يطلب فيها من الحبيبة أن لاتقطع وصله وأن لا تفكر بغيره قبل أن تعرف حقيقته فيقول:[2]

حَـــي الـنـضـيـرةَ ربّـــةَ الخِـــدرِ
أســـرت إلـيـك ولـــم تـكـن تُـسـري
فـــوقـــفـــتُ بـــالـــبـــيـــداء أســـألُـــهـــا
أنّـــــي اهـــتـــديـــت لمـــنـــزل الـــسَّـــفـــرِ
لا تـقـطـعـي وصـــلـــي وتـلـتـمـسـي
غـــيـــري ولمّـــــا تـعـلـمـي خـبـري
جـــــودي فـــإن الجـــــودَ مَـكـرَمـةٌ
واجـــزي الحُـسـام ببـعـض مـا يَفري[3]
وحـــلـــفـــت لا أنـــســـاكـــمُ أبـــدًا
مـــا قـــاد طـــرفَ الـعـين ذو شُـفـري
وحـلـفـت لا أنـسـى حـديـثَـكِ مـا
ذكـــرَ الـــغَـــوِيُّ لَـــــذاذةَ الخـمـر
ولأَنـــــتِ أحـــســـنُ إذ بـــرزت لـنـا
يـــومَ الخـــروج بـسـاحـة الـقـصـر
مـــن دُرّةٍ أغـــلـــى بـــهـــا مـلـكٌ
ممـــا تـــربَّـــب حـــائـــرُ الـبـحـر

(1)المرأة عند شعراء صدر الإسلام، د حسني عبدالجليل يوسف -ص 42.
(2)ديوان حسان بن ثابت، ص 187-191.
(3)يفري: يعمل.

بـيـضـاءُ لـو مـرّت بـذي نُـسُـكٍ
يـتـلـو الـزّبـورَ يـلـوحُ فـي الـزُّبـر
مُـتـبـتـلٍ عـن كـل فـاحـشـةٍ
سـكـن الـصـوامـع رهـبـةَ الـوِزر
لـرأيـتـهُ حـرّان يـذكـرُهـا
يـخـتـار رؤيـتـهـا عـلـى الـذِّكـر
بـذّتْ نـسـاءَ الـعـالـمـين كـمـا
بـذَّ الـكـواكـبَ مـطـلـعُ الـبـدر
ممـكـورةُ الـسـاقـيـن شِـبـهُـهُـمـا
بـرديّـتـا مـتـحـيـرٍ غَـمـر[1]
يـعـتـادُنِـي شـوقٌ فـأذكـرُهـا
مـن غـيـر مـا نـسـبٍ ولا صِـهـر

« تمتزج الصورة الجمالية بعاطفة الحب عند الشاعر، فهو يبدأ بتحية النضيرة ويلتمس أن لا تقطع وصله، وأن لا تطلب غيره قبل أن تعرف حقيقته، ويقسم لها أن لا ينساها ما رد طرف العين هدبها. وما ذكر الغوي لذاذة الخمر، وهو قسم يكشف عن جذور تراثية ترتبط بالشعر الجاهلي، ويسألها أن تجود عليه وأن تجزيه بما يستحق. ويتجه الشاعر بعد ذلك إلى تشبيه محبوبته بدرة مستخدمًا أفعل التفضيل ومؤكدًا ذلك حيث يقول:

ولأنـت أحـسـنُ إذا بـرزت لـنـا
يـومَ الخـروج بـسـاحـة الـقـصـرِ
مـن درةٍ أغـلـى بـهـا مـلـكٌ
ممـا تـربّـب حـائـرُ الـبـحـر[2]

(1) ممكورة الساقين. مرتوية الساقين. بردية: نبات البردي.
(2) المرأة عند شعراء صدر الإسلام 44.

ويقرر الشاعر أن المرأة التي أحبها قد فاقت نساء العالمين جمالاً وحسنًا كما فاق مطلع البدر كل الكواكب. لذا فهو يشتاق إليها ولا تغيب عن ذاكرته وهو يتذكرها كتذكر العطشان إلى ماء بعيد المنبع، وهي تجالسه فلا يمنعه شيء عنها سوى ضيق الذراع والحياء. وتمثل قصيدة حسان بن ثابت الهوى العذري عدا البيت الثاني عشر حيث نرى الشاعر يصف الساقين بالرواء.

كعب بن زهير

هو الصحابي كعب بن زهير بن أبي سلمى، وأمه كبشة بنت عمارة بن عدي بن سحيم بن مرّة، وأخواه، سالم وبجير، أسلم كعب في السنة الثامنة للهجرة، عقب منصرف الرسول ﷺ عن الطائف. ولما قدم رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام من منصرفه عن الطائف كتب بجير إلى أخيه كعب يخيره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، وأنّ من بقي من شعراء قريش، قد هربوا في كلّ وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض. فذهب كعب إلى المدينة ونزل على رجل له به معرفة ، ثم أتى رسول الله ﷺ، وكان النبي لايعرفه، فجلس بين يديه ثم قال:

يا رسول الله، إن كعب بن زهير أتاك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال نعم. قال: فأنا كعب. فوثب رجل من الأنصار فقال: دعني أضرب عنقه. فكفَّه النبي عليه السلام عنه، فأنشده كعب لاميته المشهورة التي مطلعها:

بانت سعاد، فقلبي اليوم متبولُ
مُتيّم إثرها، لم يُفْدَ، مكبولُ

فخلع النبي عليه بردته، كان ذلك في السنة التاسعة، وأراد معاوية أن يشتري منه بردة الرسول بعشرة آلاف درهم، فأبى كعب، فلما مات كعب، بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألف درهم، وأخذ منهم البردة.

صورة المرأة في شعر كعب بن زهير

كان للأطلال في الشعر العربي سواءً أكان في الجاهلية أوالإسلام مكانة أساسية لايستغني عنها الشاعر؛ للارتباط الوثيق بين الأطلال والبداوة، والبداوة استمرت بعد مجيء الإسلام وأيضا لاعتبار الأطلال مدخلا للغزل، وقد كان كعب بن زهير سليل أسرة شاعرة أخلصت للتقاليد الفنية، وكان هذا الاخلاص من قبل كعب بن زهير مترجما بالوقوف على الأطلال. كان كعب يختصرمرة فلا يولي الطلل أكثر من بيتين ويطول أخرى فيخصه بسبعة أبيات، والقدر الأكبر من أفكاره في صفة الأطلال جاء مدخلا للغزل، يدخل منه كعب إلى النسيب والتشبيب.

وكان كعب بن زهير ينسب بامرأة متوهمة، ولايشبب بمحبوبة حقيقية. وكانت صورة المرأة عند زهير راقية إلى حد ما فهو لايتصور المحبوبة خليلة تشتهى، بل حليلة تنجب، ونستنتج ذلك من نداء صاحبته بكنية أم شداد ولم يقصد بها التعميم ولكن قصد به التزكية «والدليل على ذلك أنه يقرنها بمهاة ولود ودود، أو بقرة وحشية نجلاء كحلاء فتحس أن في غزله ارتقاء بالغريزة من اشتهاء الذكر للأنثى إلى التفكر فيما يدل عليه هذا الاشتهاء من عظمة الخالق، ووحدة الخلق، وتشابه المخلوقات: إنسانها وحيوانها ونباتها».[1]

قال كعب[2]:

أرى أمَّ شـــدّادٍ بـهـا شِـبـهُ ظَـبـيـةٍ
تُـطـيـف بمكـحـول المـدامـع خـــاذلِ[3]
أغـنَّ غـضـيـضِ الـطَّـرف رخْـصٍ ظُـلـوفُـهُ
تـــرُودُ بمـعـتـمٍّ مـن الـرّمـل هائل[4]

(1) الشُّعراء في عصر النّبوّة والخلافة الرّاشدة د – غازي طليمات – أ – عرفان الأشقر – دمشق دار الفكر – ص 95

(2) ديوان كعب بن زهير. د .محمد يوسف نجم- دار صادر بيروت الطبعة الأولى 1995 ص92

(3) مكحول المدامع: ولدها. خاذل: تخلف عنها.

(4) أغن: في صوته غنه لأنه لم يصف بعد. غضيض الطرف: فاتر الطرف. رخص ظلوفه: أي ظلوفه لينة لم تشتد ولم تقو. ترود: تذهب وتجيء. معتم من الرمل: نبت في الرمل بلغ تمامه.

وتــرنــو بـعـيـنـيْ نـعـجـةٍ أمِّ فـرقـدٍ
تَـظـلُّ بـــوادي روضـــةٍ وخمائل[1]
وتـخـطـو عـلـى بـرديّـتـين غَـذاهُـمـا
أهـاضـيـبُ رجّـــافِ الـعَشـيّـات هاطِل[2]
وتـفـتـرُّ عـن غُـــرّ الـثـنـايـا، كـأنـهـا
أقـــاح تُـــروّى مـن عُـــرُوقٍ غـلاغـلِ[3]

ورغم إعراض النساء فإن ذلك لم يحمله على اليأس، بل زاد لهفته حرقة، ورغبته شدة، فيتشوق إلى وصالهن. فإن فاته الوصال اكتفى من الأوانس بالمؤانسة، ومن الحوار بالمحاورة، ومن الجمال بالنظر، ليمتع سمعه وبصره بما عجزت عن إدراكه الجوارح الأخرى، قال كعب:[4]

صـفـراءُ آنـسـةُ الحـديـثِ، بمثـلِـها
يَـشـفـي غـلـيـلَ فـــؤادِهِ الملهوفُ[5]
ولـــوَ أنَّـهـا جـــادت لأعـصـمَ، حـرزُه
مـتـمـنَّـعٌ دون الـسـحـاب مُنيفُ[6]
لاسـتَـنـزلـتْـهُ عَـيْـطَـلٌ مـكـحـولـةٌ
حـــوراءُ جـادَ لـهـا الـنِّـجـادَ خريفُ[7]

---

(1) ترنو: تديم النظر. النعجة: البقرة الوحشية. والفرقد ولدها.
(2) يريد أن ساقيها كالبرديتين في نعومتهما وبياضهما وصفائهما واستوائهما. أهاضيب: مفردها هضبة وهي الدفعة من المطر. رجاف: له صوت وهو الرعد ، الهاطل: ألمطر المنصب.
(3) تفتر: تبسم. غر: بيض. أقاح: مفردها أقحوانة. غلاغل: متغلغلة داخلة في الأرض.
(4) الشعراء في عصر النبوة والخلافة الراشدة – د. غازي طليمات – أ عرفان الأشقر ص 94
(5) صفراء: من الطيب. الغليل: العطش. الملهوف: المتأسف على ما فاته.
(6) الأعصم: الوعل والعصمة بياض في يده إذا أغبر، أو سواد إذا كان أغبر، أو سواد إذا كان أبيض. حرزه: كناسه. منيف: عال مشر.
(7) عيطل: طويلة العنق في حسن. جاد النجاد: أصابها بالجود أي المطر الغزير. والنجاد: جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض. والخريف: مطر يكون عند صرام النخل، وهو مطر أول الشتاء.

فقال كعب يمدح النبي عليه الصلاة والسلام[1]:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ

متيمٌ إثرها لم يُجز مكبولُ[2]

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا

إلا أغَنُّ غضيضٍ الطرف مكحول[3]

هيفاءُ مقبلةً عجزاء مدبرةً

لا يُشتكى قصر منها ولا طول[4]

تجلو عوارض ذي ظلمٍ إذا ابتسمت

كأنَّه منْهلٌ بالراح معلولُ[5]

شُجّت بذي شبمٍ من ماء محنيةٍ

صافٍ بأبطح أضحى وهو مشمول [6]

تجلو الرياحُ القذى عنه وأفرطه

من صوب ساريةٍ بيضٍ يَعاليل[7]

---

(1) ديوان كعب بن زهير. د .محمد يوسف نجم- دار صادر بيروت الطبعة الأولى 1995 ص 84.

(2) بانت: فارقت. متبول: أي أصيب بتبل، وهو الهلاك والفناء أي ذهب بفؤاده الحب. متيّم: الذي استولى عليه الهوى فاذلّه. مكبول: مقيد، والكبل هو القيد.

(3) الأغن: الذي في صوته غنة لأنه يخرج من خيشومه. غضيض الطرف: فاتر الطرف، وهو هنا الظبي.

(4) هيفاء: رقيقة الخاصرة. عجزاء: عظيمة العجيزة.

(5) العوارض: الأسنان، وهي ما بين الثنية والضرس. الظلم: الماء الذي يجري ويظهر على الأسنان من صفاء اللون. منهل: مشرب. بالخمر معلول: سقى الراح مرتين.

(6) شجت: كسرت. بذي شبم: بماء بارد. المحنية: ما انحنى من الوادي، فيه رمل وحصي صغار وهذا أصفى له. الأبطح: مسيل واسع فيه حصى. مشمول: أصابته ريح الشمال حتى برد.

(7) الضمير في عنه يعود إلى ماء المحنية: أفرطه: ملأه. صوب: مطر. السارية: السحابة التي تمطر ليلاً. بيض: فاعل أفرطه. يعاليل: تأتي مرّة تلو الأخرى، صفة لبيض.

يـا ويـحـهـا خُـلَّـةً لـو أنـهـا صدقت
مـا وعـدت أو لـو أنَّ الـنُّصح مقبول[1]
لـكـنّـهـا خُـلَّـةٌ قـد سـيـط مـن دَمِـهـا
فـجـعٌ وولـــع وإخـــلاف وتبديل[2]
فـمـا تـــدوم عـلـى حـــالٍ تـكـون بـهـا
كـمـا تـلـوّنُ فـي أثـوابـهـا الـغـولُ[3]
ومـا تمسَّك بـالـوصـل الـذي زعـمت
إلاَّ كـمـا تُمـسـك المـــاء الـغـرابـيـل
كـانـت مـواعـيـدُ عُـرقـوبٍ لـهـا مـثـلاً
ومـــا مـــواعـيـدهـا إلاّ أبـاطـيـل

والصورة التي رسمها كعب بن زهير للمرأة في لاميته التي مدح بها الرسول ﷺ يتأكد فيها رأيه في المرأة بصورته الواقعية والرّمزية «فالمرأة التي يتحدث عنها كعب في قصيدته كذوب على الرّغم من جمالها فهي لا تسمع نصحًا، ولا تصدق قولًا، وقد وصل الأمر إلى أن يكون الكذب طبيعة فكأن المرأة هنا صورة للحياة الجاهلية التي ولّت، والتي لم تدم للشاعر الذي ظلَّ متمسكا بأطرافها. وكأنّ الجاهلية امرأة لعوب. فهي على جمالها الظاهر قبيحة الطباع، تكذب صاحبها، وتفجعه فيها. وتعكس هذه الصورة – امرأة يكابد الشاعر الآلام في عشقه لها، ويعاني تقلبها وكذبها.

وقد رسم لنا كعب أيضًا تجربته مع المرأة في عهد الشيخوخة وكشف عن معاناته الشديدة بسبب رفض المرأة له في شيخوخته يقول كعب[4]:

(1) خلّة: حبيبة أو صديقة. يقول: ما أتهمها لو أنها صدقت موعدها ولو قبلت نصحي لها في أمري.
(2) سيط: خلط. الفجع: المصيبة. الولع الكذب.
(3) الغول: السعلاة. ويزعم العرب أنها تتراءى لهم في الفلوات وتتلون لهم بألوان شتى وتضلهم عن الطريق.
(4) المرأة عند شعراء صدر الإسلام، أ.د.حسني عبدالجليل يوسف – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة الطبعة الأولى 2006 ص 168.

ألا بَـكَـرت عـرسـي تـلـوم وتـعْـذلُ
وغـيـرُ الـذي قـالـت أعـفُّ وأجـمـلُ
ولمـا رأت رأسـي تـبـدّل لـونُـهُ
بـيـاضًـا عـن الـلـون الـذي كـان أوّلُ
أرنَّـت مـن الشيب العجيب الـذي رأت
وهـل أنـتِ مـنِّـي ويـبَ غـيـركِ أمثلُ[1]
كـلانـا عَـلَـتـه كـبْـرةٌ فـكـأنَّمـا
رَمَـتـهُ سـهـامٌ فـي المـفـارق نُصّل[2]

وفي قصيدة أخرى يودّع كعب محبوبته رملة بنظرات ممتزجة بالعبرات، وقلبه يكاد يتميز من الغضب على حادي القافلة بعد أن انتزع منه محبوبته انتزاع حاقد منتقم. قال كعب[3]:

هـل حـبـلُ رمـلـةَ قـبـل الـبـين مـبـتـورُ
أم أنـتَ بـالحِـلْـم بـعـد الجـهـل مـعـذورُ
مـا أنـسَ لا أنْـسـهـا والـدمـع مُـنْـسـربٌ
كـأنـه لـؤلـؤٌ فـي الخـدِّ مـحـدور
لمـا رأيـتـهـم زُمَّـت جـمـالُـهُـم
صـدَّقْـتُ مـا زعـمـوا والـبـين مـحـذُور
يـحـدو بـهـن أخـو قـاذورةٍ حـذرٌ
كـأنـه بـجـمـيـع الـنـاس مـوتـور

(1)أرنت: صوتت وأظهرت من ذلك جزعا: وهل أنت ... يقول أصابك ما أصابني من الشيب فلست خيرًا مني.
(2)نصل: لا نصال لها.
(3)الشعراء في عصر النبوة والخلافة الراشدة، د. دكتور غازي طليمات، أ.عرفان الأشقر، دمشق دار الفكر، ص 93.

كما يربط الشاعر بين معاناته عندما شاب شعره بين جفاء المرأة له وسوء عشرتها معه فيقول[1]:

بـان الشبـابُ وأمسـى الشيبُ قـد أزِفَـا
ولا أرى لـشبـابٍ ذاهـبٍ خَلَفا[2]
عـاد الـسـوادُ بـيـاضًـا فـي مـفـارقِـهِ
لا مـرحـبًـا بـهـذا الـلـون الـذي ردفَـا[3]
فـي كـل يـومٍ أرى مـنـه مـبـيِّـنـةً
تـكـاد تُـسـقِـطُ مـنِّـي مُـنَّـةً أَسَـفَـا[4]
لـيـت الـشـبـابَ حـلـيـفٌ لا يُـزايـلـنـا
بـل لـيـتـه ارتـدّ مـنـه بـعـضُ مـا سَلـفا
مـا شـرُّهـا بـعـدمـا ابـيـضّـت مسائِـحُـهـا
لا الـود أعـرفـه مـنـهـا ولا اللَّطَفا[5]
لـو أنـهـا آذنـتْ بِـكـرًا لـقـلـتُ لـهـا
يـا هـيـدَ مـا لِـكِ أو لـو آذنَـتْ نَصَفا[6]
لـولا بـنـوهـا وقـولُ الـنـاس مـا عُـطِـفَـتْ
عـلـى الـعـتـاب وشـرُّ الـوُدِ مـا عَطَفَا[7]

---

(1)ديوان كعب بن زهير قراءة – د. محمد يوسف نجم الطبعة الأولى 1995 –ص 52.
(2)أزف: قدم، وحان وقته.
(3)ردفا: جاء بعد ولم يكن، كالردف وهو راكب خلف الراكب.
(4)مبينة: علامة. المنة: القوة.
(5)المسائح: ما يمر الماسح يده عليه من الرّأس، أو ما نبت على أعراض الرّأس أو الذوائب أو ما ارتفع عن أعلى الأذنين.
(6)آذنت: أعلنت وأنذرت. بكرا: وهي بكر. يا هيد مالك: بمعنى ما شأنك وما بالك. النصف: التي بين الشابة والعجوز.
(7)لولا أن لي منها بنين، وأن الناس يلومونني في مفارقتها، ما عطفت عليها ولا عاتبتها ولكان فراقها علي هينًا.

فلن أزالَ وإن جاملتُ مضْطَّغِنًا

في غير نائِرَةٍ ضَبًّا لها شَنَفا[1]

ويكشف عن تمنيه بأن يكون الشباب حليفًا لا يفارقه وذلك لأنه يرى أن السعادة لا تكون إلا مع الشباب. وينتقل بعدها إلى الاستفهام عن شأن المرأة أو شرها بعدما ظهر الشيب عليه، حيث لم تعد توده ولا تبادله حبًّا بحب فقد فقدت عنده أو عندها المشاركة الوجدانية والمودة، ولم تعد لها رغبة فيه بسبب شيخوخته، ويستغرب الشاعر من نشوزها وأنها قد جانبت الصواب فلو أنها نشزت وهي فتاة صغيرة أو هي بين الشباب والشيخوخة لتحدث معها وسألها عن سبب هذا النشوز، ولكن بعد أن فارق كل منهما الشباب، فإن الشاعر يرى أنه لا سبب لهذه المساءلة، ويصل به الأمر إلى التصريح بأن كل ما يربطه بها لم يعد الود والحب بل هو كونها أمّا لأولاده، ويعترف بأن هذا شر ضروب المودة والعطف.

يقول كعب معنفًا تلك الزوجة على سوء عشرتها، ويسعى لاسترضائها وملاينتها حتى تحسن عشرته فيقول[2]:

إنّ عِرْسي قد آذنتني أخيرا

لم تعرِّج ولم تؤامر أميرا

أجهارًا جاهرت لا غيب فيه

أم أرادت خيانةً وفجورا

ما صلاحُ الزوجين عاشا جميعًا

بعد أن يصرم الكبير الكبيرا

فاصبري مثلَ ما صبرت فإنّي

لا أخالُ الكريمَ إلا صبورا

(1) يقول: ما أزال، وإن جاملت، أكنُّ لها حقدًا، لا عن عداوة ونائرة ولكنه اضطغان معتبة. الضب: الحقد. شنف: الرجل صاحبه إذا أبغضه. النائرة: النفار يربط الشاعر بين ما يعانيه في حياته من جفاء وغيره من فقدان الشباب.

(2) المرأة عند شعراء صدر الإسلام أ. د. حسين عبدالجليل، دار السلام للطباعة، ص 174.

أيّ حـــينٍ وقـــد دبـــبـــتُ ودبَّـــتْ
ولـبـسـنـا مـــن بـعـد دهـــرٍ دهـــورا
مـــا أرانـــــا نـــقـــول إلا رجـيـعًـا
ومـــعـــادًا مـــن قـولـنـا مـكـرورا
عـذلـتـنـي فـقـلـتُ لا تـعـذلـيـنـي
قـــد أغـــادي المـــعـــذَّل المـخـمـورا
ذا صـــبـــاحٍ فـلـم أوافِ لـديـه
غـيـــرَ عـــذَّالـــةٍ تـــهـــرُّ هـريـرا

والشاعر يكشف تبرم زوجة غير مهتمة بالقيم، ويتساءل عما إذا كان أمرها لا عتاب فيه ولا ترجى فيه المراجعة، أم أنها أرادت خيانة وفجورًا.

ويعود الشاعر إلى استعطاف الزوجة ودفعها إلى الجادة والرشد، ويتساءل عن صلاح الزوجين اللذين عاشا معًا فترة من الزمن حين يصرم أحدهما الآخر في كبره. والشاعر نراه على يقين بأن الزوجين في هذه السن أقرب إلى التبرم، حيث العجز واليأس والإحباط، ولهذا يناشد زوجته أن تصبر مثل ما صبر، وهو لا يظن الكريم إلا صبورًا.

وهذه المقولة تمثل المحور الأساسي للحياة الزوجية عامة وفي مرحلة الشيخوخة على وجه الخصوص. والشاعر يصرح بأنه قد صبر على زوجته، عندما فقد عندها أشياء قد رغب فيها، وهي أيضًا بدورها تفتقد عنده أشياء ترغب فيها وتجد عنده ما لا تحبه، كما يجد بدوره عندها ما لا يرغب فيه، لهذا يرى الشاعر أنه عليه أن يصبر وتصبر، والشاعر يشعر أن حياتهم لا جديد فيها، بل هي مكررة فتجلب لهم السأم والملل.

الحُطَيئة

الحطيئة لقب الشاعر، واسمه جرول بن أوس بن مالك من قبيلة عبس وكنيته أبومليكة، ومعنى الحطيئة بالتصغير هي القملة الصغيرة، ولقب الشاعر بهذا اللقب لدمامته، وقصره وقربه من الأرض، وكانت أمه الضراء أمة لزوجة أوس بن مالك،

أعلقها الحُطيئة ورحل عنها ولّما سألتها مولاتها من أين هذا الصبي هابت أن تقول لها: من زوجك، فقالت من أخيك وأشفقت زوجة أوس على جرول، فاعتقته وربته كأنه ولدها، غير أن الغلام عندما يفع كان يسأل عن أبيه، فلا يجاب إجابة شافية، رغم أن أمه الضراء أقرّت بأنها علقت به من أوس بن مالك ولكنّ من حوله كانوا ينكرون عليه هذا النسب. عانى الحطيئة من منقصة النسب المغمور ما عانى عنترة بن شداد غير أن عنترة كان أفضل حالًا منه، إذ استطاع أن يضع لنفسه بسيفه نسبًا، وعجز الحطيئة لأنه لم يشهر سيفًا، فبقي زنيما دعيّا تقتحمه العيون، حتى بعد أن تزوج وأنجب ولدين هما سوادة وإياس وبضع بنات منهن مليكة، وكان بارًا بأطفاله محبًّا لأسرته، وقد ذكر أن الحطيئة عندما أراد سفرًا أتته امرأته، وقد قدمت راحلته ليركب فقالت[1]:

أُذكـــــر تحـنّـنـا إلـيـك وشـوقـنـا

واذكـــــر بـنـاتـك إنـهـنَّ صـغـار

فحركت قلبه بشعرها فقال: حطوا، لا رحلت أبدا. أما عن إسلامه فقد رأى البعض أنه أسلم قبل وفاة النبي ﷺ، والبعض الآخر يرى أنه أسلم في عهد أبي بكر، وكان الحطيئة يتاجر بالبضاعة التي لا يملك سواها وهي المدح، فإن أعطاه الممدوح ما يكفيه شكره، وإن لم يعطه هجاه أو هدّد بالهجاء، عمّر دهرًا في الجاهلية ودهرًا في الإسلام، وعندما أحسّ بدنو أجله طلب من أهله أن يركبوه آتانًا، ويطوفوا به حتى يموت، فأجابوه، فكان ينشد، وهو يحتضر:

مـا أبـصـر الأقـــوام كـالحـطـيـئـة

هـجـا بـنـيـه، وهـجـا المُـريّـه

مـن لـؤمـه مـات عـلـى فُـريّـه

(1) الشعراء في عصر النبوة والخلافة الراشدة، د. غازي طليمات، أ. عرفان الأشقر الطبعة الثانية 2007 دار الفكر ص 272.

وتطلعنا هذه الميتة المضحكة المبكية في الوقت نفسه أن الشاعر كان حانقًا من نفسه بسبب احتقار الدنيا له واحتقاره لها وكأنّه أراد أن ينتقم من نفسه في شكل هذه الميتة الغريبة. والشاعر لم يستثن أحدًا من هجائه حتى نفسه، وقد هجا الحطيئة أمّه والتي لم يكن راضيًا عنها بسبب جهله لنسبه كما هجا أباه، فشبه أمه بشر النساء، وأباه بشر الرجال، وأشر منهما من أنجبوهما من بني جحش وقبيلة عبس التي تنكرت له، فوصفهم بأنهم أهون الناس على الناس، وقصادهم أهون منهم فيقول:

ولقد رأيتكِ في النساء فسؤتِني
وأبا بنيكِ فساءني في المجلسِ
إنَّ الذليلَ لمن تزور ركابه
رهطَ ابن جحشٍ في مضيق المحبس
رهط ابن حجشٍ في الخطوب أذلةٌ
دُسُم الثياب قناتُهُم لم تضْرسِ

كما هجا الشاعر زوجته فجعلها ذميمة فيقول:

أطوّفُ ما أطوّفُ ثم آوي
إلى بيتٍ قعيدته لكاعِ

المرأة في شعر حطيئة

لم يكن الحطيئة زير نساء كامرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة، ولاعاشقًا عذريًّا أضناه الشوق والهيام للمحبوبة كقيس وجميل بثينة، ولكن رغم قبح منظره فإنه كان إنسانًا يمتلك كل ما يملكه البشر من الغرائز فعبر عن هذه الغرائز بالغزل تعبيرًا واقعيًّا مستمدًا من الشهوة التي فطر عليها، بالإضافة إلى الموهبة الفنية التي هذبت هذه الشهوة، وألبستها لباس الجمال. ورغم احتقار الناس للحطيئة فإن هذا لم يغرس في نفسه الحقد، ولم يصرفه عن الحب، لأن ما وصلنا من شعره يوضح لنا ما حواه جسده القبيح من روح كبيرة، وحس مرهف، ولولا هذا الحس المرهف والرقة والنبل عند الحطيئة لما وقف على طلل ولا نظم الغزل، ولا نسب بامرأة،

وفتن بطيف. «إن في ديوان الحطيئة كل أنماط الغزل: فيه الوصف التقليدي للطلل والمقدمات التي تُزيّن بها مطالع القصائد، وفيه كذلك غزل حسي لا يبرأ من غرام الشهوة، وغزل عذري ينأى بالعشق عن الفسق، ويكتفي منه بالحور والخفر، فيحدثك عن نظرة الطرف، وزيارة الطيف حديث العاشق المتيم[1].

يقول[2]:

يـا دارَ هـنـدٍ عَـفَـت إلاّ أثـافـيـهـا
بـين الـطّـويّ فـصـاراتٍ فواديها[3]
أرّى عـلـيـهـا ولـيٌّ مـا يـغـيِّـرُهـا
وديمـةٌ حُـلِّـلَـت فـيـهـا عزاليها[4]
قـد غـيّـرَ الـدَّهـرُ مـن بـعـدي مـعـارفـهـا
والـرِّيـح، فـادَّفـنـت فـيـهـا مغانيها[5]
جـرتْ عـلـيـهـا بـأذْيـالٍ لـهـا عُـصُـفٌ
فأصبحت مثل سحْقِ البُرْد عافيها[6]
كـأنّـنـي سـاوَرتْـنِـي يـومَ أسـألـهـا
عـودٌ مـن الـرُّقـش مـا تـصـغـي لـراقـيـهـا [7]
حـتـى إذا مـا انجـلـت عـنّـي قَـعَـدْتُ على
حـرفٍ تـهـالـكُ فـي بـيـدٍ تُـقـاسـيـهـا

---

(1) الشعراء في عصر النبوة والخلافة الراشدة، د.غازي طليمات، أ. عرفان الأشقر الطبعة الثانية 2007 دار الفكر ص291.

(2) ديوان الحطيئة شرح حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت الطبعة الأولى 2003.

(3) الأثفية: الحجرة التي توضع عليها القدر للطبخ. الطوى: بئر بمكة، صارة: جبل يقع بين وادي القرى وتيماء وقيل هو جبل في ديار بني أسد.

(4) أرى: أقام، الولي: مطر يأتي بعد الوسمي، والوسمي الأول روي البيت بلفظ: «وديمة حليت» العزلاء: مصب الماء من الراوية ونحوه.

(5) روي البيت بلفظ «فادفنت منها».

(6) عصف: رياح عاصفة شديدة، سحق البرد: أبلاه، هو الثوب البالي. . العافي: هو الدارس المندثر.

(7) العود: المسنة.

أرمـــي بـهـا مـعـرِضَ الـــدَّوِّيّ ضـامـرةً

فـي لـيـلـةٍ مـا يـــذوقُ الـنُّـوْمَ ساريها[1]

مرّ الشاعر بديار هند كعادة الشعراء، فلم يجد فيها غير حجارة الموقد السوداء فأوحى إليه هذا السواد بالحزن وطاف خيال الشاعر وتصور ما تعاقبت على هذه الديار من رياح وأمطار وسيول، هدمت معالمها، حتى بليت كما يبلي توالي العهد وبر البرد.

ورغم أن الحطيئة لم يمنح نصيبًا من وسامة الوجه، لكنه منح القدرة على تذوق الجمال وتصويره، وعشق الحسان من النساء يقول حطيئة[2]:

آثـــرتُ إدلاجـــي عـلـى لـيْـلِ حُـــرَّةٍ

هَـضِـيـم الحَـشـا حُـسَّـانَـةُ المُتَجَرِّدِ[3]

إذا الـنـوم ألـهـاهـا عـن الـــزَّادِ خِـلْـتَـهـا

بُـعَـيْـد الـكَـرَى بـاتَـتْ عـلـى طـيِّ مُجْسَدِ[4]

إذا ارْتـفَـقَـتْ فـوْق الـفِـرَاشِ تـخـالـهـا

تَـخـافُ انـبـتـاتَ الخَـصْـرِ مـا لـم تَشَدَّدِ[5]

وتُضْحي غَضِيضَ الطَّرْفِ دونـي كأنما

تَـضَـمَّـنَ عَـيْـنَـيْـهـا قَـذًى غَـيْـرُ مُفسِدِ[6]

---

(1) للبيت رواية بلفظ ضامزة: يريد هنا لا ترغو.

(2) ديوان الحطيئة، حمدو طمّاس – الطبعة الأولى 2003، دار المعرفة بيروت ص 48.

(3) الحرة: المرأة الكريمة. هضيمة الحشا: أي ضامرة البطن. حسّانة المتجرد: أي حسنة عند التجرد من الثياب.

(4) الزاد: أي الطعام. طيِّ مجسد: أي الثوب المصبوغ بالزعفران.

(5) ارتفقت: اتكأت على مرفقها انبتات الخصر: أي انقطاعه. تشدد: أي تقوى، وقد روي البيت «حسبتها بعيد الكرى».

(6) غضيض الطرف: أي فاترة الطرف، فهي لا ترفع طرفها لشدة الحياء. القذى: هو الرّمص الذي يكون في العين. غير مفسد: أي لم يبلغ أن يفسد عينيها، وقد روي البيت: تراها تغض الطرف».

إذا شئتُ بعْد النَّومِ ألقيتُ ساعدًا

على كَفَلٍ ريَّانَ لمْ يتَخَدَّد[1]

لها طِيبُ ريّا إن نأتْنِي وإن دَنَتْ

دَنَتْ وعثَةً فوق الفِرَاشِ المُمَهَّد[2]

خَمِيصَة ما تحت الثِّيَابِ كأنَّها

عَسِيبٌ نَما في ناضِرٍ لمْ يُخَضَّدِ[3]

تُفَرِّقُ بالمِدْرَى أثِيثاً نباتُهُ

على وَاضِحِ الذِّفْرَى أسِيلِ المُقَلَّد[4]

تَضَوَّعُ ريَّاها إذا جئْتَ طارِقًا

كرِيحِ الخُزامَى في نباتِ الخَلى النَّدِي[5]

فلما رأت من في الرِّحَالِ تعرَّضَتْ

حَياءً، وَصَدّتْ تَتَّقي القوْمَ باليَد[6]

فَبِتنا ولم نكذِبْك لو أنَّ ليلَنَا

إلى الحَوْلِ لم نَمْللْ وقلنا له ازْدِدِ[7]

---

(1) الكفل يراد به العجيزة. الريان: أي الممتلئ باللحم. لم يتخدد: لم يهزل، وقد روي البيت: «وإن شئت.. ساعدي».

(2) الوعثة: هي كثيرة اللحم الوثيرة البدن. الممهد: أي المفروش.

(3) العسيب: أي الذي عليه الخوص من سعف النخل. نما: ارتفع. الناضر: الناعم والحسن. لم يخضد: أي لم يكسر ولم يثن، وقد روي البيت: «ما تحت النطاق» وروي أيضًا «عميمة ما تحت النطاق».

(4) المدرى: أي المشط. أثيثا: يعني شعرًا كثير الأصل. على واضع الذفري: أي على جيد واضع الذفري، والذفريان: الحيدان الناتئان عن يمين النقرة وشمالها. الأصيل أي الطويل. المقلد: هو موضع القلادة، وقد روي البيت «وتفرق بالمدرى أثيثًا نباته».

(5) تضوع: أي تفوح وتنتشر وتفشو رائحتها. الريا: الريح الطيبة. الخزامى: نبات طيب الرائحة. الخلي: أي الرطب من النبات.

(6) من في الرحال: يعني أصحابه. تعرضت: ولّتنا عرضها، والعرض: الجانب. صدت: تأخرت. تتقي القوم باليد: أي تستر بيديها.

(7) الحول: العام. ازدد: أي زد عدد أيامك.

الملامح الأساسية للنموذج الذي شكله الحطيئة للمرأة ملامح مثالية من ناحية، فهي هضيمة الحشا أي ضامرة البطن، ويظهر ذلك جليًّا حين يلهيها النوم عن الطعام، فهي تبدو كأنما تخاف أن ينقطع خصرها من دقته ، وشبهها وهي على هذه الحالة بالثوب الذي عبقت فيه رائحة الزعفران.

وجسدها ممتلئ رغم قلة أكلها، ورائحتها طيبة حتى وإن بعدت عنه شمّ لها رائحة ذكية وشعرها كثيف، وهي عندما شاهدت أصحابه استحيت وأخذت تتقي نظراتهم وتستتر منهم بيدها، وتمنى الشاعر وهو مع هذه المرأة لو امتد الحول لم يملل ولقال للعام زد عدد أيامك.

وحياء المرأة عند الحطيئة حياء الأنثى الراغبة دومًا، التي تتمنع تأكيدًا وتجميلًا للرغبة لا رافضة لها.

والحطيئة كغيره من الشعراء القدماء يسترسل في وصف المرأة فيقول[1]:

نَـــأَتْـــكَ أُمَـــامَـــةُ إلّا ســـؤالا
وَأَبْـــصَـــرْتَ مِـنْـهَـا بِـطَـيْـفٍ خَـيَـالا
خـــيـــالًا يَـــرُوعُـــكَ عـــنـــدالمَـنَـامِ
ويـأبـى مـع الـصُّـبْـحِ إلا زَوالا[2]
كِـــنَـــانِـــيَّـــةٌ دارُهـــــا غَـــرْبَـــةٌ
تُجِـــدُّ وِصَـــالاً وتُـبْـلـي وِصَـــالا[3]
كـعـاطـيـةٍ مـــن ظـبـاءِ الـسَّـلـيـلِ
حُـسَّـانَـةِ الجِـيـدِ تُـزْجـي غَـــزَالا[4]

(1)ديوان الحطيئة، حمدو طمّاس، ص 106.
(2)للبيت رواية أخرى «وإلا خيالا يوافي خيالا «ويروى أيضًا «بغيب خيالا».
(3)الغربة: يقصد بها النائية البعيدة.
(4)العاطية: هي الناقة التي تتناول الغصن بظلفها إذا كان مرتفعًا. السليل: كل واد ينبت فيه نبات ذو طلح. ويروى البيت «ترعى غزالاً».

تَـعَـاطَـى الـعِـضَـاهَ إذا طَـالـهـا

وتَـقْـرُو مـن الـنَّـبْـتِ أرْطـى وَضَـالا[1]

فالحطيئة كغيره من الشعراء يسترجع هذه الصفات القديمة، ويضمنها شعره، ويتصل ذلك بنموذج مثال للمرأة فالمرأة عند الحطيئة حسانة المتجرد كما يقف الحطيئة أمام أطلال محبوبته وقوفًا كثيرًا فيقول[2]:

عـرفـتُ مـنـازِلاً مـن آلِ هِـنـدٍ

عَـفَـتْ بـين المُـؤَبَّـلِ وَالـشَّـوِيِّ[3]

تَـقَـادَمَ عَـهْـدُهَـا وَجَـرَى عَـلَـيْـهَـا

سَـفِـيٌّ لـلـرِّيَـاحِ عـلـى سَـفِـيِّ[4]

تَـرَاهَـا بَـعْـدَ دَعْـسِ الحَـيِّ فِـيـهـا

كـحَـاشِـيَـةِ الـرِّدَاءِ الحِـمْـيَـرِيِّ[5]

أكـلَّ الـنَّـاسِ تَـكْـتُـمُ حُـبَّ هـنـدٍ

ومـا تُـخْـفِـي بـذلـك مِـنْ خَـفِـيِّ

غَـذِيَّـةُ بَـيْـنَ أبْـوابٍ ودُورٍ

سـقـاهـا بَـرْدُ رائِـحَـةِ الـعَـشِـيِّ

مُـنَـعَّـمَـةٌ تَـصُـونُ إلَـيْـكَ مِـنْـهَـا

كَـصَـوْنِـكَ مـن رداءٍ شَـرْعَـبِـيِّ

يـظـلُّ ضَـجِـيـعُـهَـا أرِجًـا عَـلَـيْـه

مُـقـارفـةً مِـن المِـسْـك الـذَّكِـي[6]

(1) عضة: أي ذات شوك. تعاطي: أي تتناول. تقرو: تتبع.

(2) ديوان الحطيئة- حمدو طمّاس، بيروت ص 155.

(3) عفت: أي درست واندثرت. المؤبل: هي الإبل الكثيرة.

(4) السفي: كل ما سفته الريح من تراب، وقد روي البيت بلفظ تقادم عهده وجرى عليه.

(5) الدعس: هو كثرة الوطء. وروي البيت: بلفظ «الرداء الأتحمي».

(6) المقارفة: هي المخالطة. الذكي: هو الساطع الريح..

يُـعـاشِـرُهـا الـسّـعِـيـدُ ولا تَـرَاهـا
يُـعـاشِـرُ مِـثْـلـهـا جَـــدُّ الـشَّـقِـيِّ
فـمـا لـــك غـيـرُ تَـــنْـــظـارٍ إلـيـهـا
كـمـا نـظـر الـفـقـيـرُ إلـــى الغَنِيِّ[1]

ويقف الشاعر على الأطلال يسأل نفسه أتكتم حب هند على كل الناس؟ وهو توضيح من الشاعر حرصه على كتمان حب هند على كل الناس، وحائر إزاء هذا الكتمان. إن المحبوبة جميلة تصون نفسها من كل ريبة، وهي منعمة سقيت من برد العشي، وهي من النساء اللائي يسعدن أزواجهن ، ومثل هذه المرأة لا يعاشرها الشقي بل يعاشرها من هو طيب مثلها.

ولم يبق للشاعر إلا النظر إليها بعين المتمني لها كما ينظر الفقير إلى الغني متمنيًا الرفاهية التي يعيش فيها الغني. والمرأة عند الحطيئة ذكرى جميلة بعيدة المنال. يقول الحطيئة[2]:

أفـي مـا خـلا مـن سـالـف الـعـيـش تـذَّكّـرْ
أحـاديـثَ لا يُـنْـسيكَها الشيبُ والعمرْ[3]
طـربـتَ إلـــى مـــن لا نـؤاتـيـك داره
ومـن هـو نـاءٍ والـصَّـبـابـةُ قـد تَضُر[4]
إلـــى طَـفْـلَـة الأطـــراف زيَّـــن جـيـدَهـا
مـع الحَـلْـي والـطِّـيب المـجَـاسِـد والخُمُر[5]

(1) التنظار: هو النظر.
(2) ديوان الحطيئة – حمدو طمّاس، ص 80-81.
(3) وقد روي البيت «أفيما مضى من سالف الدهر».
(4) الطرب «خفة من الفرح أو الحزن». الصبابة: رقة الشوق، وقد روي البيت بلفظ: «يؤاتيك ذكره».
(5) الطفلة: الرخصة الأطراف.

مـن الـبـيض كـالـغـزلان والـغُـرِّ كـالـدُّمـي

حـسـانٌ عـلـيـهـنّ الـمـعـاطـفُ والأُزُر[1]

تـرى الـزعـفـران الـورد فـيـهـنَّ شـامـلاً

وإن شئن مسكًا خـالـصًـا ريـحـه ذفر[2]

عـلـيـلاً عـلـى لـبّـات بـيـضٍ كـأنَّـهـا

بـنـاتُ الـمـلا مـنـهـا الـمـقـالـيـت والنُّزر[3]

الشاعر يقول إن تذكر أحاديث في أيام الشباب لا ينسيها الشيب وطول العمر، والارتباط بالماضي واستحضار الذكريات هو الممكن الوحيد ، وهذه الذكريات مقترنة بالحسرة والألم، فالشاعر لا ينسى تلك المحبوبة الجميلة، ويطرب إليها وهي بعيدة عنه، وهو طرب وحنين إلى من بعد عنه.

الصورة المختلفة للمرأة

عند شعراء صدر الإسلام نرى وجهًا مختلفًا للمرأة حيث تعودنا من الشعراء على التحدث عن جمال المرأة وعن فتنتها، فنرى عند الشاعر جران العود لونًا آخر وصورة أخرى، فنراه يهجو زوجته التي خدع فيها حيث تزوجها على أنها جميلة، فإذا بها نموذج للقبح والشر.

يقول الشاعر:

ألا لا يـغـرّنَّ امـرَأ نـوفـلـيَّـةٌ

عـلـى الـرأس بـعـدي أو تـرائـبُ وُضَّحُ[4]

---

(1) الغر: البيض، وقد روي البيت بلفظ: «والحور كالدمى».

(2) روي البيت بأكثر من لفظ منها: «ومسكًا ذكيًّا خالصًا ريحه»، وروي بلفظ «خالصًا لونه».

(3) بنات الملا: يريد البقر الوحشية.

(4) النوفلية: ضرب من المشط، أو ما تتخذه نساء الأعراب من صوف يكون في غلظ أقل من الساعد، ثم يحشى ويعطف فتضعه المرأة على رأسها، ثم تختمر عليه. والترائب: عظام الصدر.

ولا فـاحِـمٌ يُـسْـقـى الـدِّهـان كَـأَنَّـهُ
أســاودُ يَـزهَـاهَـا لـعـينـيك أبْـطَـحُ[1]
وأذنـــابُ خَـيـلٍ عُـلِّـقَـتْ فـي عَـقـيـصَـةٍ
تــرى قُـرطـهـا مــن تحـتـهـا يـتـطـوّح

يعبر الشاعر عن تلك المظاهر الكاذبة من الزينة التي تستخدمها المرأة لتخفي عيبها وتخدع به الخاطب. ويؤكد الشاعر في الأبيات التالية المظاهر الكاذبة التي تستخدمها المرأة لتخدع الرجل حيث تراه يقول[2]:

فـإنّ الـفـتـى الـمـعـروف يـعـطـي تِـلَادَهُ
وَيُـعْـطِـي الـثَّـنـا مـن مـالـه ثـم يُـفْـضَـحُ
وَتَـغْـدو بمِـشْـحَـاجٍ كـأن عِـظَـامـهـا
مَـحَـاجِـنُ أعـراهـا الـلِّـحـاء المشبّحُ[3]
إذا ابـتـزَّ عـنـهـا الـــدِّرع قـيـل مـطَّـردٌ
أحـصُّ الـذُّنـابَـى والـذراعـين أرْشَـــحُ[4]
فـتـلـك الـتـي حـكَّـمَـتُ فـي الـمـال أهـلـهـا
ومـا كـلُّ مـبـتـاعٍ مـن الـنـاس يَـرْبَـحُ
تـكـونُ بـلـوذ الـقـرن ثـمّ شـمـالُـهـا
أحـثُّ كـثـيـرًا مـن يمـيـنـي وأَسْـــرَحُ[5]
جـرتْ يـوم رحـنـا بـالـرّكـاب نـزفُـهـا
عـقـاب وشـحَّـاجٌ مـن الـطـيـر متيحُ[6]

(1) أساود: حيات سود. يزهاها: يرفعها.
(2) ديوان جران العود النميري، تحقيق نوري القيسي، دار الرشيد بغداد، طبعة الأولى 1982، ص37-38.
(3) المحاجن: الصوالجة. المشبح: المقشور. مشحاج: امرأة سريعة المشي، وهو عيب.
(4) المطرد: الظليم المطرود. أحص: لا ريش عليه.
(5) لوذ: جانب.
(6) شحاج: الغراب. متيح: يأخذ في كل وجه.

فـأمـا الـعـقـاب فـهـي مـنـهـا عُـقـوبـةٌ
وأمـــا الـــغُـــراب فـالـغَـريـبُ المـطـوَّحُ
عُـقَـابٌ عَـقْـبـنَـاةٌ تـرى مـن حِـذَارِهَـا
ثـعـالـبُ أهْـــوى أو أشـاقـر تَضْبَحُ[1]

والشاعر يتحدث في حسرة عن المرأة القبيحة التي حكم أهلها في المال بما وهبهم ما طلبوا من مهر. ويطلعنا على النتيجة التي تمخضت عنها تلك التجربة وهي أنه «ليس كل مبتاع من الناس يربح» فقد خسر البيع، وفجع بامرأة جمعت القبح والشر، ولم يكن لديها ما كان يرجوه من الجمال والأنوثة، وقد كان الشاعر ضحية التقاليد البدوية المتبعة في ذلك الوقت؛ لأن الإسلام لم يكن قد تمكن منهم ولم يكونوا قد استوعبوا كل التعاليم الإسلامية، لأن الإسلام سمح للرجل أن ينظر إلى المرأة، التي يريد خطبتها بدون علمها، وحتى لا يكون لديها فرصة للتزين لتستر دمامتها، وأيضًا حتى يقع في قلبه شيء من حبها. وينتقل بنا الشاعر من حديثه عن زواجه، معاناته مع زوجتيه، ثم عن مكابدته سوء العشرة التي تصل إلى حد ضربه[2].

لـقـد كـان لـي عـن ضـرَّتـين عَـدِمْـنـنـي
وعـمَّـا أُلاقـــي مِـنْـهُـمَـا مُـتَـزْحـزَحُ
هـي الـغـولُ والـسِّـعـلاة حَـلْـقـي منهما
مُـخـدَّشٌ مـا بـين الـتَّـراقِـي مُـجَـرَّحُ
لـقـد عـالجـتـنـي بـالـنِّـضـاء وبـيـتُـهـا
جـديـدٌ ومـن أثـوابـهـا المـسـكُ يَـنْـفَـحُ
إذا مـا انـتـصـيـنـا فـانـتـزعـتُ خِـمـارهـا
بـدا كـاهِـلٌ مـنـهـا ورأسٌ صَمَحْمَحُ[3]

(1) العقبناة: السريعة الخطف. أهوى: ماء لقبيلة غنى. وأشاقر: موضع. تضبح: تصيح.
(2) ديوان جران العود النميري، ص 39-41.
(3) الصمحمح: رأس أصلع.

تُــدَاوِرُنـــي فـي الـبـيـت حـتـى تكبّـنـي
وعـيـنـيَ مـن نـحـو الــهِــراوة تَـلْـمـحُ
وقــد علَّـمـتـنـي الــوقْـذ ثـم تَجُـرنـي
إلـــى المـــاء مـغـشـيًّـا عـلـيَّ أرنَّـــحُ
ولــم أر كـالـمـوقُـوذ تُـرجـى حـيـاتُـه
إذا لـم يـرعـهُ المـــاءُ ساعـةَ يُـنْـضَـحُ
أقـــول لـنـفـسـي أيـــن كـنـتُ وقــد أرى
رجـــالاً قـيـامًـا والـنّـسـاء تُـسَـبِّـحُ
أبـالـغـور أم بـالجلس أم حـيـثُ تلتقي
أمَـاعِـزُ مـن وادي بُـرَيـكٍ وأبـطـحُ
خُـذاَ نِـصْـف مـالـي واتـركـا لـي نِـصْـفَـهُ
وبـيـنـا بـــذمِّ فـالـتّـعَـزُّب أرْوَحُ
فـيـا ربّ قـد صـانـعـتُ عـامًـا مُـجـرمًـا
وخـادعـتُ حـتـى كـادت الـعـيُن تُـمـصَـحُ
وراشـيـتُ حـتـى لـو تـكـلـف رشْـوتـي
خـلـيـجٌ مـن المـــران قـد كـاد يُـنْـزَحُ
أقـــول لأصـحـابـي أُســـرُّ إلـيـهـم
لـي الـويـلُ إن لـم تجمحا كيف أجْـمـحُ
أأتـــركُ صـبْـيـانـي وأهـلـي وأبـتـغـي
مـعـاشًـا سـواهُـم أم أفـــرُّ فـأذبـحُ
ألاقـي الخـنـا والـبـرج مـن أم حـازمِ
ومـا كـنـت ألـقـي مـن رزيـنـة أبْـرحُ

تُـصـبِّـر عـيـنـيـهـا وتـغْـصـبُ رأسـهـا

وتـغـدو غُـدوّ الـذئـب والـبـومُ يَـضْـبَـحُ

صورة الشاعر التي وصلتنا من خلال شعره هي صورة لرجل ضعيف لا حول له ولا قوة بين امرأتين شرستين وهي صور موجودة لبعض النساء المتسلطات التي يعرضها التلفاز من خلال مسلسلاته، وهي صورة تتكرر في الحياة بين مجموعة من النساء تكون متسلطة على الزوج تريه النجوم في النهار. والمرأتان اللتان عرضهما الشاعر في شعره على شاكلة واحدة من حيث السلوك أو من حيث القبح، فهما لا يمانعان في ضرب هذا الزوج باليدين أو بواسطة الهراوة حتى يقع مغشيًّا عليه من شدة الضرب، وهو يكشف لنا عن التناقض بين ما يجده من عطر في أثواب زوجته، وما يراه من رأس أصلع حين ينكشف عن رأسها الخمار والشاعر يضع لهما نموذجين يمثلانه وهما: الغول والسعلاة، وهما نموذجان يمثلان للقبح والدمامة وللخوف والرعب.

ونستنتج من قول الشاعر أنه كان ضحية تربية نسائية متسلطة ومتجبرة من أم قاسية أو امرأة أب أشد قسوة، وبالتالي لم تكن لديه فيما بعد القدرة على مواجهة تسلط المرأة الزوجة وقد استغلت الزوجة التي عرفت هذا الضعف لديه ذلك أسوء استغلال.

كما عشق عبدالله بن أبي بكر، عاتكة بنت زيد بن نفيل القرشية العدوية، وهي ابنة عم عمر بن الخطاب، وكانت ذات خلق وجمال، عشقها ابن أمير المؤمنين حتى كاد أن يطير عقله، فلما تزوجها أقام في منزله لا يبرحه، متفرغًا لها، فأهمل تجارته ولم يشترك بالمغازي، وذات يوم فاتته صلاة الجمعة، وهو لا يدري ومرّ به أبوبكر وهو يسير لصلاة الجمعة فسمعه وهو يناغيها، ثم رجع من الصلاة وعبدالله مازال على أمره معها، فسأله أبوبكر أصليت الجمعة، فقال: وهل صلى الناس؟

فقال أبوبكر: قد ألهتك عاتكة عن التجارة، فلم نقلق لذلك، ولم نقل شيئًا، وقد ألهتك عن الصلاة ! فطلقها طلقة واحدة، فاعتزلت عنه مدة، فلما كان الليل قلق قلقًا شديدًا فأنشد[1]:

يـقـولـون: طـلِّـقـهـا وخـيِّـم مـكـانـهـا
مـقـيـمًـا تُمـنـي الـنـفـس أحـــلامَ نـائـمِ
وإنَّ فـراقـي أهــل بـيـتـي جـمـيـعـهـم
عـلـى كـــره مـنـي، لأحـــدى الـعـظـائـم
أرانـــي وأهـلـي كـالـعـجـول تـروحـت
إلـى بـوّهـا قـبـل الـعـشـار الـرّوائـم

وتبعتها نفسه فقال[2]:

أعـاتـك لا أنـســاكِ مـا ذرّ شـــارقٌ
ومـا نـاح قُـمْـريٌّ الحَـمـامِ المـطـوَّقُ
أعـــاتِـــكَ قـلـبـي كـل يـــوم ولـيـلـةٍ
إلـيـك بمـا تُـخْـفـي الـنـفـوس مُـعـلّـقُ
ولـم أرَ مـثـلـي طـلَّـق الـيـومَ مـثـلَـها
ولا مِـثْـلُـهـا فـي غـيـر جُـــرْمٍ تـطـلَّـق

فسمعه أبوبكر وهو ينشد هذه الأبيات، فرقَّ له أبوه، فقال له راجعها.

تجربة الغزل عند شعراء صدر الإسلام: سحيم عبد بني الحسحاس قتيل العشق. «سحيم كان عبدًا شديد السواد، وكان من شعراء البادية الذين أسلموا ولم يتعمقوا في الإسلام، وقد روي أنهم عرضوه على عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليشتريه فأعجب به، فقالوا: إنه شاعر، وأرادوا أن يرغبوه فيه، فقال: لا حاجة لي به إذا،

(1)شاعرات في عصر النبوة د. محمد التونجي – دار المعارف بيروت الطبعة الأولى 2002 ص 108.
(2)المرجع السابق، ص 109 – 110.

الشاعر لا حريم له، إن شبع شبب بنساء أهله، وإن جاع هجاهم، «مما يبدو أن سحيمًا كان قد خالط أقوامًا في نسائهم طيش وبعدٌ عن الجادة، ومما يروى له أنه جلسن نسوة من بني صبير بن يربوع، وكان من عادتهنَّ إذا جلسن للتغزل أن يتعابثن بشق الثياب، وشدة المغالبة بين النساء على إبداء المحاسن، فقال سحيم:

كـــأَنَّ الـصـبـريَّـات يـــوم لـقـيـنَـنـا
ظـبـاءُ حـنـت أعـنـاقـهـن المـكـانـسِ
فـكـم قـد شـقـقـنـا مـن رداءٍ مـنـيّـر
ومـن بُـرقُـعٍ عـن طَـفـلَـةٍ غـيـرِ عـانـس
إذا شُـقَّ بُـردٌ شُـقَّ بـالـبـرد بـرقـعٌ
دوالـيـكَ حـتـى كـلُّـنـا غـيـرُ لابـس

وأحس بنو الحسحاس أن سحيمًا على علاقة مشكوكة بواحدة أو أكثر من نساء القبيلة، وقد أقلقهم هذا على شرفهم فعزموا الأمر على قتله فقتلوه انتقامًا لشرفهم وقصاصًا منه.

وقد كان سحيم يعلن فجوره وغوايته لنساء القبيلة وما يدور بينهن على الملأ، وكان لكرهه للعبودية إلا أنه كان يرتضيها من أجل قربه للنساء لغرض خدمتهن، واختلاس النظر إليهن.

يقول سحيم[1]:

وددتُّ عـلـى إبـغـاضـي الـــرِّق أنّـنـي
أكـــونُ لأجـمـــال ابـــن أيمـــنَ راعـيـا
وفـــي الـشّـــرط أنـــي لا أبـــاعُ وأنّـهـم
يـقـولـون غـبِّـق يـا عـسـيـف الـعـذاريـا

(1)ديوان سحيم، تحقيق الأستاذ عبدالعزيز الميمني الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة طبعة 1965م، ص 56-57.

فـأسـنِـد كسلـى بـزِّهـا الـنـوم ثوبَـهـا
إلـى الـصـدر والمـمـلـوكُ يـلـقـى المـلاقـيـا
فـلـمـا أبـــتْ لا تـسـتـقـل ضـمـمـتُـهـا
تــرى الحـسـن مـنـهـا والمـلاحــة بـاديـا

ويبدي الشاعر في هذه القصيدة أنه على بغضه للرق إلا أنه يرتضيه، بسبب قربه من النساء الجميلات بغرض خدمتهن، يسقيهن الخمر، ويسندهم إذا ذهب الخمر بعقولهن، ومما يبدو جليًّا أن هذه الأبيات قد قيلت في فترة كانت العادات الجاهلية سائدة قبل تحريم الخمر، أو أنها قيلت عند قوم لا يزالون على جاهليتهم، أو أن الإسلام لم يتمكن منهم بعد فلم يتركوا شرب الخمر واللهو. وكل هذه العادات التي ذكرها الشاعر عادات مرذولة حرمها الإسلام، من قيام الرجال من العبيد على خدمة النساء، فضلاً عن ذلك الداء الذي يفقد الإنسان صوابه، وشرفه وكرامته وهو شرب الخمر. يقول سحيم[1]:

عـمـيـرةَ ودِّع إن تجــهَّــزتَ غـاديـا
كـفـى الـشـيـبُ والإســـلامُ لـلـمـرء نـاهـيـا
جـنـونًـا بـهـا فـيـمـا اعـتـشـرنـا عـلالـةً
عــلاقــة حــبٍّ مــسـتـسـرًا وبــاديـا
لـيـالـيَ تـصـطـادُ الـقـلـوبَ بـفـاحـمٍ
تــراهُ أثـيـثًـا نـاعـمَ الـنَّـبـتِ عـافـيـا
فـإن تـثـو لا تـمـلـل وإن تـضـح غـاديـا
تــزوّدْ وتـرجـع عـن عـمـيـرةَ راضـيـا
وبـتـنـا وســادانــا إلــى عَـلَـجَـانـةٍ
وحـقـفٍ تــهــاداهُ الــريــاحُ تـهـاديـا

(1)ديوان سحيم، ص 16-28.

وهـبّـت لـنـا ريـــحُ الـشـمـال بـقـرّةٍ
ولا ثـــوبَ إلا بـــردهـــا وردائـــيـــا
فـمـا زال بُـــردي طـيـبـا مـن ثـيـابـهـا
إلـى الحـول حـتـى أنـهـج الـبـردُ بـاليـا
سـقـتـنـي عـلـى لـــوحٍ مـن المـــاء شـربـةً
سـقـاهـا بـهـا الـلـه الـذهـابَ الـغـواديـا
أقـلِّـبـهـا لـلـجـانـبـين وأتَّـقـي
بـهـا الـرِّيـح والـشـفَّـان مـن شـمـاليـا
ألا أيـهـا الـــوادي الـــذي ضـمَّ سيْـلـه
إلـيـنـا نـوى الحـسـنـاء حـيِّـيـتَ واديـا
فـيـالـيـتـنـي والـعـامـريـة نـلـتـقـي
نـــرودُ لأهـلـيـنـا الـرّيـاضَ الخـوالـيـا
ومـــا بـرحـتْ بـالـدّيـر مـنـهـا أثـــارةٌ
وبـــالجـــوِّ حـتـى دمّـنـتـهُ لـيـالـيـا
فـــإن تـقـبـلـي بـــالـــودِّ أقـبـل بمثـلـه
وإن تـدبـري أذهـــبْ إلـى حـــالٍ بـاليـا
ألـم تـعـلـمـي أنِّـــي صـــرومٌ مـواصـلٌ
إذا لـم يـكـن شـــيءٌ لـشـيءٍ مـواتـيـا
ألا نـــاد فـــي آثـارهـــن الـغـوانـيـا
سـقـين سـمـامًـا مـا لـهَّـن ومـالـيـا
تجـمَّـعـنَ مـن شـتـى ثـــلاثٍ وأربـــعٍ
وواحـــــدةٍ حـتـى كـمـلـنَ ثـمـانـيـا
وأقـبـلـنَ مـن أقـصـى الخـيـام يـعُـدنَـنـي
نـواهـدَ لـم يـعـرفـنَ خـلـقًـا سـوائـيـا

يَـعُـدنَ مـريـضًـا هـنَّ هـيَّـجـنَ داءَهُ
ألا إنَّمـا بـعـض الـعـوائـد دائـيـا
وراهـنَّ ربـي مـثـلـمـا قـد ورينـنـي
وأحـمـى عـلـى أكـبـادهـنَ المكـاويـا
أشـارت بمـدراهـا وقـالـت لـتربـهـا
أعبدُ بني الحسحاسِ يُزجي القوافيا
رأت قَـتَـبًـا رثًّـا وسـحـقَ عـبـاءةٍ
وأسـودَ ممـا يملـكُ الـنـاسُ عـاريـا
يـرجِّـلـنَ أقـوامًـا ويـتـركـنَ لِـمَّـتـي
وذاكَ هـوانُ ظـاهـر قـد بـدا ليا
فـلـو كـنـتُ وردًا لـونُـه لَعشقنَني
ولـكـنَّ ربـي شـانَـنـي بـسـواديـا
فـمـا ضـرَّنـي إن كـانـت أمـي ولـيـدةً
تـصـرُّ وتـبـري بـالـلِّـقـاح الـتـواديـا
تـعـاورن مـسـواكـي وأبـقـينَ مُـذهـبًـا
مـن الـصَّـوغِ فـي صُـغرى بَـنـانِ شماليا
وقـلـن ألا يـا الـعـبنَ مـا لـم يَـرُدَّنـا
نـعـاسُ فـإنَّـا قـد أطـلـنـا الـتـنـائـيـا
لـعـبنَ بـدكـداكٍ خـصـيـبٍ جـنـابـه
وألـقـينَ عـن أعـطـافـهـنَّ المـراديـا
ومـا رِمْـنَ حـتـى أرسـلَ الحـيُّ داعـيًـا
وحـتـى بـدا الـصبـحُ الـذي كـان تـاليا
وحـتـى اسـتـبـانَ الـفـجـرُ أشـقـرَ ساطـعًـا
كـأنَّ عـلـى أعـلاهُ سـبًـا يمـانـيـا

فـأدبـرنَ يـخـفـضـنَ الـشـخـوصَ كـأنَّـمـا
قـتـلـنَ قـتـيـلاً أو أصـبـنَ الـدَّواهـيـا
وأصـبـحـنَ صـرعـى فـي الـبـيـوت كـأنَّـمـا
شـربـنَ مُـدامًـا مـا يُـجـبَنَ المـنـاديـا
فـعـزّيـتُ نـفـسـي واجـتـنـبـتُ غـوايـتـي
وقـربـتُ حُـرجُـوجَ الـعـشـيَّـةِ ناجيا[1]

من الممكن القول إن هذه القصيدة تلتقي مع غزليات الشعراء المسلمين من بعض الجوانب، ومن ذلك ذكر الإسلام في بداية القصيدة، وثانيها ذكر منادي الفجر، والشاعر في غزله والتشبيب بالنساء ينهج منهج الشعراء الجاهليين. ورغم كل ما ذكره الشاعر من لهو وفجور إلا أن اللافت للنظر أنه كان واقعًا في ذلك تحت تأثير الحرمان الشديد. مع الاعتراف بأن الشاعر يكون قد اختلس لذة عابرة أو متعة سريعة من بعض الفتيات بحكم شغله الذي يسمح له بالاختلاط بالفتيات والارتياض معهن لغرض الحماية والخدمة، وكان يشعر بالحرمان الشديد لأن الفتيات كن يحتقرنه بسبب اللون الذي كان حاجزًا بينه وبين المجتمع الذي عاش فيه، وهذ الاحتقار كان يدفعه إلى اختلاس اللذات التي تطفئ النار المتأججة في جسمه، فليس من المستحيل أن تختلي امرأة أو فتاة مع أحد العبيد لغرض العبث معه، ولأن الإسلام لم يتمكن بعد من نفوس البدو، ولكن الأغلب أن الفتيات كن يشمئززن منه.

وقد صرح الشاعر بأن الفتيات يحتقرنه احتقارًا شديدًا ويعبثن معه، كما عبر عن اهتمام المرأة بالسادة واحتقارها للعبيد، وعبر الشاعر في بيت آخر أن بعضهن اهتممن به وكن يصففن له لمته، ولعل هذا ما كانت تفعله المرأة مع السادة وكان الشاعر يتمنى أن يحدث ذلك معه.

(1) الحرجوج: من النوق الطويلة الجسيمة والشديدة.

وعندما كان الشاعر يرى من أجسادهن مواضع الفتنة والإثارة كان يحترق شهوة وحرمانًا فيمرض، ولأن الفتيات كن يخلعن ملابسهن بجانبه غير آبهات به، لأنه عندهم ليس إلا عبد يحرسهم، وفاتهم أن هذا العبد إلى جانب عبوديته يحمل روح الشاعر وإحساسه الذي يتأثر بالجمال.

يقول سحيم:

أشعارُ عبد بني الحسحاس قمن له

يوم الفخار مقام الأصل والورقِ

إن كنت عبدًا فنفسي حرة كرمًا

أو أسود اللون إني أبيض الخلق

وقد كان عثمان بن عفان رضي الله عنه أدرى بهذه القوة التي يمكن أن تجعل العبد الشاعر شرًّا على من يشتريه: «لا حاجة لنا به؛ لأنه إن شبع شبَّبَ بنساء أهله، وإن جاع هجاهم»[1].

تجربة الغزل عند حميد بن ثور الهلالي:

هو شاعر مخضرم عاش في الجاهلية وقضى الشطر الأكبر من حياته في الإسلام، وفي ديوانه نجده قدم صورًا كثيرة للمرأة من خلال الوصف الذي قدمه لها أو من خلال الحديث عنها، إن تجربة حميد بن ثور في الحب تجربة شاعر مسلم عشق فلم يتجاوز به عشقه حدود العفة والالتزام، وعبَّر تعبيرًا رقيقًا عفيفًا عن حبه، والشاعر في قصيدته الميمية نجده يحترق شوقًا لمحبوبته، ويشعر القارئ بالألم والحرمان الذي يعانيه كما تكشف القصيدة عن أثر غير مباشر للإسلام في نفس الشاعر وسلوكه، يقول حميد[2]:

(1)ديوان سحيم، ص 55.

(2)ديوان حميد بن ثور الهلالي، عبدالعزيز الميمني، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة طبعة 1964م، ص 7-10.

ألا بـهـيـمًـا ممـا لـقـيـت وهـيـمـا
وويـحًـا لمـن لـم ألـقَ مـنـهـن ويـحـمـا
أأسـمـاءُ مـا أسـمـاءُ لـيـلـةَ أدلجـت
إلـيَّ وأصـحـابـي بـأيٍّ وأيَّمـا
سـل الـرّبـع أنّـى يمَّـمـت أمُّ سـالـمٍ
وهـل عـادةٌ لـلـربـعِ أن يـتـكلَّمـا
وقـولًا لـهـا يـا حـبـذا أنـت هـل بـدا
لـهـا أو أرادت بـعـدنـا أن تـأيَّمـا
ولـو أن ربـعًـا ردَّ رجـعًـا لـسـائـلٍ
أشـار إلـيَّ الـرَّبـعُ أو لَـتـفـهَّـمـا
أرى بـصـري قـد رابـنـي بـعـدَ صـحّـةٍ
وحـسـبـك داء أن تـصـحَّ وتـسـلـمـا
ولا يـلـبـثُ الـعـصـرانِ يـومًـا ولـيـلـةً
إذا طـلـبـا أن يـدركـا مـا تـيـمَّـمـا
وصـوتٍ عـلـى فـوتٍ سـمـعـتُ ونـظـرةٍ
تـلافـيـتـهـا والـلـيـلُ قـد صـار أبْـهـمـا
بـجـدَّةِ عـصـرٍ مـن شـبـابٍ كـأنّـه
إذا قـمـتُ يـكـسـونـي رداءً مُـسَـهَّـمـا
أجِـدَّك شـاقـتـك الحـمـولُ تـيـمَّـمـتْ
هـدانَـين واجـتـابـت يمـيـنًـا يـرمـرمـا
ومـا هـاج هـذا الـشـوق إلا حـمـامـة
دعـت سـاق حـرٍّ تـرحـةً وتـرنُّـمـا

خـلـيـلـيَّ هُـبـا عـلِّـلانـي وانـظـرا
إلـى الـبـرق إذ يـفـري سنًى وتبسما
خـلـيـلـي إنـي مـشـتَـكٍ مـا أصـابـنـي
لـتـسـتـيـقـنـا مـا قـد لـقـيـت وتـعـلـمـا
أمـلَّـيـكـمـا إن الأمـانـةَ مـن يَـخُـن
بـهـا يـحـتـمـل يـومًـا مـن الـلـه مـأثـمـا
فـلا تُـفـشِـيـا سـرّي ولا تـخـذُلا أخًـا
أبـثَّـكـمـا مـنـه الحـديـثَ المكـتَّـمـا
لـتـتـخـذا لـي بـاركَ الـلـه فـيـكـمـا
إلـى آلِ لـيـلـى الـعـامـريـة سُـلّـمـا
وقـولا لـهـا مـا تـآمـريـنَ بـصـاحـبٍ
لـنـا قـد تـركـت الـقـلـبَ مـنـه مُـتـيَّـمَـا
أبـيـنـي لـنـا إنّـا رحـلـنـا مـطـيَّـنـا
إلـيـك ومـا نـرجـوه إلا تـلـوُّمـا
فـجـاءا ولمّـا يـقـضـيـا لـى حـاجـةً
إلـيَّ ولمـا يُـبـرِمـا الأمـر مُـبـرمـا
فـمـا لـهـمـا مـن مـرسـلـيِن لحـاجـةٍ
أسـافـا مـن المـال الـتِّـلاد وأعـدمـا
ألـم تـعـلـمـا أنِّـي مـصـابٌ فـتـذكُـرا
بـلائـي إذا مـا جُـرفُ قـوم ٍ تـهـدّمـا
ألا هـل صـدى أمّ الـولـيـد مـكـلِّـمُ
صـدايَ إذا مـا كـنـتُ رمـسًـا وأعـظـمـا

بدأ الشاعر قصيدته «بهيما» وهي كلمة تستعمل للتحسر من شيء، وتكرارها في هذه القصيدة يبين عن شدة الحسرة. «ويدلُّ الاستفهام في البيت الثاني على

الحيرة فعند قوله «أأسماء ما أسماء» يكشف عن الإحساس بالهول من رحيل المحبوبة وعن شدة الدهشة المصحوبة بالألم، ويتجه الشاعر بعدها إلى الديار التي رحلت عنها المحبوبة فيطلب أن يسأل: أنى يممت أم مالك؟ و«أنى» هنا بمعنى (أين) كما نص بعض البلاغيين، ويمكن أن تكون بمعنى (كيف)، ومن المفارقة أن يطلب الشاعر سؤال الربع ثم يستفهم: وهل عادة للربع أن يتكلَّما؟ مضمنًا استفهامه النفي، وهو يقرر فيما بعد بأن الربع لا يرد حديثًا لسائل؛ ولهذا فإنَّه لن يشير إليه ولن يتفهم حديثه.

ويوجه الخطاب لرفيقيه أن يسألا زوجته التي تركت عشرته: هل بدا لها أن تتزوج أم قامت بعده على التأيم، ويأتي البيت السادس مرتبطًا بحديث نبوي شريف، فقد جاء في مقدمة الديوان: أنَّه سمع قول النبي ﷺ: لو لم يكن لابن آدم إلا الصحة والسلامة لكفاه بهما داء قاتلاً» فأخذه، وقال:

أرى بصري قد رابني بعد صحّةٍ

وحسبك داءً أن تصحَّ وتسلما

والمعنى يكشف عن حقيقة ومفارقة، فإن ظواهر الصحة تنتظم بذرة المرض»[1] ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عمّا آثار شوقه للأحبة.

ويلفت النظر بروز ظاهرة اتخاذ الشاعر خليلين يرسلهما إلى المحبوبة طالبًا منهما أن يستعطفاها من أجل أن تشفق عليه، «وهي ظاهرة لم تكن بارزة في الشعر الجاهلي، ولكنها برزت عند شعراء صدر الإسلام وازدادت وضوحًا عند العذريين في مطلع العصر الأموي[2].

(1) المرأة عند شعراء صدر الإسلام، ص 95.
(2) المصدر السابق 96.

وتتضح في قصيدة الشاعر نقطة مهمة تبين التحول الذي طرأ على الرجل بعد ظهور الإسلام من نظرته للمرأة، فهي لم تعد عنده تلك الدمية التي يعشقها الرجل ويلهو بها كيفما شاء حيث يطلبون اللذة والمتعة، بل تبرز شخصية المرأة بروزًا مهمًا. ويتضح ذلك من قوله:

وقــولا لـهـا مـا تـأمـريـن بـصـاحـبٍ
لـنـا قـد تـركـت الـقـلـبَ مـنـه مـتـيَّـمـا

وفي البيت الآخير نرى بوضوح مدى اليأس الذي وصله الشاعر من الوصول للمحبوبة بعد معاناة كبيرة من طلب الأصحاب والجدل معهم لإقناعها في أن تشعر به، إلا أنه بعد هذا كله يجد نفسه لم يجن شيئًا غير الإحساس بأنه فقد محبوبته إلى الأبد فنراه يستفهم ملتمسًا تكليم الصدى للصدى بعد الموت، وهذا يوضح عدم إمكانية الكلام واللقاء في الحياة.

وتظهر العذرية واضحة في رائية حميد التي تصور الحرمان الشديد الذي يعانيه الشاعر في علاقته بمحبوبته فنراه يقول[1]:

لـم ألـقَ عـمـرةَ بـعـدُ إذْ هـي نـاشـئٌ
خـرجـت مُـعـطَّـفـةً عـلـيـهـا مـئـزرُ
بـــرزت عـقـيـلـةَ أربـــعٍ هـادِيـنـهـا
بـيـضَ الـوجـوه كـأنَّـهـن الـعُـنـقـرُ
ذهـبـت بـعـقـلـكَ ريـطـةٌ مـطـويـةٌ
وهـي الـتـي تُـهـدي بـهـا لـو تـشـعُـرُ
فَـهَـمَـمـتُ أن أغـشـى إلـيـهـا مَـحـجـرًا
ولمـثـلـهـا يُـغـشـى إلـيـه المحـجـرُ

(1)ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص 84.

يبين الشاعر أن محبوبته شديدة التأثير فهي غادرت المكان وهي لم تزل ناشئة، وعلى الرغم من بعد مكان إقامتها وطول الزمان فإنه باقٍ على حبِّه، كما يصرح أن الحبيبة ذهبت بعقله من شدة جمالها، فلا يستطيع أن يملك نفسه من أن يغشى المكان الذي لا يجب أن يغشاه.

ويصل الأمر بحميد بن ثور أن يتغزل بشجرة مكنيًّا بها عن امرأة متزوجة فيقول[1]:

سقى السِّرحةَ المحلالَ والأبطحَ الذي
به الشّري غيثٌ مُدْجِنٌ وبُروقُ
فيا طيب ريّاها ويا بردَ ظلِّها
إذا حان من حامي النهار ودُوقُ
وهل أنا إن عللتُ نفسي بسَرْحةٍ
من السرح مسدودٌ عليَّ طريق
حمى ظلّها شكسُ الخليقةِ خائفٌ
عليها غرامَ الطائفين شفيق
فلا الظِّلُّ منها بالضُّحى تستطيعهُ
ولا الفيءَ منها بالعشيِّ تذوق
وما وجد مشتاق أصيب فؤاده
أخَى شهوات بالعناق نسيق
بأكثرَ من وجدي على ظل سرحةٍ
من السرح إذ أضحى عليَّ رفيق
ولولا وصالٌ من عميرة لم أكن
لأصرِمَها إنِّي إذن لطليق

(1)ديوان حميد بن ثور، ص 40.

أبـــى الـــلـــهُ إلا أنَّ ســرحـــةَ مـالـكٍ
عـلـى كـــلِّ أفـنـــانِ الـعـضـاه تـــروق

وقد كنى الشاعر المرأة المتزوجة بالشجرة وتغزل بها، وقد أصاب في اختيار رمز الشجرة للمرأة، فالمرأة ترتبط بالشجرة من حيث الخصوبة والأنوثة والجمال والسكن، فالمرء عندما يشتد الحر يختار من بين الشجرات تلك الشجرة الوافرة الظل والتي تضرب جذورها في الماء تستمد منه النضارة والجمال. وهذه التجربة عند الشاعر تكشف عن الشفافية وعن العذرية في الحب ورومانسية عميقة تسيطران على مشاعره وأحاسيسه، والرمزية لها جذورها في الشعر الجاهلي، وهو اتجاه يرتبط بظروف المجتمع العربي بعامة، وبظروف إسلامية، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حظر على الشعراء ذكر النساء فقال حميد:

ومـــا لـــي مـــن ذنـــبٍ إلـيـهـم عَـلِـمْـتَـهُ
سـوى أنَّـنـي قـد قـلـتُ يـا سـرحـةُ اسلمي

ومما لاشك فيه أن هذه الرّمزية التي ابتكرها الشاعر ليست مجرد انصياع لأوامر الخليفة الذي نهى عن ذكر المرأة، وإنما هو إدراك من الشاعر بما بين المرأة والشجرة الظليلة من أمور قد تخفى على غيره من الشعراء.

يقول حميد[1]:

حـلـفـتُ بـــربِّ الـراقـصـات إلـــى منًى
رفـيـقًـا وربِّ الـواقـفـين عـلـى الـحـبـلِ
لـــو أنَّ لـــي الـدنـيـا ومـــا عُـدلـت بـه
وجـمـلٌ لـغـيـري مـا أردتُ سـوى جُـمـل
أتـهـجـرُ جُـمـلاً أم تُـلِـمُّ عـلـى جُـمْـل
وجُـمْـلٌ عـيـوفُ الـريـق جـاذبـةُ الـوصُـلِ

(1)ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص 123.

يقول حميد مشبهًا نفسه بامرأة فقدت ابنها عند فراق حبيبته[1]:

فوجدي بجُمل وجدُ شمطاءَ عالجت
من العيش أزمانًا على مرر القُلِّ
فعاشت معافاةً بأنزح عيشةٍ
ترى حسنًا أن لا تموت من الهزل
قضى ربُّها بعلاً لها فتزوجت
حليلاً، وما كانت تؤمِّلُ من بعل
وعدَّت شهورَ الحمل حتى إذا انقضت
وجاءت بخرقٍ لا دنيء ولا وَغل
فلما اكتنى في بِزَّة الحربِ واستوى
على ظهر شيحانِ القرا نبلِ عبْلِ
فقال لهم والخيلُ مدبرةٌ بهم
وأعيُنُهم مما يخافون كالقُبلِ
على رسلِكُم إني سأحْمي ذِمَارَكم
وهل يمنع الأحسابَ إلا فتًى مثلي
فبيناه يحميهم ويعطفُ خلفَهُم
بصيرٌ بعورات الفوارس والرَّجلِ
هوى ثائرٌ حرّانُ يعلمُ أنه
إذا ما توارى القومُ منقطعُ النَّبلِ
فلم يستطعْ من نفسه غير طعنةٍ
سوًى في ضلوع الجوف نافذة الوغْلِ
فخرَّ وكرَّت خيلُهُ يندبونه
ويثنون خيرًا في الأباعد والأهل

(1)ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص 123.

فلمَّا دنوا للحيِّ اسمع هاتفٌ
على غفلة النِّسوان وهي على رحْلِ
فقامت إلى مُوسى لتذبح نفسها
وأعجلها وشكُ الرزيئة والثّكْلِ
فما برحت حتى أتاها كما بدا
وراجعها تكليم ذي حُلُقٍ جزل
فوجدي بجُملٍ وجدُ تيكَ وفرحتي
بجملٍ كما قد بابنها فرحت قبلي

يستمر الشاعر في توضيح مكانة هذه الحبيبة التي أحبها بكل جوارحه، ويحلف بالله لو أنه أعطي من الدنيا كل ما يشتهيه منها ومثلها لحبيبته على أن تكون حبيبته لغيره ما رضي بهذا، وأنه يفضل أن تكون هي له ويحرم من ملذات الدنيا الأخرى.

وقد عشق الشاعر محبوبته لدرجة أنه صور نفسه عند فراق المحبوبة بامرأة وصلها خبر موت ابن حبيب لها رزقت به بعد طول صبر وانتظار، وتصوير فرحته عند لقاء المحبوبة بتلك المرأة حين فوجئت بوصول ابنها الذي أخبروها بموته سالمًا. فتشبيه الشاعر نفسه بالثكلى، أمر غريب لم نقف عليه في الشعر الجاهلي في مواقف الغزل، وإن كنا عهدناه في مواقف الرثاء.

يتضح من غزل الشاعر أنه بعيد عن الوصف الحسي والانهماك وراء المفاتن وأن عاطفته صادقة كل الصدق بعيدة كل البعد عن الأغراض الأخرى.

****

المبحث الثالث:
نظرة المرأة لنفسها ومكانتها في مجتمع صدر الإسلام

استطاعت المرأة في عصر صدر الإسلام أن تفرض وجودها بين إخوتها الرجال، فقد جمعت إلى جانب دورها الأساسي (أمًّا –أو زوجةً – أو أختًا) أدوارًا أخرى خرجت فيها فارسًا، مقاتلًا مشاركة في الجهاد، أو الاكتفاء بحث الرجال على نزول ساحات الحرب مع المشركين أو المرتدين، أو الخارجين على الإسلام. وهذا كله يدلنا على أن المرأة كانت تثق بقدرتها قبل أن يثق بها الآخرون، ولهذا كانت تشاركه في الجهاد قلبًا وعملًا. وقد قالت الربيع بنت معوذ: «كنا مع النبي ﷺ نسقي ونداوي الجرحى، ونردُّ القتلى إلى المدينة» فهذه المرأة كانت ممن حمل لواء الإسلام إلى جانب الرجل وشاركت في نشر هذا الدين مثلها مثل الرجل، وهذه الثقة نابعة من الثقة والمكانة العالية التي أعطاها الإسلام قبل كل الديانات للمرأة.

وقد تدفع المرأة بأبنائها إلى الجهاد، نعم تدفع بفلذات أكبادها إيمانًا منها بهذا الدين، وإيمانًا منها أنها تدافع عن قضية سامية، ألا وهي نشر الدعوة الإسلامية فلم ينكر عليها الرسول ﷺ مشاركتها السياسية، ومن هنا يصح لنا أن نعدّ مبايعة النساء لرسول ﷺ موقفًا سياسيًّا، ويكشف هذا عن مزاحمة النساء للرجال في مهد الدولة الإسلامية، وظهور تلك الشخصيات القوية التي أبرزتها الأحداث المختلفة.

والرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أعطى المرأة حق الحضور والمشاركة والتساؤل والاستفسار والحوار والمناقشة فيما يتعلق بحقوقها، فحملت المرأة هذه

المسؤولية على عاتقها في شعرها، حين ارتبطت بأحداث عصرها ارتباطًا حميمًا، سواء من وقفن من الشاعرات في صفوف الإسلام، أو من أصبح شعرهن يمثل خطرًا على الدولة الجديدة على نحو ما ورد في الكتب عن إحدى شواعر المنافقين، وهي عصماء بنت مروان التي أظهرت نقمة على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ وأنصاره فراحت تستثير عليه القوم، وتحرض على اغتيال رسول الله ﷺ فتقول[1]:

باسْت بني مالك والنبيت
وعوف وباست بني الخزرجِ
أطعتم أتاوي من غيركم
فلا من مرادٍ ولا مذحج
ترجونه بعد قتل الرؤوس
كما يُرتجى مرق المنضج
ألا أنف يبتغي غرة
فيقطع من أمل المرتجى

فأمر الرسول ﷺ بقتلها فقتلت، فكانت بشعرها تشير الفتنة، وخشي من خطر لسانها على الدولة في مهدها وعلى العقيدة وعلى الرسول، فمثلت بذلك نفس الخطر الذي مثله الرجال بهذه المشاركة السياسية العنيفة ضد أمن الدولة الجديدة.

ونرى هذه الصورة السياسية بوضوح حين نرى المناقضات التي كانت تنصب بين الشاعرات المسلمات للرد على المشركات، ومن ذلك ما ردت به أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب القرشية، التي عاشت إلى أيام معاوية بن أبي سفيان، على هند بنت عتبة بعدما قالته الأخيرة وهي تخاطب المسلمين بعد أن بقرت بطن حمزة وتشكر عبدها الذي أعانها على التمثيل بجثث المسلمين[2]:

(1) الشعر النسائي في أدبنا القديم، د.مي يوسف خليفة، مكتبة غريب، طبعة 1991، ص65.
(2) المرجع السابق، ص 65.

نـــحـــن جـــزيـــنـــاكـــم بـــيـــوم بـــدر

والحـــــرب بـعـد الحـــرب ذات سُـعْـرِ

شـفـيـتُ نـفـسـي وقـضـيـتُ نـذري

شـفـيـتَ وحـشـيُّ غـلـيـلَ صـدري

فـشـكـر وحـشـي عـلـيّ عـمـري

حـتـى تـرم أعـظـمـي فـي قـبـري

فقالت أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب تثيرها هذه الشماتة كما تثير أهلها من بني هاشم فتقول ردًّا على هند بنت عتبة[1]:

يـا بـنـتَ جـبـارٍ كـثـيـر الـكـفـر

خُـزيـتِ فـي بـدرٍ وبـعـد بـدرِ

صـبّـحـك الـلـهُ قـبـيـلَ الـفـجـر

بـالـهـاشـمـيّـين الـطـوال الـزُّهـر

بـكـل قـطّـاع حـسـامٍ يَـفـري

حـمـزة لـيـثـي وعـلـيّ صـقـري

رامَ شـيـبٌ وأبـوك غَـدْري

فـخـضَّـبـا مـنـه ضـواحـي الـنَّـحْـر

هـتـكَ وحـشـيٌّ حـجـابَ الـسـتـر

مـا لـلـبـغـايـا بـعـدهـا مـن فـخـر

ونـذرُك الـسـوء فـشَـرُّ نـذر

مما لا شك فيه أن أغراض شعر النساء تختلف عن أغراض شعر الرجال فالمرأة أكثر عاطفة من الرجل، ولهذا نراها أغزر شعرًا في الرثاء، فكانت المرأة

(1) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 201.

الشاعرة لها دور كبير في تلك المواقف التي غلبت عليها الطابع السياسي، فخاضت المعارك بشعرها بمشاركتها اللسانية التي جاءت في كثير من المواقف الحربية، فصورتها أو دفعت إليها القوم دفعًا.

من تلك الشاعرات المميزات عمات الرسول ﷺ الستة، بنات عبدالمطلب اللاتي كان لهن رصانة العبارة، وسمو المعاني وجودة التصوير، منهن صفية وبرة وأم حكيم البيضاء، أما صفية فقد أسلمت قبل معركة أحد، وشاركت أسماء بنت عُميس بغسل أم كلثوم ابنة الرسول ﷺ وزوجة عثمان بن عفان سنة تسع من الهجرة، وأم لأحد المبشرين بالجنة وهو زبير بن العوام.

تعددت الأخبار حول فصاحتها وشجاعتها، وكانت تصر على حضور غزوات الرسول ﷺ وقد قامت يوم أحد، وبيدها رمح تضرب به وجوه الناس وتقول لهم «انهزمتم عن رسول الله ﷺ» وقد تركت من مرثياتها لذوي قرباها ما يشهد على شاعريتها، وحسها الرقيق، وقالت يوم استشهاد أخيها حمزة، وقد غلبها حسها الديني حين بلغها خبر مقتله، والتمثيل به فبدت راضية صابرة تحتسبه عند الله شهيدًا وتقول[1]:

أسائلة أصحاب أحد مخافة
بنات أبي من أعجم وخبيرِ
فقال الخبير: إن حمزة قد ثوى
وزير رسول الله خير وزير
دعاه إله الحق ذو العرش دعوةً
إلى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نُرَجي ونرتجي
لحمزة يوم الحشر خير مصير

(1) شاعرات في عصر النبوة، د. محمد التونجي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى 2002م، ص 112.

فـوالـلـه لا أنـسـاكَ مـا هـبَّـت الـصّـبـا

بـكـاءً وحـزنًـا مـحـضَـري ومسيري[1]

عـلـى أسـدِ الـلـه الـذي كـان مـدرهًـا

يـذودُ عـن الإسـلام كـلَّ كـفـور[2]

فـيـالـيـت شِـلـوي عـنـد ذاك وأعـظُـمـي

لـدى أضـبـعٍ تـعـتـادنـي ونـسـور[3]

أقـولُ، وقـد أعـلـى الـنـعـيُّ عـقـيـرتـي

جـزى الـلـه خـيـرًا مـن أخٍ ونصير[4]

وقالت ترثي رسول ﷺ[5]:

لـهـف نـفـسـي وبِـتُّ كـالمـسـلـوب

أرقُـبُ الـلـيـل فِـعْـلـةَ المَحْـرُوبِ

مـن هـمـوم وحـسـرة أرّقـتـنـي

لـيـت أنِّـي سـقـيْـتُـهـا بِـشَـعُـوب[6]

حـين قـالـوا: إنَّ الـرّسُـول قـد أمسى

وافـقَـتْـه مـنـيَّـةُ المـكـتـوبِ

حـين جـئـنـا لآل بـيـتِ مـحـمـد

فـأشـاب الـقـذالَ مـنـي مشيبُ[7]

---

(1) ما: مصدرية ظرفية. الصبا: ريح تهب من جهة الشرق. محضري: لبثي وإقامتي.

(2) المدرة: من يدافع عن القوم. يذود: يدفع ويحمي.

(3) الشلو: جمع أشلاء، وهي أعضاء الجسم بعد البلى والتفرق.

(4) عقيرتي: صياحي. وفي سيرة ابن هشام: عشيرتي.

(5) شاعرات في عصر النبوة، ص 112.

(6) أرّقتني: في الطبقات: ردفتني. شعوب: علم للمنية، وهي ممنوعة من الصرف.

(7) حين جئنا لآل بيت محمد: في الطبقات: إذ رأينا أن النبي صريع. فأشاب القذال مني: في الروي إقواء.

حـــين رأيـــنـــا بـــيـــوتـــه مـــوحـــشـــاتٍ

لـيـس فـيـهـن بـعـد عـيـش غـريـب[1]

فـــعـــرانـــي لـــــذاك حـــــزنٌ طـــويـــلٌ

خـالـط الـقـلـبَ فـهـو كـالـمـرعـوب[2]

بلغت صفية الغاية فصاحة وشاعرية في رثائها لابن أخيها عليه الصلاة والسلام، وذلك لأن فجيعتها في رسول الله مزدوجة، فقد أحبه الناس، وتبعوه ثم فجعوا به إذ فقدوه وهم لم يتخيلوا مثل هذا اليوم الذي يتركهم فيه رسول الله، لهذا نرى صفية تفيض حنانًا عليه وأسى لفقده فتقول[3]:

ألا يـا رســولَ الـلـه كـنـتَ رجـاءَنـا

وكـنـت بـنـا بـــرًّا، ولـم تـكُ جـافـيـا

وكـــان بـنـا بـــرّا رحـيـمًـا نـبـيًّـنـا

لـيـبـكِ عـلـيـك الـيـومَ مـن كـان باكيا[4]

لـعـمـري مـا أبـكـي الـنـبـيَّ لمـوتـه

ولـكـن لـهـرجٍ كـان بـعـدك آتـيـا[5]

كـــأنَّ عـلـى قـلـبـي لـفـقـد مـحـمـدٍ

ومـــن حـــبِّـــهِ ذاك المـكـاويـا[6]

أفـاطـمُ! صـلـى الـلـهُ ربُّ مـحـمـدٍ

عـلـى جـدثٍ أمـسـى بـيـثـرب ثاويا[7]

---

(1) حين رينا: في الطبقات: حبيب. رينا، رأينا.

(2) فعراني لذاك حزن طويل: في الطبقات أورت القلب ذاك حزنًا طويلاً.

(3) شاعرات في عصر النبوة، ص 113.

(4) وكان بنا برًّا رحيمًا نبيًّا: في حياة الصحابة ومجلس في السيرة: «وكنتَ بنا رؤوفًا رحيمًا نبيًّا» وفي الدر المنثور: و«كنتَ رحيمًا هاديًا ومعلمًا».

(5) الهرج: الفتنة والاختلاط.

(6) المكاوي: آلات الكي.

(7) جدث: قبر. ثاويًا: راقدًا.

أرى حسنًا أيْتَمْتَهُ وتركْته
يُبَكِّي ويدعو جدَّه اليومَ نائيا[1]
فدًى لرسول الله أمِّي وخالتي
وعمّي ونفسي قصْرة وعياليا[2]
صبرتَ وبلَّغتَ الرسالة صادقًا
ومُتَّ صليب الدين أبلج صافيا[3]

وقد عبرت صفية في هذه القصيدة عن حزنها على ابن أخيها، كما لمست حزن المسلمين لهذا المصاب الجلل، فعبرت عن أسى المسلمين جميعًا، وخوفها من الفتن التي ستظهر بعد موت الرسول ﷺ، كما خاطبت في قصيدتها السيدة فاطمة وابنها الحسن- رضي الله عنهما بحنان فياض. ومن شاعرات المسلمات المشهود لهن بالشجاعة والجمال خولة بنت مالك (الأزور) بن أوس الأسدي، أخت ضرار أحد أبطال الجاهلية والإسلام.

كانت لخولة وقائع عظيمة مشهورة، من ذلك أنه لما أسر أخوها ضرار في وقعة أجنادين، توجه خالد بن الوليد بطليعة لإنقاذ ضرار، وانضمت إليهم خولة بلباس فارس وبيدها رمح وهم لا يعرفونها، ولما رأى خالد شجاعة الفارس أراد أن يعرفه فطلب منه أن يرفع لثامه فأخبرته أنها خولة أخت ضرار.

ومن مواقف شجاعتها أنها أسرت مع بعض نساء من اليمن في هجوم، فحثتهم على تحرير أنفسهن بضرب الحراس بأعمدة الخيام، حتى نجحوا في الفرار من قبضة الرُّوم وكانت تقول[4]:

---

(1) نائيًا: بعيدًا. حسنًا: سيدنا الحسن بن علي.
(2) وعمي ونفسي قصرة: في الطبقات: قصرة ثم خاليا، وفي الدر المنثور: وعمي وخالي ثم نفسي وماليا.
(3) ومت صليب الدين: في الطبقات: وقمت. وفي مجلس في ختم السيرة: وقومت صلب. أبلج: واضحًا ظاهرًا. صليب الدين: كتينه.
(4) شاعرات في عصر النبوة، ص 64.

نـحـن بـنـاتُ تُـبَّـعٍ وحـمـيـر
وضـربـنـا فـي الـقـوم لـيـس يُـنـكـرُ
لأنّـنـا فـي الحـرب نـارٌ تسعر
الـيـوم تـسـقـون الـعـذاب الأكـبـر

وعندما أسر أخوها في مرج دابق مرة ثانية قالت[1]:

ألا مـخـبـرٌ بـعـدَ الـفـراق يـخـبِّـرنـا
فـمـن ذا الـذي يـا قـوم أشـغـلـكـم عـنّـا
فـلـو كـنـت أدري أنَّـه آخـر الـلِّـقـا
لـكـنّـا وقـفـنـا لـلـوداع وودَّعـنـا
ألا يـا غـراب الـبـين هـل أنـت مُـخـبـري
فـهـل بـقـدوم الـغـائـبـين تـبـشِّـرنـا ؟
لـقـد كـانـت الأيـام تـزهـو لـقـربـهـم
وكـنّـا بـهـم نـزهـو وكـانـوا كـمـا كنَّا[2]
ألا قـاتـل الـلـه الـنَّـوى مـا أمـرَّهُ!
وأقـبـحـه مـاذا يـريـد الـنّـوى منّا[3]
ذكـرتُ لـيـالـي الجـمـع كـنّـا سـويـةً
فـفـرَّقَـنـا ريـبُ الـزَّمـان وشتّتنا[4]
لـئـن رجـعـوا يـومًـا إلـى دار عـزِّهـم
لـثـمـنـا خـفـافًـا لـلـمـطـايـا وقبّلنا[5]
ولـم أنـسَ إذْ قـالـوا: ضـرارٌ مـقـيَّـدٌ
تـركـنـاهُ فـي دارٍ الـعـدوِّ ويمّـمْـنـا

(1) المصدر السابق، ص 64.
(2) نزهو: نفخر ونتباهى.
(3) النوى: البعد والفراق.
(4) ريب الزمان: مصائبه.
(5) لثمنا خفافًا للمطايا: تشير إلى أملها برجوع ضرار. خفافًا: سراعًا. المطايا: الإبل والمركوب.

فـمـا هـــذه الأيـــام إلاّ مُـعـــارةً
ومـا نـحـن إلّا مـثْـلُ لـفـظٍ بـلا معنى
أرى القلبَ لا يختار في الناس غيرهم
إذا ما ذكرناهم فوا قلبيَ المُضْنَى[1]
سـلامٌ عـلـى الأحـبـابِ فـي كـلِّ ساعـةٍ
وإن بـعـدوا عـنّـا وإن مـنـعـوا منّـا

في هذه الأبيات تشتاق خولة لأخيها ضرار الذي كانت تحبه وتستفهم عن الذي أشغله عنها، وعبرت بالقوم عن الجماعة الذين يشاركون أخاها السجن، ولو كانت تعلم أن هذا آخر لقاء ولن تراه بعده لكانت وقفت للوداع تودعهم وتسأل الغراب الذي أسمته بغراب الفراق إن كان يبشرها بقدوم الأحبة الغائبين، والغراب عند العرب نذير شؤم ولكنها هنا تتمنى أن تستبشر به، وتسأل الله أن لا تطول مدة هذا الفراق الذي أضناها، وتتذكر الليالي التي كانت هي مع أخيها، وكيف كانوا سعداء، إلى أن فرقت بينهم مصائب الزمن، وتقول آملة برجوع أخيها لديار العز والكرامة – لانطلقنا (وعبرت بالجمع بغرض أن تشرك كل من كن مثلها في البعد عن الأحبة) مسرعين نستقبل الإبل، وبعد أن تحقق لها ذلك تصدم الشاعرة عندما يخبرها العائدون أنهم تركوا أخاها في السجن عند ديار العدو، ففرح الأهل بعودة ذويهم إلا خولة، التي تقول إن هذا هو حال الدنيا اليوم تسعدون أنتم وغدًا أنا أسعد وشبهتنا عند الدنيا بلفظ ليس له معنى، وتستمر الشاعرة في بث الشوق لأخيها وترسل له السلام في كل ساعة وكيف لا فهو المتربع على قلبها.

وهكذا تصر خولة على إنقاذ أخيها، فتقدمت مع الجيش إلى أنطاكية وهي تنشد[2]:

(1)المضنى: المرهق.
(2)شاعرات في عصر النبوة، ص 65.

أبـعـدَ أخـــي تَـلَـذُّ الـغـمـضَ عـيـنـي
فـكـيـف يـنـام مـقـروحُ الجـفـونِ
سـأبـكـي مـا حـيـيـتُ عـلـى شـقـيـقٍ
أعَـــزَّ عـلـيَّ مـن عـيـنـي الـيـمـين
فـلـو أنّـــي لحـقـتُ بـه قـتـيـلاً
لـهـانَ عـلـيَّ إذْ هُـو غـيـرُ هـونِ[1]
وكـنـتُ إلـى الـسُّـلُـوِّ أرى طـريـقًـا
وأعْـلـقُ مـنـه بـالحـبـل المـتـين
وإنَّـــا مـعـشـرٌ مـن مـــاتَ مـنَّـا
فـلـيـس يمـوتُ مـوتَ المُسْتَكين[2]
وإنِّـــي إن يـقـال: قـضـى ضـرارٌ
لـبـاكـيـةٌ بمُـنـسـجِـمٍ هَـتُـونِ[3]
وقـالـوا: لـم بُـكـاكِ؟ فـقـلـت مـهـلاً
أمَـا أبـكـي وقـد قـطـعـوا وتِينِي[4]

وتوضح خولة في هذه الأبيات مكانة أخيها فهو عندها مثابة العين اليمنى التي لا يستطيع الإنسان أن يستغني عنها، وبسبب حبها الشديد لأخيها جفاها النوم، وكيف تستطيع أن تغمض جفنها وهي مجروحة لفقدها كما أن جفونها مجروحة بسبب بكائها الشديد عليه، وتفضل الشاعرة أن يكون أخوها مقتولاً فتبكيه الدهر

(1) هون: ذليل.
(2) المستكين: الراضي بالذل.
(3) هتون: هاتل بغزارة. قضى: مات.
(4) الوتين: عرق في القلب يجري منه الدم إلى العروق كلها.

كله على أن يكون مذلولاً في سجن الأعداء، وترد على الذين يستغربون من بكائها، كيف لا أبكي وقد قطع الأعداء العرق الذي يوصل الدم إلى قلبي، وهكذا استطاعت خولة في النهاية إنقاذ أخيها من أسر الأعداء.

شعر الغزل

وهناك الجانب الآخر للمرأة، وهي المرأة الحبيبة التي تستجيب لنداء الطبيعة بكل عفة وحياء فالقلب هو القلب في كل مكان وزمان، وفي الأبيات الآتية تصور لنا خولة بنت ثابت في عمارة بن الوليد المخزومي شوقها ولهفتها إلى الحبيب[1]:

يـــا خـلـيـلـي نـابـنـي سُـهْـدي

ولـــم تـنـم عـيـنـي ولـــم تَـكَـدِ[2]

فـشـرابـي مـــا أُســيـــغ ومـا

أشـتـكـي مـــا بـــي إلـــى أحـــد[3]

كـيـف تـلـحـونـي عـلـى رجـلٍ

آنـــسٍ تـلـتـذهُ كـبـدي[4]

مـثـل ضـــوءِ الـبـدر صـورتـه

لـيـس بـالـزمـيـلـة الـنـكـد[5]

مـــن بـنـي آل المـغـيـرة لا

خـامـلٍ نـكـسٍ ولا جـحـد[6]

---

(1) المرأة في الشعر الجاهلي، أحمد محمد حوفي ص 659، الطبعة الثالثة دار النهضة مصر للطبع والنشر 1972.

(2) نابني: أصابني. سهدي: أرقي.

(3) ساغ لي الشراب: هنأ لي وسهل مدخله في حلقي، وأساغ: سهَّل ذلك.

(4) تلحوني: تلومني.

(5) الزميلة: الضعيف الجبان.

(6) النكس: الضعيف الدنيء الذي لا خير فيه. الجحد: الجاحد الناكر للفضل.

نـــظـــرت يـــومًـــا فـــلا نـــظـــرت

بـــعـــدهُ عـــيـــنـــي إلـــى أحـــد

وقد عارضها عمارة بن الوليد بقوله[1]:

يـــا خـــلـــيـــلـــي نـــابـــنـــي ســـهـــدي

لـــم تـــنـــمْ عـــيـــنـــي ولـــم تـــكـــدِ

تـــنـــاهـــى فـــيـــكـــم وجـــدي

وصـــــــدَّع حـــبّـــكـــم كـــبـــدي

فـــقـــلـــبـــي مُـــسْـــعَـــرٌ حـــزنًـــا

بـــذات الخـــال فـــي الخـــدِّ[2]

فـــمـــا لاقـــى أخـــو عـــشـــقٍ

عُـــشـــيَـــر الـــعُـــشْـــرِ مـــن جَـــهْـــدي[3]

يظهر الشاعر لمحبوبته حبه الشديد، وأنه يشعر بأضعاف ما تشعر به خولة وأن قلبه ملتهب في حبها. أما عمّارة هذا فكان أحد أزواد الرّكب، لا يمر به أحد إلا قراه وزوّده ما يحتاج إليه في سفره، وهو الذي أتي به رجال قريش إلى أبي طالب وقدّموه له ليكون له ولدًا ونصيرًا على أن يسلمهم ابن أخيه محمد ﷺ، ومات عمارة في خلافة عمر بأرض الحبشة مسحورًا بأمر من الملك النجاشي لتعرضه لزوجة النجاشي، فحزنت خولة عندما علمت بسحره وقالت فيه[4]:

يـــا لـــيـــتـــنـــي لـــم أنم ولـــم أكـــدِ

أقـــطـــعـــهـــا بـــالـــبـــكـــاء والـــســـهـــدِ

---

(1) شاعرات في عصر النبوة، ص 66.

(2) مسعر: ملتهب.

(3) يظهر لها وجده وأنه ملتاع أضعاف ما تشعر خولة به.

(4) المرأة في الشعر الجاهلي – أحمد محمد حوفي ص 670.

أبـكـي عـلـى فـتـيـةٍ رُزئـتـهـم
كـانـوا جـبـالـي فـأوهـنـوا عَضُدي[1]
كـانـوا جـمـالـي ونـصـرتـي، وبـهـم
أمـنـع ضـيـمـي وكـلّ مضطهدِ[2]
فـبـعـدهـم أرقـبُ الـنـجـومَ وأُذْ
ري الـدّمـع والحـزن والـجُ كبدي[3]

عشق عبدالله بن أبي بكر، عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل فتزوج بها، وعند استشهاد عبدالله في الطائف بسهم أبي محجن مرض منه ومات بالمدينة. فقالت عاتكة ترثيه[4]:

رُزئـت بـخـيـر الـنـاس بـعـد نـبـيِّـهـم
وبـعـد أبـي بـكـر، ومـا كـان قـصَّـرا
فـآلـيـتُ لا تـنـفـكُّ عـيـنـي حـزيـنـةً
عـلـيـك، ولا يـنـفـكُّ جِـلـديَ أغْـبـرا[5]
مـدى الـدَّهـر مـا غـنَّـت حـمـامـةُ أيـكـةٍ
ومـا طَـرَدَ الـلـيـلُ الـصـبـاحَ المـنـوَّرا
إذا أُشْـرِعَـتْ فـيـه الأسِـنَّـةُ خـاضَـهَـا
إلـى المـوت حـتـى يـتْـرُكَ الـرمـحَ أحمرا[6]
فـلـلَّـه عـيـنًـا مـن رأى مـثـلَـه فـتًـى
أكَـرّ وأحْـمـى فـي الـهـيـاج وَأصْبَرا[7]

(1) أوهنوا: أضعفوا. رزئتهم: نكبت بهم.
(2) الضيم: القهر والظلم. مضطهد: من الاضطهاد وهو الإذلال والإهانة.
(3) أذري: أنثر. والج: داخل.
(4) شاعرات في عصر النبوة، ص 126.
(5) حزينة: في الأغاني وعيون الأخبار: سخينة - أليت: أقسمت.
(6) أشرعت: يروى:شرعت، وشرعت. أي سددت.
(7) فلله عينا: في عيون الأخبار: عين. . أعزُّ وأحمى.

فتزوجت من بعده عمر بن الخطاب، فطلب علي من عمر أن يدعه يتحدث مع عاتكة فآذن له عمر، فقال علي لعاتكة: يا عدوة نفسها، أين قولك:

فـالـيـتُ لا تـنـفـكُّ عـيـنـي حـزيـنـةً

عـلـيـك، ولا يـنـفـكُّ جـلـدي أغـبـرا؟

فأجهشت بالبكاء، وعلا نحيبها. فقال عمر: ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن؟ كل النساء يفعلن هذا فقال: قال الله تعالى: «يأيها الذين ءامنوا لم تقولون ما لا تفعلون». وأفتى عمر بأن تَرُدّ الحديقة التي أهداها عبدالله بن أبي بكر إلى أهله وتتزوج.

ثم قتل عنها عمر فقالت ترثيه:[1]

عـــينُ جـــودي بـعـبـرةٍ ونـحـيـبِ

ولا تملِّـي عـلـى الإمـــام الـنَّـجـيـبِ

فـجـعـتـنـي المـنـونُ بـالـفـارس المُـعـ

ـلَـمِ يـومَ الـهـيـاجِ والتّلبيب[2]

عـصـمـةُ الـنـاس والمـعـيـنُ عـلـى الـدَّهـ

ـرِ وغـيـثُ المُـنـتـابِ والمحـــروبِ[3]

قـل لأهـل الـضّـرَّاء والـبـؤسِ: مـوتـوا

قـد سَـقَـتْـهُ المَـنُـونُ كـأسَ شَعوبِ[4]

ترثي عاتكة هنا أمير المؤمنين بحرقة ففجيعتها ليست بهينة، فالذي فقدته إنسان عظيم عادل مقدام نصير الفقراء والمظلومين، عائلهم عند الشدائد، يلجأ إليه الفقير فيعطيه والمظلوم فينصفه.

---

(1) المصدر السابق، ص 128.

(2) التلبيب: التشمر للقتال. المعلم: المتحلي بعلامة دلالة على البطولة والجرأة. ويروى التثويب، أي العود من الحرب، وهو بعيد.

(3) المحروب ويروى المحروم والمحروب: المستهدف بحرب.

(4) لأهل الضراء: ويروى السراء أو الثراء. شعوب: الموت، لأنه يفرق الناس شعبًا.

وقالت أيضًا ترثيه وتهجو فيروز الذي قتله:

وفـجَّـعـنـي فـيـروزُ لا دَرَّ دَرُّه
بـأبـيـض تـالٍ لـلـكـتـابِ منيبِ[1]
رؤوفٍ على الأدنى غليظٍ على العدى
أخـي ثـقـةٍ فـي الـنـائـبـات نجيبِ[2]
مـتـى مـا يـقـل لا يـكـذبُ الـقـولَ فعلُهُ
سـريـعٌ إلـى الـخـيـراتِ غـيـر قـطـوبِ

وقالت أيضًا ترثيه:

مـن لـنـفـسٍ عـادهـا أحـزانُـهـا
ولـعـينٍ شـفَّـهـا طـولُ الـسَّـهَـدِ[3]
جـسـدٌ لُـفـف فـي أكـفـانِـه
رحـمـةُ الـلـه عـلـى ذاك الجسد
فـيـه تَـفـجـيـعٌ لمـولّـى غـارِمٍ
لـم يَـدَعْـهُ الـلـهُ يَمْـشـي بِسَبَد[4]

وقالت ترثي عمر بن الخطاب أيضًا:

مُـنِـع الـرُّقـاد فـعـاد عـيـنـي عُـودُ
ممَّـا تَـضَـمَّـن قـلـبـيَ المـعـمـودُ[5]
يـا لـيـلـةً حُـسِـبَـتْ عـلـيَّ نجومُـهـا
فَـسَـهِـرْتُـهـا والـشَّـامِـتُـونَ هُجودُ[6]

(1) منيب: التائب.
(2) نجيب: في الطبري: مجيب. وفي الكامل تبدلت القافية بين الأول والثاني.
(3) شفه: أوهنه. السهد: السهر.
(4) السبد: القليل من الشعر، أي أنه ظل فقيرًا لا شيء له.
(5) الرِّقاد: النوم. عاد عيني عودُ: كناية عن امتناع النوم. المعمود: المثقل بالمرض والهموم.
(6) هجود: نيام.

قـد كـان يُـسْـهـرنـي حـــذاركَ مـــرّةً
فـالـيـومَ حـقّ لـعـيـنـيَ التّسْهيد[1]
أبـكـى أمـيـرَ المـؤمـنـيـنَ ودونـه
لـلـزائـريـنَ صـفـائـحٌ وصعيد[2]

وتزوجت عاتكة بعد استشهاد عمر بن الخطاب، الزبير بن العوام فقتل عنها في وادي السباع، فقالت ترثيه وتندد بقاتله عمرو بن الجرموز يوم وقعة الجمل[3]:

غـدرَ ابـنُ جُـرمـوزٍ بـفـارسِ بَـهْـمَـةٍ
يـومَ الـلـقـاءِ، وكـان غـيـرَ مُـعـرَّدِ[4]
يـا عـمـرُو لـو نَـبَّـهْـتَـهُ لَـوَجَـدْتَـهُ
لا طـائـشًـا رعْـشَ الجَـنـانِ ولا اليـدِ
شُـلَّـت يَمِـيـنُـك إن قـتـلـتَ لَمُسلمًا
حَـلَّـتْ عـلـيـك عـقـوبـةُ المُتَعَمِّدِ[5]
ثـكِـلـتْـكَ أمُّـــكَ إن ظـفـرتَ بمثـلِـه
فـيـمَـن مَـضـى ممَّـن يـروحُ ويَغْتدي[6]
إنَّ الـزبـيـرَ لـــذو بـــلاءٍ صـــادقٍ
سَـمْـحٌ سـجِـيَّـيـتُـه كـريمُ المشهَد[7]
كـم غَـمـرةٍ قـد خـاضَـهـا لـم يَـثْـنِـه
عـنـهـا طِـــرادُكَ يـا بـنَ فـقْـعِ القَرْدَد[8]

(1) حذارك: حذرك وتخوفك.
(2) الصفائح: حجارة القبر. صعيد: تراب.
(3) شاعرات في عصر النبوة، ص 129.
(4) معرد: هارب. وفي مروج الذهب: مسدد.
(5) شلت يمينك: في أسد الغابة والله ربك. وفي العقد: ثكلتك أمك. وفي مروج الذهب: هبلتك أمك.
(6) ثكلتك أمك إن ظفرت بمثله: ويروي الصدر: فاذهب فما ظفرت يداك بمثله.
(7) سمح السجية: رقيق الطبع.
(8) الغمرة: الشدة في الحرب. فقع: البيضاء الرخوة من الكمأة. القردد: ما ارتفع من الأرض.

وبعد استشهاد الزبير بن العوام خطبها علي بن أبي طالب، فأرسلت إليه: إني لأضنُّ بك يابن عم رسول الله ﷺ من القتل. ثم تزوجها الحسين بن علي، فكانت أول من رفع خده عن التراب. ورثته فقالت:

واحُسَينا ولا نَسِيتُ حُسينًا

أقْصَدَتْهُ أسِنَّةُ الأعداءِ

غادَروهُ بكربلاءَ صريعًا

جادَتِ المُزْنُ في ذُرَى كرْبلاءِ

ويقال إن مروان بن الحكم خطبها بعد الحسين، فامتنعت عليه وقالت: ما كنت لأتخذ حما بعد رسول الله ﷺ. وكان عبدالله بن عمر يقول: «من أراد الشهادة فليتزوج بعاتكة».

كما كانت المرأة في الإسلام تعشق، إذا رأت الجمال الآخاذ، تعشق عشقًا مغلفًا بالعفة والحياء والأخلاق، وهذه الحادثة تدل على قدرة المرأة على الحب والتحكم في مشاعرها.

كان في زمان عمر بن الخطاب فتى يدعى نصر بن حجاج بن علاط السلمي، وكان شاعرًا من أهل المدينة، اشتهر بجماله، فعشقه كثير من نساء المدينة، وكان من بينهن فتاة تدعى الفريعة بنت همام الزلفاء، وتكنى بأم الحجاج، أحبته حتى ضنيت من حبه، وكانت شاعرة تشكو حبها في شعرها، وبينما كان عمر ذات ليلة يطوف في سكك المدينة على عادته سمع امرأة – هي الفريعة – تنشد من داخل بيتها، فدنا من الباب إذا بها تقول:

يا ليت شعريَ عن نفسي، أزاهقةٌ

مني ولم أقضِ ما فيها من الحاجِ؟[1]

(1) الحاج: جمع الحاجة.

هـل مـن سَـبـيـلٍ إلـى خـمـرٍ فـأشـرَبَـهـا
أو مـن سبيلٍ إلـى نـصرِ بـنِ حجاجِ[1]؟
إلـى فـتًـى مـاجـدِ الأعـــراقِ مُـقـتـبـلٍ
سَـهْـل المحـيَّـا كـريمٍ غـيـر ملْجاجٍ[2]
نمـتْـهُ أعـــراقُ صـــدقٍ حـين تـنـسبُـهُ
أخـــي حـفـاظٍ عـن المـكـروب فـــرَّاجِ[3]
نـعـم الـفـتـى فـي سـوادِ الـلـيـل نُـصْـرتُـهُ
لـيـائـسٍ أو لمـلـهـوفٍ ومُـحـتـاجِ
يـا مـنـيـةً لـم أرُمْ فـيـهـا بـضـائـرةٍ
والـنـاسُ مـن صـادقٍ منـها ومـن راجِ[4]
سـامـي الـنـواظـرِ مـن بَـهْـزٍ لـهُ قَـدَمٌ
تـضـيءُ صـورتُـه فـي الحـالـكِ الداجي[5]

واستدعى عمر بن الخطاب نصر فرآه وسيمًا حسن الشعر، فأمر عمر بحلق شعره، فرآه عاد أحسن مما كان، فقال له عمر: لا تساكني في بلد يتمنك النساء بها، فأخرجه إلى البصرة، وخافت الفريعة من عمر، وخشيت أن يبدر منه إليها بشيء، فكتبت إليه تستعطفه[6]:

قُـلْ لـلإمـامِ الـذي تُـخْـشَـى بـوادِرُهُ
مـا لـي ولِـلـخـمـرِ أو نـصـرِ بـنِ حجّاج[7]

(1) هل من سبيل: في عيون الأخبار والجوهرة: «ألا سبيل...أم هل سبيل».
(2) ملجاج: ملحاح.
(3) أخي حفاظ: أخي وفاء، وأخي قداح.
(4) لم أرم: لم أتمن. ضائرة: منكر أو ضرر.
(5) بهز: اسم قبيلة. ويروى العجز بأكثر من رواية، منها: تضيء سنته في الحالك الداجي.
(6) شاعرات في عصر النبوة، ص 157.
(7) البوادر: جمع بادرة، وهي الحدة ، وفي شرح نهج البلاغة: قل للأمير.

إنــي غَـنِـيـتُ أبــا حـفـصٍ بـغـيـرِهـمـا

شـربَ الحـلـيـبِ وطـرفٍ غـيـرِهِ ساجي[1]

إنَّ الـهـوَى زَمَّــه الـتـقـوى فـتـحـسـبُـهُ

حـتــى أقــرَّ بــإلجــامٍ وإســـــراج[2]

أمـنـيـةٌ لـم أطــرْ فـيـهـا بـطـائـرةٍ

والـنـاسُ مـن هـالـكٍ فـيـهـا ومـن نـاجِ[3]

لا تجـعـلِ الـظَـنَّ حـقًّـا أو تـبـيَّـنَـهُ

إنَّ الـسـبـيـلَ سـبـيـلُ الخـائـفِ الـراجـيَ

فأرسل إليها عمر: قد بلغني عنك خير، فاطمئني.

كان الإسلام يراعي مشاعر المسلمات، المتزوجات، الغائبات عنهن أزواجهن بسبب الغزوات، ففي زمن عمر بن الخطاب، خرج أمير المؤمنين في جولة تفقدية كعادته فمر بدارٍ تسكنه امرأة من العرب غاب عنها زوجها، مغلقة الباب على نفسها، وهي تنشد[4]:

تـطـاول هـذا الـلـيـل تَـسـري كـواكِـبُـهْ

وأرَّقـنـي أن لا خـلـيـلَ أُلاعِـبُـهْ[5]

ألاعِـبُـهُ طَـوْرًا وطَـورًا كـأنَّـمـا

بـدا قَـمَـرٌ فـي ظُـلْـمَـةِ الـلَّـيـلِ حـاجِـبُـهْ

يُـسـرُّ بـه مـنْ كـانَ يـلْـهُـو بِـقُـرْبِـهِ

يُـعـاتِـبُـنـي فـي حُـبِّـهِ وأُعَـاتِـبُـهْ

(1) ساجي: ساكن لين. ويروى: قاصر ساجي.
(2) يروى البيت: إنَّ الهوى زمَّ بالتقوى فتحسبه حتى يُقرَّ بإلجامٍ وإسراج.
(3) أمنية لم أطر فيها: في نهج البلاغة: ما منية قلتها عرضًا بضائرة. وتروى: أنَّ.
(4) شاعرات في عصر النبوة، ص 255.
(5) الخليل: تريد بالخليل زوجها، وفي شرح نهج البلاغة: وليس إلى جنبي خليل.

فـوالـلـهِ لـولا الـلـهُ لا شـيء غـيـرُهُ
لَـزُحـزِحَ مـن هـذا الـسـريـر جوانِبهْ[1]
ولـكـنَّـنـي أخـشـى رقـيـبًـا مـوكَّـلاً
بـأنْـفُـسِـنـا لا يـفْـتُـرُ الـدَّهـرَ كـاتِـبُـهْ
مـخـافـةَ ربـي والحـيـاءُ يـعُـفُّـنـي
وإكـرامُ بـعـلـي أن تُـنـال مراتبُهْ[2]

كانت هذه المرأة تشكو غياب الحبيب، وطول الليل الذي لا ينتهي، وكانت تتمنى أن يكون زوجها إلى جانبها يلاعبها وتلاعبه، يعاتب كل منهما الآخر، ولولا خوفها من الله ولا شيء غير خوف الله لخانت زوجها، كما أن عفتها وحفاظها على كرامة زوجها يمنعانها من الوقوع في الخطأ.

وأخبر عمر أن هذه زوجة فلان، وله في الغزاة ثمانية أشهر، فأمر عمر بألا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر. كما أحبت امرأة سعيد بن الأسود وأبوه الأسود بن البختري، الذي أسلم يوم الفتح، وصحب النبي ﷺ، فقالت فيه، ولم يرد لها سوى هذا البيت[3]:

ألا لـيـتـنـي أشـري وشـاحـي ودمـلـجـي
بـنـظـرة عـيـنٍ مـن سـعـيـد بـن أسـودِ[4]

وأيضًا من الشاعرات عفراء بنت عقال العذرية التي توفيت سنة 50 من الهجرة، وهذه فترة ليست ببعيدة عن صدر الإسلام وكانت في بدايات العهد الأموي، نشأت عفراء مع ابن عمها عروة بن حزام العذري في بيت واحد فأحبها وأحبته، خطبها فأغلت أمها المهر وزُوِّجَتْ لغيره. زارها عند زوجها فأكرمه الزوج

(1) جوانبه: تريد به أنه لولا خوف الله لخانت زوجها. وفي شرح نهج البلاغة: لزعزع.
(2) يعفني: في شرح نهج البلاغة: يصدني.
(3) شاعرات في عصر النبوة، ص 255.
(4) الدملج: حلي يلبس في المعصم.

الواثق من أخلاق زوجته، وما إن رحل عنها حتى أضناه الحب وفارق الحياة، فزارت عفراء قبره بعد استئذان زوجها، فماتت ودفنت إلى جانبه، وقبل مماتها رثته بهذه الأبيات:

ألا أيـهـا الـركـب المُـخِـبُّـونَ وَيْـحَـكُـمْ
بـحـقِّ نَـعَـيْـتُـمْ عُـروة بـن حـزامِ[1]
فـإنْ كـان حـقًّـا مـا تـقـولـون فـاعْـلَـمُـوا
بـأنْ قـد نَـعَـيْـتُـم بـدرَ كـلِّ ظـلامِ
نـعـيْـتـم فـتًـى سـاقَـى الـغـمـامُ بـوجـهـهِ
إذ هـي أمـسـت غـيـر ذاتِ غـمـامِ
فـلا نـفـعَ الـفـتـيـانَ بـعـدَكَ لـذةٌ
ولا مـا لـقُـوا مـن صـحـةٍ وسـلامِ
ولا لـبـسَ الـطـيـقـانَ بـعـدك لابـسٌ
ولا جـمَّـمَـتْ بـعـد الـحـبـيـبِ جمامِ[2]
فـلا تـهـنـئ الـفـتـيـانَ بـعـدك لـذَّةٌ
ولا رجـعـوا مـن غـيـبـةٍ بـسـلامِ
وقـل لـلـحـبـالـي لا تُـرَجِّـين غـائـبًـا
ولا فـرِحـاتٍ بـعـدَهُ بـغـلامِ[3]
ولا، لا بـلـغْـتُـم حـيـثُ وُجِّـهـتـم لَـهُ
ونُـغِّـصْـتُـم لـذَّاتِ كـلِّ طـعـامِ[4]

(1) المخبون: المسرعون.
(2) الجمم: كثر وتجمع.
(3) في الحدائق وبتن الحبالي لا يرجين.
(4) نغصتم: كدرتم.

وينسب إليها قولها[1]:

عـــدانـــي أن أزورك يـــا مُـــرادي
مـعـاشِـرُ كُـلُّـهُـمْ واشٍ حَـسُـودُ[2]
أذاعـــوا مـا عـلـمـتَ مـن الـدَّواهـي
وعـابـونـا ومـا فـيـهـم رشـيـدُ[3]
فـأمـا إذ حـلـلـتَ بـبـطـن أرضٍ
وقَـصْـر الـنـاسِ كـلَّـهـم اللُّحود[4]
فـلا بـقـيـت لـي الـدنـيـا فُـواقًـا
ولا لـهـم، ولا أثـرى عـديـدُ[5]

كما تمتع المرأة بالحكمة والتصرف السليم فيما يختص بأسرتها ولا تهدم بيتها بيدها كما حصل من هند الهمدانية مهما يكن مقدار ألمها، زوجة رجل من همدان اسمه عثمان، كان زوجها في بعث في أذربيجان فرجع الجند ولم يرجع هو، لأنه استفاد من جهاده ذاك ما اشترى به فرسًا وجارية وسمي الفرس وردًا والجارية حبابة، وألهاه الحبُّ عن العودة فكتب إلى امرأته يخبرها عن أمره فكتبت إليه شعرًا[6]:

لـعـمـري لـئـن شـطَّـتْ بـعـثـمـانَ دَارُهُ
وأضـحـى غـنـيًّـا بـالـحـبـابـة والـــوردِ[7]

(1) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 284.
(2) عداني أن أزورك: منعني زيارتك.
(3) الدواهي: الكبائر من الأمور والمصائب، رشيد: عاقل.
(4) اللحود: القبور.
(5) فواقا: مقلة. أثرى: اغتنى. العديد: الكثير.
(6) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 232.
(7) شطت: بعدت.

ألا فـــاقـــرِهِ مـــنـــي الـــســـلام وقـــل لـه
غـنـيـنـا بـفـتـيـانٍ غـطـارفـةٍ مُـــرد[1]
إذا شـــاءَ مـنـهـم نـاشـئٌ مـــدَّ كـفَّـه
إلـــى كـفـلٍ ريّـــان أو كـعـثـبٍ نهد[2]
بـحـمـد أمـيـر المـؤمـنـين أقـرَّهـم
شـبـابًـا وأغـزاكـم خـوالـف فـي الجـنـد
فـمـا كـنـتـم تـقـضـون حـاجـة أهـلـكم
قـريـبًـا فيقضوها عـلـى الـنـأي والـبـعد
فـــأرســـل إلـيـنـا بـالـســراح فـإنَّـه
مـنـانـا، ولا نـدعـو لـك الـلـه بالرُّشد[3]
إذا رجـــع الجـنـدُ الـــذي أنـــتَ مـنـهـمُ
فـــزادكَ ربُّ الـنـاس بـعـدًا عـلـى بُـعـدِ

تتهم الشاعرة نفسها بخيانة زوجها في قصيدتها، وتبين له أنها ليست بغاضبة منه، لأنه استغنى عنها بالجارية والحصان، فتلقي عليه السلام بكل هدوء وكأن الأمر لا يهمها، وأن بعده جاء بمنفعة لها؛ لأن أمير المؤمنين ترك لهم في المدينة شبابا صغارًا لم ينبت عليهم الشعر بعد، وأنها تستطيع أن تتخذ من أحدهم خليلاً، لكي يذوق من نفس الكأس الذي أذاقها منه، لكي يرى طعم الغيرة. وحين قرأ الزوج قصيدتها باع الجارية وعاد إلى همدان مسرعًا. فوجدها معتكفة على السجود والصلاة فقال: أفعلت ما قلت ؟، قالت: الله أجلُّ في عيني وأعظم من أن أرتكب إثمًا، ولكن كيف وجدت طعم الغيرة ؟ فإنك غظتني فغظتك. كما كانت المرأة المسلمة لا تفرط في حقها ليقينها أنه لا حياء في الدين، وأنها تستطيع أن تحتكم إلى القاضي حتى في أدق الخصوصيات، فهذه امرأة جاءت إلى عمر بن الخطاب

(1) مرد: شباب صغار لم ينبت لهن الشعر. الغطارفة: الشباب.
(2) الكفل: العجيزة.
(3) السراح: قصدت الطلاق.

تشكو زوجها فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل. فقال لها: نعم الرجل زوجك. وكان في مجلسه رجل يسمى كعبًا، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عن فراشه. فقال عمر: كما فهمت من كلامها، احكم بينهما. فقال كعب عليّ بزوجها. فأحضر، فقال له:

إن هذه المرأة تشكوك. قال: أفي أمر طعام أم شراب ؟ فقال: بل في أمر مباعدتك إياها عن فراشك. واندفعت المرأة تقول:

يا أيها القاضي الحكيم أنشُدُه

ألهى خليلي عن فراشي مسجدُه

نهاره وليلُهُ لا يرقُدُه

فلست في أمر النساء أحمده

وهناك أيضًا قصة أخرى توضح شجاعة المرأة في كشف مكنون قلبها دون خوفا. بينما كان أبوبكر الصديق يطوف ببعض أحياء المدينة أيام خلافته، فإذا جارية تطحن وتنشد[1]:

وعشقته من قبل قطع تمائمي

متمايسًا مثل القضيب الناعم[2]

وكأنَّ نور البدر سنة وجهه

ينمي ويصعد في ذؤابة هاشم[3]

فدق عليها الباب، فخرجت إليه فقال: ويلك أحرّة أم مملوكة ؟ قالت: مملوكة يا خليفة رسول الله، قال: من هو؟ فقالت متابعة:

وأنا التي لعب الغرامُ بقلبها

فبكتْ بحبِّ محمد بن قاسمِ

(1)شاعرات في عصر النبوة، ص 244 .

(2)التمائم: جمع تميمة وهي خرزة توضع على الصدر تعويذة، متمايسًا: تمايلاً.

(3)ذؤابة: شعر مقدم الرأس.

فسار أبوبكر إلى المسجد، وبعث إلى مولاها فاشتراها منه، وبعث إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب وقال: هؤلاء فتن الرجال، فكم مات بهن كريم، وعطب عليهن سليم!.

وكانت المرأة المسلمة ترعى الله في أفعالها، وهذه امرأة تميمية، وقف إليها رجل فأعجبته وراودها عن نفسها، فقالت له: هبك ليس لك مانع من أدب أما لك زاجر من الحياء ؟ فقال لها لن يرانا إلا الكواكب، فقالت: وأين مكوكبها؟ فقال لها: ألك بعل ؟ قالت قد كان، ولكن دعي إلى ما خلق له ثم قالت[1]:

إنـي وإن عَـرَضَـتْ أشـيـاءُ تُضْحِكُني
لَمُـوجَـعُ الـقـلـب مـطـويٌّ عـلـى الحـزنِ
إذا دجـا الـلـيـل أحـيـا لـي تَـذَكُّـرُهُ
وزادنـي الـصُّبْحُ أشجانًا على شَجَنِي
وكـيـف تَـرقُـد عـينٌ صـارَ مـؤْنِـسِـهَـا
بـين الـتُّـرابِ وبـين الـقـبـر والـكـفـن
أبْـلـى الـثـرى وتـرابُ الأرض جِـدّتَـهُ
كـأنَّ صـورتـه الحـسـنـاءَ لـم تَـكُـنِ
أبـكـي عـلـيـه حـنـيـنًـا حـين أذكُـرُهُ
حـنـيَن والـهـةٍ حـنَّـتْ إلـى وطـنِ
أبكي على من حنَتْ ظَهْري مصيبَتَهُ
وطـيَّـر الـنَّـومَ عـن عـيـنـي وأرّقـنـي
والـلـه لا أنـس حُـبِّـي الـدَّهـر مـا سَجَعَتْ
حـمـامـةٌ أو بـكـى طـيـرٌ عـلـى فَـنَنِ

(1) شاعرات في عصر النبوة، ص 249.

فأعجب الرجل بالمرأة لخوفها من الله في السرِّ وفي العلن، ولحبها لزوجها ولإخلاصها لهذا الحب حتى بعد مماته، فمازالت على عهدها تذكره، وتمنى أن تكون هذه زوجته، فسألها وقال: هل لك في زوج؟ فأطرقت مليًا ثم قالت:

كنَّا كغصنين في أصل غذاؤهما
ماء الجداول في روضات جنَّاتِ
فاجتثَّ خيرهما من جنب صاحبه
دهر يكرُّ بفرحاتٍ وتَرْحَاتِ
وكان عاهدني إن خانني زمني
أن لا يُضاجع أنثى بعد مثْواتي
وكنت عاهدته أيضًا فعَاجَله
ريب المنُونِ قريبا مُذْ سُنِيَّاتِ
فاصرف عِنانك عمَّن ليْس يرْدعُها
عن الوفاءِ خلابٌ في التَّحِيَّاتِ

المرأة دائمة الإخلاص لزوجها بعد مماته، وهي أكثر إخلاصًا من الرجل، لزوجها في حال وفاته، ولاتفكر بالزواج على عكس الرجل. وهذه ابنة عم النعمان بن بشير الأنصاري، تزوجها مالك بن عمرو الغساني، ثم قتل عنها، فصمتت حولاً لا تتكلم، فقال بعض أهلها زوجوها غيره لعلّها تسلو وتفيق، فزوجوها رجلًا من أبناء الملوك فلما كانت ليلة بنائه بها قالت هذا الشعر[1]:

يقول رجالٌ زوجوها لعلَّها
تفيق وترضى بعده بخليلِ
فأضمرتُ في النفس التي ليس بعده
رجاءً لها، والصدق أفضل قيل

(1) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 267.

أبعد ابن عمرو سيد القوم مالك

أزفّ إلى زوج بعضب كليل[1]

وخبرني أصحابه أن مالكًا

خفيفٌ على العلات غير ثقيل

وخبرني أصحابه أن مالكًا

ضروبٌ بماضي الشفرتين صقيل[2]

وخبرني أصحابه أن مالكًا

جوادٌ بما في الرحل غير بخيل

وخبرني أصحابه أن مالكًا

ثوى وتنادى صحبه برحيل[3]

فما كان يشريني خليلي بخلّةٍ

وما كنت أشري مالكًا بخليل[4]

وتشير الرواية أن الرجل كان كبير السن غير شجاع. وبدأت الشاعرة بتذكر محاسن زوجها المتوفى، ولكي توضح الفرق بين زوجها الحالي العجوز الجبان وزوجها السابق الشجاع.

****

(1) العضب: السيف. الكليل: غيرالقاطع.

(2) ضروب: كثير الضرب .

(3) ثوى: مات وقبر.

(4) يشريني: يبيعني.

المبحث الرابع: المقارنة

كنت أود إعداد فصل في هذا البحث - يختص بمقارنة صورة المرأة في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام ولكني عدلت عن ذلك لأنني ذكرت صورًا من هذه المقارنة عندما تحدثت عن صورة المرأة في عصر صدر الإسلام، لذا عدلت عن ذلك وأدرجت المقارنة في مبحث من الفصل الثالث تفاديًا للتكرار.

عند مقارنتنا لصورة المرأة عند الشاعر الجاهلي والإسلامي، نلاحظ أنها كانت عند الشاعر الجاهلي الملاذ للحياة القاسية المليئة بالصراعات ولسعة الشمس المتوهجة في الصحراء مترامية الأطراف، وقد ساعده التأمل في جمال المرأة والإحساس العميق بالحب وميله نحو المرأة على تحمل قسوة الحياة إلى جانب بعض الصفات الحميدة التي كان يتمتع بها العربي، كالشجاعة والصدق وحماية الجار.

اتجه قلب الشاعر للتأمل في الجمال عامة، والتأمل في جمال المرأة خاصة والانصياع للحب الذي يعد ظاهرة اجتماعية أساسية لم تتغير في جوهرها منذ عصر الجاهلية إلى وقتنا الحاضر، ولكنّ التعبير عن هذه الأحاسيس لم يكن منظمًا في العصر الجاهلي، وكانت المرأة تشكل حافزًا قويًّا من حوافز الإبداع عند الشاعر الجاهلي فيذكرها في الحروب، ويستشهد بها الفرسان، وتستفتح بها القصائد، وترسم في أحاديثهم ومسامراتهم، ويتخيل نفسه في موقف لا يستطيع أن يحققه في الحقيقة، فيروي الشاعر في قصائده الطوال مغامراته مع النساء،

مع التركيز على أوصاف المرأة، أوصاف معنوية وأخرى حسية تشير إلى ميلهم للخيال وحبهم للجمال، ومن هنا وضعت القصص والحكايات التي تدور حول المرأة التي يختلط فيها الواقع بالأسطورة، فشبهوا الحسناوات بالجنيات.

وكانت البيئة الصحراوية وليلها الطويل مناسبة لإثارة تلك الأخيلة حيث يحضِّر طيف الحبيبة كقول المرقش:

سرى ليلاً خيالٌ من سليمى
فأرَّقني وأصحابي هُجودُ
فبتُّ أديرُ أمري كلّ حالٍ
وأذكرُ أهلها وهمُ بعيد
سكنَّ ببلدةٍ وسكنتُ بأخرى
وقُطِّعتِ المواثقُ والعهود

إن شعر الحب الذي وصلنا من عصر ما قبل الإسلام يشير إلى حب المرأة والافتتان بها، وسنجد أن المعلقات المشهورة قد منحت المراة لبها وروحها، فمهما يكن موضوع القصيدة مختلفًا، فإن الحديث عن المرأة والشوق إليها يكون أول ما ينطق به الشاعر، فيبدأ بذكر الصاحبة والرحلة والناقة ويطيل الكلام في ذلك ثم لا تجد الهجاء أو المديح إلا في أبيات قليلة.

وهذا يبين لنا أن المرأة في ذلك العصر لم تكن مضطهدة أو مهملة، لأن الشيء المهمل لا يؤتى على ذكره، ناهيك من أن يُجعل أول كل شيء، بل يهمش ولا يلتفت إليه. على النقيض من ذلك كانت المرأة في الجاهلية لها دور في الحياة الاجتماعية، ولكننا لا ننكر رغم ذلك كانت في بعض الحالات تعد متاعًا، ومن أمثلة بعض أنواع العلاقات والزيجات التي حرمها الإسلام، والتي لازمت طبيعة الحياة في المجتمع الجاهلي، ظهر الإسلام وأضاء حياة العرب والأمم الأخرى، وأبقى الإسلام على

عدد من العادات والتقاليد القديمة، لكنه قدّم للعرب قيمًا اجتماعية جديدة، ومنها القيم العاطفية، فقدم القرآن للعرب لغة جديدة وصورًا جديدة في الحب، فيه أيضًا معطيات اجتماعية وخلقية مثل فكرة الأمانة وعفة النظر والالتزام، كما أرسى قواعد اجتماعية وشرعية تخص المرأة والعلاقة بينها وبين الرجل كما حرم الإسلام أسوأ عادة عرفها الجاهليون وأقساها وهي وأد البنات. ومن الواضح أن المجتمع الإسلامي يتصدى للمظاهر العشقية، وذلك لأنه كان يميل إلى إشاعة الزواج الذي يفضي بدوره إلى راحة الذهن واسترخاء العاطفة.

وانطلاقًا من هذه المكانة للمرأة في المجتمع العربي في الجاهلية، فقد أجاد الكثير من الشعراء في وصف مفاتنها ابتداءً من الصدر والنهد، والخصر، والبطن، الردف ثم الفخد، بل إن الشاعر الجاهلي لم يترك في المرأة موضعًا إلا أعطاه حقه في الوصف، وأستاذهم في هذا المجال هو امرؤ القيس والذي يقول في هذه الأبيات التي ذكرناها آنفًا:

مهفهفةٌ بيضاءُ غير مفاضةٍ
ترائبها مصقولةٌ كالسجنجلِ

إلى أن يقول:

وكشحٍ لطيفٍ كالجديلِ مخصَّرٍ
وساقٍ كأنبوب السقيِّ المُذَّلَلِ

بهذه الأوصاف العالية الجميلة رسم الشاعر صورة جميلة للمرأة، وهذه الأوصاف للمرأة لا غبار عليها لأنها لا تحتوي على وصف فاضح، وإنما وصف لنا صورة جميلة كما أحسها.

وقد تكررت صور الوصف عند شعراء صدر الإسلام، وهذا مما لم ينكره الإسلام عليهم، وإنما أنكر عليهم أن يقوم بوصف امرأة بعينها منعًا للإحراج من التشهير بالمرأة. يقول حسان[1]:

(1)ديوان حسان بن ثابت، تحقيق د. سيد حنفي، دار المعارف بمصر طبعة 1983، ص107-108.

تبلت فؤادكَ في المنام خريدةٌ
تشفي الضجيعَ ببارِدٍ بسّامِ
كالمسك تخلطُهُ بماء سحابةٍ
أو عاتقٍ كدم الذبيح مُدامِ
نفُجُ الحقيبةِ بوصُها متنضّدٌ
بلهاءُ غيرُ وشيكةِ الأقسام
بنيت على قطنٍ أجمَّ كأنَّه
فضلاً إذا قعدت مداك رخام
وتكاد تكسل أن تقوم لحاجةٍ
في جسم خرعبةٍ وحسن قوام

وهذه الصور لحسان بعد إسلامه تلتقي أيضًا مع التصور الجاهلي للمرأة من حيث الافتتان بالمرأة المكتنزة الكسول، والواضح للعيان أن صورة المرأة عند حسان ترتبط بالصورة القديمة عند امرئ القيس وغيرهم من شعراء المرحلة الأولى من الشعر العربي يقول حسان[1]:

ألم تذر العينُ تسهادَها
وجريَ الدموع وإنفادَها
تذكرُ شعثاءَ بعد الكرى
وملقى عراضٍ وأوتادها
إذا لجبٌ من سحاب الربيع
مرَّ بساحتها جادها
وقامت ترائيك مغْدَودِنًا
إذا ما تنوءُ به آدها[2]

(1) المصدر السابق نفسه، ديوانه، ص 102.
(2) مغدودنا: الشعر الكثيف الطويل. تنوء به: تنهض به. آدها: أثقلها.

ووجـــهًـــا كـــوجـــه الـــغـــزال الـربـيـب

يـــقـــرو تـــلاعًـــا وأســـنـــادهـــا

والقصائد الطوال والتي تستهل بالحديث عن المرأة لا تحط من قدرها بل تثبت لنا العكس، وهو أن المرأة كانت مهمة في حياة العربي يحميها من كل شر حتى آخر رمق في حياته، وإن كان بعضهم أفحش في القول، ووصف من المرأة مالا يوصف وكان زعيمهم في هذا امرؤ القيس، ومن سلك دربه من الشعراء الذين كانوا أسرى لغريزتهم توجههم حيث شاءت بدون رقابة الأخلاق، ومنهم الأعشى الذي فتنته امرأة مفتونة بشبابها مهتمة على العناية بزينتها، غارقة في عطرها، فلبث يترصد من الرقيب غفلة، حتى إذا سنحت له في جوف الليل اقتحم عليها مخدعها وأصبح فتاها الأثير الذي يغنيها عن بعلها الغافل الخامل فيقول:

ومـــثـــلـــكِ مـــعـــجـــبـــة بـــالـــشـــبـــا

ب صـــاكَ الـــعـــبـــيـــرُ بـــأجـــسـادِهـــا

تـــســـدّيـــتـــهـــا عـــادنـــي ظـــلـــمـــةٌ

وغـــفـــلـــةُ عـــيـــنٍ وإيـــقـــادهـــا

فـــبـــتُّ الخـــلـــيـــفـــةَ مـــن زوجـــهـــا

وســـيـــد (نـــعـــم) ومـــســـتـــادهـــا

ولهذه النوعية من الشعر نوع من النساء كالبغايا، والإماء، كما أن الشعراء الذين قالوا مثل هذه النوعية من الأشعار هم أصحاب الخمر والفجور ممن يترددون على الحوانيت؛ لأن الخلق العربي كان يأبى التعهر ويجعل حماية العرض من أهم القيم التي يعتز بها، وهذه من الصفات الحميدة التي أقرها الإسلام والشعراء منذ السنوات الأولى للإسلام قد بدؤوا يتأثرون تأثرًا واضحًا بالمعاني الدينية الجديدة، وطائفة كبيرة من ألفاظ الشعر الجاهلي الذي قد قل استخدامه بالتدريج منذ ظهور الإسلام حتى كادت تختفي تمامًا، وإن كان بعضهم سلك مسلك الشاعر الجاهلي بقية حياته ممن لم يتمكن الإسلام من قلبه وعقله أمثال الحطيئة.

وها هو كعب بن زهير لم يجد حرجًا في أن يتحدث عن الخمر في قصيدته التي أنشدها أمام النبي، مستخدمًا الأسلوب الفني نفسه الذي سلكه حسان بن ثابت من تشبيه الرضاب بالخمر فيقول[1]:

تجلو عوارضَ ذي ظلمٍ إذا ابتسمت

كأنَّه منهلٌ بالراح معلولُ[2]

شُجَّت بذي شَبَمٍ من ماء محنيةٍ

صافٍ بأبطحَ أضحى وهو مشمول[3]

ولكعب كذلك ذكريات عن لهوه ومجلس شرابه في قصيدته الإسلامية التي مطلعها:

ألا بكرت عِرسي تلومُ وتعذُلُ

وغير الذي قالت أعفُّ وأجملُ

يقول فيها[4]:

وقد أشهدُ الكأسَ الرويّة لاهيًا

أُعلُّ قبيلَ الصبح منها وأنهلُ[5]

ينازعُنيها ليِّنٌ غير فاحشٍ

مبادرُ غايات التّجار مُعَذَّلُ[6]

كما اتضح لنا أيضًا أن المرأة هذا المخلوق العجيب المليء بالمتناقضات رغم أنّها لا تحب أن ينظر إليها بكونها امرأة جميلة فقط لا عقل لها فإنها في الوقت نفسه

---

(1) ديوان كعب بن زهير، ص 84.

(2) عوارض: أسنان. ظلم: ريق. منهل: مشرب. معلول: سقى الراح مرتين.

(3) شجت: عوليت ومزجت وكسرت. بذي شبم: بماء ذي برد. المحنية: ما انحنى من الوادي، فيه رمل صغير. الأبطح: مسيل واسع فيه حصى. مشمول: أصابته ريح الشمال.

(4) المصدر السابق، ديوانه ص 76.

(5) الروية: الغزيرة. النهل: الشربة الأولى. والعلل: الشربة الثانية.

(6) المنازعة: تبادل الشراب. غير فاحش: دمث الخلق. غايات التجار: رايات التجار. معذل: ملوم، الذي يكثر من لوم الناس.

لا تحب أن لا تلفت الأنظار، أو يقال أنها قبيحة أو مسترجلة، ورغم أنها لا تريد أن يسيئ إليها بالكلام بغرض التحرش، فإنها تحب أن تسمع من أليفها كلمات الإعجاب بجمالها، فالمراة مثل الوردة تحتاج إلى من يعتني بها بالكلمات الجميلة التي تثبت لها أنها ملكة في قلب أليفها، وأنها قد بسطت أغصانها وظلالها في القلب.

فالمرأة حين تحب تصفح وتغفر عن كل شيء حتى عن الجريمة، ولو ذهب هذا من قلبها فهي لا تغفر عن شيء حتى عن الفضيلة.

كما نرى أن المرأة العربية تغري الشاعر العربي بشتى الوسائل، حتى تكون لها الحظوة في أن يشبب بها وأن ينقل الشعر إلى أسماع الناس وأفئدتهم اسمها وذكرها. حجت أم المؤمنين بنت عبدالعزيز بن مروان وزوجة الوليد بن عبدالملك، فأرسلت إلى كثيّر وإلى وضاح اليمن أن ينسبا بها، أما كثيّر فقد هاب الأمر وخاف مغبته فلم يشبب بها بل شبب بجاريتها، فقال:

شجا أظعانُ غاضرةَ الغوادي
بغير مشورةٍ عَرَضًا فؤادي
أغاضِرَ لو شهدتِ غداةَ بنتمْ
حنوَّ العائدات على وسادي
أويتِ لعاشقٍ لم تَشْكميهِ
بواقدةٍ تلذَّعُ كالزنادِ

فكشفت عن وجهها ومرّ بها أبودهبل الجمحي، فوقف طويلاً ينظر إليها وإلى جمالها وهي غافلة عنه، وقال فيها بضعة أبيات شاعت بمكة وغنى بها المغنون حتى سمعتها عاتكة إنشادًا وغناءً فأعجبتها، وبعثت إليه بكسوة ومن هنا نرى أنّ نساء العرب يبكين شاعر الغزل إذا مات؛ لأن في موته خسارة هذا الغزل الذي كان لهوًا لهنّ، وكان وصفًا لمحاسنهن وإشادة بما وهبهن الله من حسن وجمال.

وقد كان أغلبية الغزل عند شعراء الجاهلية يُعنى بوصف جمال الحبيبة وجسدها ومفاتنها وطيبها وحليها وثيابها، على عكس الشعراء في العصر الإسلامي، فمنذ السنوات الأولى للإسلام قد بدأ الشعراء يتأثرون بالمعاني الدينية الجديدة، وبالتالي هذه المواجهة السريعة بين ما كانوا عليه وما صاروا إليه قد فرضت عليهم إما التكيف السريع كما رأينا نسبيًا عند حسان بن ثابت، أو الصمت كما حصل وتذكر الرواية عن لبيد أو المضي على طريق الشعر الجاهلي، مع تأثر يسير كما نراه عند الحطيئة، فعند قراءة قصيدته الدالية تشعر أنك تعيد قراءة قصائد الأعشى وطرفة وزهير والنابغة، يقول الحطيئة:

آثـــرتُ إدلاجـــي عـلـى لـيـل حـــرَّةٍ

هـضـيـم الحـشـا حـسّـانـةِ المـتـجـرّدِ

إذا الـنـومُ ألـهـاهـا عـن الـــزاد خلتها

بُـعـيـدَ الـكـرى بـاتـت عـلـى طـيٍّ مُـجسد

قد ظلّ للمرأة سحرها في شعر صدر الإسلام وظل لها جمالها، وظل الشعراء مفتونين بها ولم يهتموا في أبياتهم بأمور الدين، لأن الإسلام لم يتمكن منهم بعد فهو في مراحله الأولى ولم يفهموه جيدًا، وصعب على الإنسان أن يترك ما تطبع عليه إلا أنهم لم يفحشوا في القول، أيضًا رغم أن كان للمرأة سحرها فإن الشعراء المخضرمين لم يتغزلوا بها بقدر تغزلهم بها في العصور الأولى، ذلك لأنهم أعطوا اهتمامهم للدين الجديد ولم يعبأوا بجمال المرأة ومفاتنها، إلا أنهم عندما يمدحون النبي ﷺ أو يهجون قريش، كانوا مضطرين أن ينهجوا في القصيدة نهج العصر القريب، ولم يتخلصوا من ذلك التأثير، وهي أن المقدمة الغزلية كانت تتصدر القصائد الطوال، إلا أن المسحة العذرية قد غلبت على شعرهم.

خاتمة:

تم بحمد الله تعالى هذا البحث المتواضع «صورة المرأة في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام»، ومما لا شك فيه أن الشعر مرآة للعصر وتوثيق للتاريخ وقد وضح هذا البحث صورة المرأة في العصرين المذكورين مع ذكر النماذج دون حذف لصور الغزل الصريح حتى تقف الباحثة على الحقيقة والواقع، والحذف ينافي ذلك كما اعتمدت الباحثة على التحليل والمقارنة.

النتائج التي توصلت إليها الباحثة من خلال هذه الدراسة:

1 – أن المرأة لم تجد كرامتها وعزتها إلا بعد مجيء الإسلام.

2 – أن الشعراء نظموا الغزل في صدر الإسلام كما فعل الجاهليون، وأن الإسلام لم يمنع الغزل، بل شجعه وفق شروط أخلاقية محددة، حيث طهر نفوسهم وبرأها من النوازع الحسية الرخيصة، ومعاني الغزل اتجهت إلى الأوصاف الشخصية للمرأة بعيدة عن الإثارة والمفاتن ملتزمة جانب العفاف وجمال الخلق.

3 – الحياة الإسلامية كانت سببًا في أن يصبح الحب العذري الذي ظهر في عصر صدر الإسلام وسطع نجمه في عصر بني أمية هو اللون السائد في اللوحة البدوية.

4 – الحديث عن المرأة في الشعر هو دراسة للغزل بصورة كبيرة

التوصيات:

أوصي الباحثين من بعدي بالآتي:

1 – التعمق في دراسة مكانة المرأة من خلال الأدب في عصور الجاهلية المختلفة وعصر الإسلام لتتبين المرأة المسلمة أن عزتها وكرامتها وفخرها مرتبط بشخصيتها الإسلامية المتميزة.

2 – دراسة مقارنة لصورة المرأة في عصور الإسلام المختلفة كعصر صدر الإسلام مع العصر العباسي.

3 – تحليل القصائد التي تصور المرأة تحليلاً أدبيًّا بلاغيًّا.

****

المصادر والمراجع العربية

القرآن الكريم

1 – الأدب الجاهلي، د غازي طليمات، أ. عرفان الأشقر،الطبعة الثانية دمشق دار الفكر 2007 م

2 – الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، أ. د، حسني عبدالجليل، الطبعة الأولى دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الاسكندرية (د.ت).

3 – أشعار النساء للمرزباني، أبوعبدالله محمد بن عمر تحقيق سامي مكي العاني، وهلال ناجي، عالم الكتب بيروت 1415هـ.

4 – الأغاني، للأصفهاني أبوالفرج علي بن الحسين، الطبعة الثانية، الجزء العشرون، دار إحياء التراث العربي 1418هـ.

5 – الأغاني، أبوالفرج الأصفهاني علي بن الحسين، الجزء الثاني عشر، دار إحياء التراث العربي (د.ت).

6 – بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب (أبوالفضل السيد محمود شكري الألوسي تصحيح محمد بهجة الطبعة الثانية (د. ت).

7 – البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الثانية، الجزء الأول، 1960.

8 – تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي، دار الشؤون الثقافية العامة الطبعة الثانية 2004 م.

9 – تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث للمؤلف د. مصطفى الصاوي الجويني، الطبعة الأولى دار المعرفة الجامعية الاسكندرية (د. ت).

10 – تطور الصورة في الشعر الجاهلي، د، خالد الزواوي، مؤسسة حورس الدولية مصر الإسكندرية 2005م.

11 – تهذيب كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، تهذيب عبدالعزيز جمال الدين، مكتبة الإيمان المنصورة 2009م.

12 - جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي تحقيق الأستاذ خليل شرف الدين، دار مكتبة الهلال بيروت الطبعة الثانية 1991م.

13 - جمهرة أشعار العرب، أبوزيد محمد بن الخطاب القرشي، تحقيق علي محمد البجاوي (د. ت).

14 - جمهرة الأمثال أبوالهلال العسكري، الجزء الأول، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش المؤسسة العربية الحديثة 1384هـ.

15 - الجارة في الشعر العربي مرزوق صنيتان بن تنباك، مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود 1411هـ.

16 - الحب في التراث العربي د.محمد حسن، سلسلة عالم المعرفة 36 كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1980م.

17 - الحب عند العرب، د.عادل كامل الألوسي، الدار العربية للموسوعات الطبعة الأولى 1999م

18 - حسان بن ثابت الأنصاري، شاعر الإسلام، تأليف د.ربيعة أبي فاضل، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى 1993م.

19 - حضارة العرب في صدر الإسلام، د.حسين الحاج حسن مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الثانية 2006م.

20 - حضارة العرب في عصر الجاهلية، د.حسين الحاج حسن مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الرابعة 2006م.

21 - الحيوان للجاحظ، أبوعثمان عمر بن بحر بن محبوب، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثانية بيروت دار الجيل 1411هـ.

22 - الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د أحمد محمد الحوفي، نهضة مصر الطبعة الخامسة (د. ت).

23 - خواطر في الفن والقصة للمؤلف عباس محمود العقاد، منشورات دار الكتاب العربي الطبعة الأولى بيروت لبنان 1973م.

24 – دراسات في الأدب والعلم والفلسفة عمرو بن ربيعة المخزومي، وفصل في تطور الغزل والنسيب في الشعر العربي تأليف عمر فروخ، دار لبنان للطباعة والنشر بيروت 1983م.

25 – ديوان إمرؤ القيس وملحقاته بشرح أبي سعيد السكري (د. ت).

26 – ديوان الأعشى طبعة دار صادر (د. ت).

27 – ديوان حسان بن ثابت، تحقيق، د. سيد حنفي دار المعارف بمصر 1983م.

28 – ديوان سحيم، تحقيق عبدالعزيز الميمني 1965 م.

29 – ديوان الحطيئة، شرح حمدو طماس، دار المعرفة بيروت، الطبعة الأولى 2003م.

30 – ديوان حميد بن ثور الهلالي، تحقيق عبدالعزيز الميمني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1965م.

31 – ديوان جران العود النميري تحقيق نوري القيسي، دار رشيد بغداد الطبعة الأولى 1982م.

32 – ديوان الخنساء شرح د.محمد محمود، الطبعة الأولى 1998م.

33 – ديوان عنترة بن شداد، دار صادر الطبعة الأولى (د. ت).

34 – ديوان طرفة بن العبد، شرح يوسف الأعلم طبعة فرنسا 1900م.

35 – ديوان كعب بن زهير، د.محمد يوسف نجم دار صادر بيروت الطبعة الأولى 1995م.

36 – الرجل في شعر المرأة، د. عمر عبدالعزيز السيف، دار الانتشار العربي الطبعة الأولى بيروت 2008م.

37 – رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، مصطفى الشكعة الدار المصرية اللبنانية، القاهرة (د. ت).

38 – روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم الجوزية، شمس الدين محمد، دار الكتب العلمية بيروت 1977م.

39 – سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة (د. ت).

41 – سيرة عمر لابن الجوزي، أبوالفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن أبي الجوزي طبعة مصر 597هـ.

42 – السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا 1936م.

43 – شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، تحقيق عبدالقادر مايو 1998.

44 – شاعرات في عصر النبوة، د. محمد التونجي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى 2002.

45 – شاعرات القبائل العربية، أبوعبدالله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق سامي مكي العاني الطبعة الطبعة الأولى 2007.

46 – الشعر الإسلامي والأموي، عبدالقادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1987 م.

47 – شعر الغزل عند امرئ القيس، دراسة في الأدب الجاهلي، أ. د. عمران إسماعيل فيتور، دار المناهج للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2005م.

48 – شعراء صدر الإسلام وفاء فهمي السنديوني، كمبيو جرافيك أرت سنتر مدينة نصر، الطبعة الثانية 1995.

49 – الشعراء في عصر النبوة والخلافة الراشدة دمشق دار الفكر (د. ت).

50 – شرح المعلقات العشرة وأخبار شعرائها أ.أحمد بن أمين الشنقيطي، قدم له د. فايز ترحيبي، دار الكتاب العربي 1985.

51 – الشعر النسائي في أدبنا القديم، د. مي خليف دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع 1991.

52 – الشعر والشعراء، لابن قتيبة أبي عبدالله بن مسلم بن قتيبة، عالم الكتب الطبعة الثانية 1983م.

53 – الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين علي أحمد الخطيب الدار المصرية اللبنانية الطبعة الأولى 2003م.

54 – الشعر الجاهلي، السياق والملامح، صلاح رزق دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع 2005.

55 – صحيح البخاري الجزء الرابع كتاب الأدب (د . ت) من الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت).

56– صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل ت 261هـ كتاب الشعب بالقاهرة.

57 – صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج 256، مطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة 1334هـ.

58 – العصر الإسلامي، د . شوقي ضيف، دار المعارف الطبعة الرابعة والعشرون 2007م.

59 – العصر الجاهلي، د .شوقي ضيف، دار المعارف الطبعة السابعة والعشرون 2007.

60 – العقد الثمين من دواوين الشعراء الجاهليين مدينة غريفزولد المحروسة بلات المدرسة الملكية 1899 م.

61 – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، للقيرواني الأسدي، المتوفي سنة 456هـ تحقيق محي الدين عبدالحميد، الطبعة الرابعة 1972 م.

62 – الغزل في العصر الأموي د .عفيف نايف حاطوم، دار صادر بيروت الطبعة الأولى 1997 م.

63 – الغزل في العصر الجاهلي للدكتور أحمد محمد حوفي الطبعة الثالثة دار النهضة مصر القاهرة 1972.

64 – قوت القلوب، أبوطالب محمد بن علي الحارث المكي، الجزء الثالث المطبعة المصرية 1351هـ.

65 – قيم جديدة للأدب القديم والمعاصر، د .عائشة عبدالرحمن، بنت الشاطئ دار المعارف 1967، 1970م.

66 – الكامل في اللغة والأدب، المبرد أبوالعباس محمد بن يزيد، مؤسسة دار المعارف بيروت، الجزء الثاني (د . ت).

67 – مائة شاعر وقصيدة، للكاتب صلاح الإمام الطبعة الأولى مكتبة جرير 1998م.

68 – المحاسن والأضداد لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، راجعه د .عاصم عيتاني دار إحياء العلوم بيروت، الطبعة الأولى 1986.

69 – المرأة في شعر عمربن أبي ربيعة، د . رضا ديب عواضة شركة رشاد برس، بيروت 2006.

70 – المرأة في العصر الجاهلي أحمد محمد الحوفي دار النهضة للطبع والنشر الطبعة الثالثة 1972م.

71 – مراجعات في الآداب والفنون دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الأولى 1966م.

72 – المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين بن أحمد الأبشيهي، شرحه صلاح الدين الهواري، دار مكتبة هلال، الطبعة الثانية 2000.

73 – مظاهر القوة في الشعر الجاهلي، د. حنا نصر الحتي، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى 2007م.

74 – المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي دار العلم بيروت الطبعة الثالثة 1980م.

75 – المفضليات، المفضل الضبي أبوالعباس مفضل بن محمد، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون دارالمعارف 1964م.

76 – مقدمة ابن خلدون عبدالرحمن بن خلدون، تحقيق حامد أحمد طاهر دار الفجر للتراث الطبعة الأولى 2004م.

77 – مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة د.محمد بلتاجي دار السلام للطباعة والنشر الطبعة الثالثة 2005م.

78 – هداية الباري إلى ترتيب صحيح البخاري شرح السيد عبدالرحيم عنبر الطهطاوي ت 1362 هـ دار الرائد العربي، الطبعةالرابعة 1390هـ 1970م.

79 الوحشيات – الحماسة الصغرى أبوتمام حبيب بن أوس الطائي دار المعارف بمصر الطبعة الثانية 1970م.

****

المحتوى

- المقدمة 5
- التمهيد 9

الفصل الأول مكانة المرأة عند العرب في الجاهليــة

- المبحث الأول: وضع المجتمع الجاهلي من الناحية الاجتماعية والدينية والاقتصادية 15
- المبحث الثاني: نظرة المجتمع الجاهلي للمرأة 23
- علاقة المرأة الجاهلية بالرجل 30
- محارمها الأدنون: 31
- أبناء عشيرتها 32
- الرجال الأباعد (غير الأعداء) 33
- الأعداء 33
- المبحث الثالث: منزلة الشاعر في الجاهلية ونظرته للمرأة 35
- منزلة الشاعر في الجاهلية 35
- نظرة الشاعر الجاهلي للمرأة 42

الفصل الثاني نماذج من شعراء الجاهلية الذين تناولوا المرأة في أشعارهم

- المبحث الأول: نوعية الأشعارالتي قيلت في المرأة وأشهر من قالها 49
- الغزل والنسيب والتشبيب 50
- - الغزل والتغزل 51
- النسيب والتشبيب 51
- تطور الغزل 52
- أقسام الشعر الغزلي 52

- أنماط الغزل في الشعر الجاهلي 53
- 1 - غزل المطالع 53
- 2 - غزل المحاسن 55
- 3 - الغزل الصريح الماجن 56
- غزل الكهول 58
- الغزل الصريح (المكشوف) 59
- امرؤ القيس 60
- طرفة بن العبد 73
- الأعشى 81
- الحب العفيف 90
- عنترة 90
- المبحث الثاني: 97
- الصورة السائدة للمرأة في الشعر الجاهلي وموقف المجتمع الجاهلي من هذه الأشعار 97
- موقف المجتمع الجاهلي من هذه الأشعار 103
- المبحث الثالث: 107
- نظرة المرأة الجاهلية لمجتمعها ونفسها من خلال أشعار بعض الرائدات في الشعر في العصر الجاهلي 107
- الخنساء 114
- جليلة 117
- الغزل النسائي 120

الفصل الثالث: مكانة المرأة في صدر الإسلام

- التمهيد 131
- المبحث الأول: 133
- سمو مكانة المرأة وإعطاؤها حقوقها 133
- المبحث الثاني: 140
- نظرة الإسلام للشعر والشعراء وأثر ذلك على أدائهم 140
- المرأة في شعر حسان بن ثابت 151
- كعب بن زهير 158
- صورة المرأة في شعر كعب بن زهير 159
- الحُطَيئة 166
- المرأة في شعر حطيئة 168
- الصورة المختلفة للمرأة 175
- تجربة الغزل عند حميد بن ثور الهلالي 186
- المبحث الثالث: نظرة المرأة لنفسها ومكانتها في مجتمع صدر الإسلام 195
- شعر الغزل 205
- المبحث الرابع: المقارنة 222
- الخاتمة 230
- المصادر والمراجع العربية 232
- المحتوى 237

****